4 me Année, No. 146. | Lundi - 20 - 4 - 1936

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

العـــدد ١٤٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ محرم سنة ١٣٥٥ — ٢٠ أبريل سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

فهرس العدد الممتاز

من عبر السيرة

محمـــد الوالد

إن فى حزن القوى عزاء لجزع الضعيف

تخطفت المنايا السود فلذات الرسول بنات بعد بنين ، فلم يبق إلا فاطمة قرة لعينه وعزاء لنفسه . وكانت جراحات القلب العظيم لا تجد لمسّها الممض فراغاً بين آلام الرسالة فتندمل فى سكون وصمت . فلما عنتْ سَورة الشرك فى مكة ، وعلت كلمة الله فى الجزيرة ، وتحققت وحدة العرب فى الوجود ، وأخذت نفحات السلام الالـهى تنضح الجو المشتعل بالنار ، وتطهر الثرى المخضوب بالدم ، تنبهت فى الانسان الأعلى مشاعر الطبيعة ، وتجددت فى العربى الرسول عواطف الأبوة ، وحزّ فى نفس محمد أن يرى أمهات المؤمنين يعقمن عشرة أعوام متتابعة ، فبيوتهن التسعة حول المسجد المهلل الذاكر غرق فى السكون الرهيب والصمت الموحش ، لا يؤنس حجراتها غناء المهد ، ولا يبهج أفنيتها مرح الطفولة

لا ريب أن أسرة محمد الرسول شملت جزيرة العرب كلها ، وستشمل عالم الاسلام أجمع ؛ ولكن أسرة محمد الرجل لا تزال ألماً من آلام العبقرية ، ومحنة من محن البطولة . تدرع باسم الله وبرز وحده لشياطين الأرض ، فجاهد الوثنية حتى أقر الحق ، وعالج الانسانية حتى أعلن الخير ، وشذب الطبيعة حتى أنمى الجمال ، وبلغ الرسالة حتى لم يبق لرضى الله غاية لم تدرك ، ولا

لصلاح الناس سبيل لم تشترع . ولكنه هدفَ للستين فى جهاد الشرك والجهل والهوى ، ولا يزال يجد فى جوانب نفسه الكبيرة عاطفة لم تُرضَ ، وحاجة لم تُقضَ ، ورسالة لم تتم ! تلك هى عاطفة القلب للولد ، وحاجة النفس إلى التجدد ، ورسالة الحياة إلى الحياة

* * *

بين ظلال النخل والكرْم ، وفى بيته المصرى على العالية من ضواحى المدينة ، أتم الله نعمته على رسوله فوهب له على الكبر ابراهيم ! يومئذ تنفس الصبح بأنفاس الفردوس ، وضاحكت الشمس خمائل يثرب من خلال الأجنحة النيرة ، ومست يد الربيع المخصبة دوحة النبوة ، وغرقت نفوس المؤمنين فى مثل صفاء الخلد ، وأقبل المهاجرون والأنصار على المسجد المستبشر يهنئون النبي بالخليفة الوليد والأمل الجديد والعوض المبارك ؛ ونهض الرسول الوالد إلى بيت مارية القبطية ليرى نعمة ربه ، وبضعة كبده ، فوجد فى طلعة ابراهيم الأنس الذى يعوزه ، والرضى الذى يرجوه ، والخلف الذى يتمثله ؛ ففاضت غبطته لله حمداً ، وعلى المؤمنين بركة ، وفى الفقراء صدقة . رفع أمه إلى مقام أزواجه ، ونفح مرضعته بسبع من المعزى سمان يحلبن عليها وعليه ، ثم عقّ له بكبشين أملحين ، وتصدق بزنة شعره فضة ؛ وتعوّد كل صباح أن يزور أم ولده فيحمله منها ليضمه ويشمه ، ويتذوق طعم السعادة الأرضية فى ريحه ، ويطالع نفسه العائدة فى نفسه ، ثم يدخل به على الأمهات اللائى ولدن جميع المسلمين ولم يلدن ، فيباهى بحسنه ، ويغتبط بنموه ، ويحتمل راضياً فى سبيل ذلك كله غيرة حُميرائه وكيد نسائه

* * *

ولكن أنبياء الله موضع بلائه وسر حكمته ! دعوتهم الحق والحق ثقيل ؛ وعدتهم الصبر والصبر كليل ، وبرهانهم الألم والألم قاتل ! غرباء فى الأرض لأنهم من السماء ، وأغراض لسهام القدر لأنهم ضحايا ، وأمثلة لبؤس العيش لأنهم عِبر ! هذا ابراهيم حبة قلب أبيه وسواد عين أمه مسبوتاً على فراش المرض تحت النخيل ! تذوي نضارته على وهج الحمى ، وتذوب حشاشته على عَرْك الموت ، وأمه وخالته قاعتان على سريره تشهدان منظراً يهون فى جانبه على الوالدين الجنون بالكفر والعدم ! وهذا أبو ابراهيم يضعضعه النبأ المروع فيتحامل على عبد الرحمن بن عوف ، ويمشى ثقيل الخطى لهيف الفؤاد ، إلى الصغير المحتضر ! لو كان لمتاع العيش غناء لتقلب فيه المؤمن ، ولو كان لقانون الموت استثناء لأفلت منه المصلح ، ولو كان فى قلب الثاكل المحزون شبهة لجلتها محنة الله لرسوله !

أخذ النبي ابراهيم من حجر أمه فوضعه فى حجره ، ثم نظر من خلال الدمع إلى قسماته المشرقة تغشاها ظلال الموت ، وقال بصوت متهدج وفؤاد متأجج واستسلام مطمئن : « إنا يا ابراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً »

يا لله لقلوب الوالدين ! إن النبي الذى وُلد فى مهد اليُتم ، ودرج فى حجر العُدم ، وتقسمت عمره عوادى الخطوب ، فكابد أذى قريش وحقد المنافقين وكيد اليهود ، وعالج مكاره الدعوة من القلة والذلة والهزيمة والفتنة ، قد احتمل كل ذلك بصبر المجاهد ويقين المؤمن وعزم الرسول ، ويصيبه الله فى إبراهيم وهو رضيع فيرفضّ عنه الصبر ، ويتملكه الجزع ، ويقف من الثكل الأليم موقف كل والد يرى جزءه الجديد يبلى ، ورجاءه الناشئ يخيب ، ثم يقول : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليجزع ، وإنا بعدك يا إبراهيم لمحزونون : أما والله لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنّا عليك بأشد من هذا ! » . وينال من الصحابة حزن الرسول فيتقدمون إليه يذكرونه ما نهى عنه فيقول : « ما عن الحزن نهيت ! وإنما نهيت عن العويل . وإن ما ترون بي أثرُ ما بالقلب من محبة ورحمة . ومن لم يُبد الرحمة لا يبدى غيره عليه الرحمة »

على أن حزن الرسل لا يكون إلا بمقدار ما فيهم من ضعف الانسان . لذلك لم يلبث الرسول أن عاد إلى نفسه فصلى على ولده ، وسوى عليه القبر بيده ، ثم رش فوقه الماء وأعلم عليه علامة وقال : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحي ، وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه »

* * *

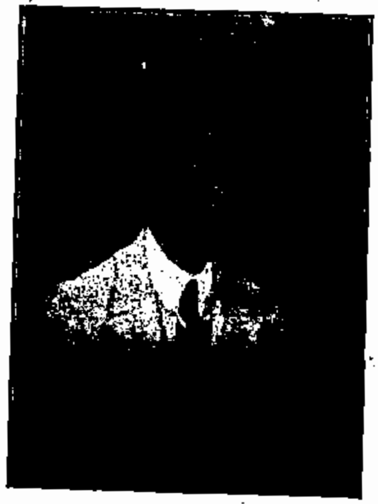
تعزيت يا رسول الله لأن الألم سبيل من سبل دعوتك ، والعزاء أصل من أصول دينك ، والأرض وما عليها أهون من دمعك ، والسماء وما فيها ثواب لصبرك ، ولكن ماذا يصنع البائس المحزون إذا فقد الرجاء ، وليس له فى يومه صبر ولا فى غده عزاء ؟

احمد حسن الزيات

ى هامش السيرة

حديث عـــداس

للدكتور طه حسين بك



قال عتبة بن ربيعة لأخيه شيبة : أنظر الى هذا الرجل المقبل على حائطنا ومن ورائه السفهاء والعبيد قد أغروا به وسلطوا عليه ، فهم يؤذونه بألسنتهم ، وهم يؤذونه بما يحصبونه به من الحصى والأحجار ! ألا تثبته ؟

قال شيبة وقد نظر فأطال : بلى ! والله إني لأعرفه كما تعرفه ، وإن قلبي ليرق له كما يرق له قلبك ، وإن نفسي لتثور غضباً له كما تثور نفسك ، ولقد هممت وما زلت أنازع نفسي أن أفزع إلى نصره وجواره وحمايته من حلماء ثقيف وسفهائها ، لولا ما بينه وبين قومنا ، ولولا أني أعلم أننا إن فعلنا كان لنا مع قومنا أمر عظيم وخطب جليل . قال عتبة : وارحمتاه لابن عمنا من قومه ! ثم وارحمتاه لقومنا من أنفسهم ! ما كنت أحسب أن يبلغ الأمر بقريش أن يذل عزيزها ونحن شاهدان ، وأن يجترئ حي من أحياء العرب وإن كانوا ثقيفاً ، على أن يسوءوا رجلاً من قريش وإن كان مستضعفاً مهيناً . فكيف بابن عبد المطلب وابن أخي حمزة والعباس ؟ وكان هذان الرجلان من أشراف قريش قد ذهبا إلى بستان لهما فى الطائف يصلحان من أمره وأمرها ، ويهيئان لتجارتهما : يجمعان ما تنفذه ثقيف مع تجار قريش إلى اليمن فى رحلتها إلى اليمن ، وإلى الشام فى رحلتها الى الشام . وكانا قد أقاما فى الطائف أياماً ، وأقبل فى أثناء ذلك النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على ثقيف يلتمس عندهم النصر والعون والجوار بعد أن تنكرت له مكة بطاحها وظواهرها ، وبعد أن تنكر له الناس حتى أقربهم اليه وأدناهم منه ، وبعد أن فقد عمه الذى كان يمنعه ويقوم دونه ، وبعد أن فقد زوجه التى كانت ترعاه وتكلؤه وتحوطه بالرحمة والحب والحنان ، وكان قد لزم داره بعد هاتين الكارثتين لا يكاد يبرحها خائفاً محزوناً حتى أقبل عليه عمه أبو لهب فأمنه وأعلن اليه أنه يقوم من حمايته بما كان يقوم به أبو طالب . فسرى عن النبي الكريم شيئاً واستأنف الخروج من داره والذهاب إلى المسجد ، والاضطراب فى مكة ، ولكن قوماً من قريش ألحوا على أبي لهب حتى غيروه على ابن أخيه فاسترد جواره وحمايته ، وعاد من حرب النبي وعداوته إلى مثل ما كان عليه قبل أن يموت أبو طالب . فلما ضاقت مكة بخير أبنائها خرج إلى الطائف يلتمس جوار ثقيف ، فأقام فيهم ما شاء الله أن يقيم ، يسعى عند هذا ويتلطف لذاك ، وكلهم يرده وكلهم يمتنع عليه ، وكان مقامه فيهم قد أخافهم وثقل عليهم وأثار فى نفوسهم إشفاقاً أن يصيب مدينتهم ما أصاب مكة من اضطراب الأمر ، وانتقاض الضعفاء على الأقوياء واستجابة قوم لهذا الرجل الذى أنكره قومه ولم تره مدينته إلا ما يكره . فتقدموا اليه فى الرحيل عنهم ، ولم يكد يفعل حتى أغروا به سفلة الناس وسفهاءهم فتبعوه يؤذونه بالقول والفعل حتى ألجأوه ضعيفاً مكدوداً وكئيباً محزوناً الى حائط هذين القرشيين ، وأقبل النبي وقوراً هادىء الخطى مطمئن النفس ، تظهر على وجهه الكريم آيات الضعف ، وآيات القوة ، وآيات الحزن ، وآيات الرجاء . ضعف مصدره الجهد والعناء ، وقوة مصدرها الحزم والعزم ، وحزن مصدره الرحمة لهؤلاء الذين يدعوهم إلى الخير فيبغونه بالسوء ، ويرشدهم الى النجح فيريدونه بالمكروه ؛ ورجاء مصدره الثقة لأن الله لم يختره لرسالته ليخذله قبل أن يتم أمره ، ويعلى كلمته ، ويظهر دينه على الدين كله ، وبأن الله لا يصيبه بما يصيبه به من المكروه إلا امتحاناً لقلبه وابتلاء لنفسه وتمحيصاً لطبعه

أقبل هادئاً والناس من ورائه مضطربون ، مستأنياً والناس من ورائه مسرعون ، حتى انتهى الى ظل من ظلال البستان فجلس متعباً مكدوداً ، والقرشيان ينظران اليه ويرقان له ويعطفان عليه ، وينازعان نفسيهما الى نصره ومعونته ، وقد كادا يفعلان لولا أن ذكرا قريشاً ، ولولا أن ذكر عتبة بن ربيعة صهره أباسفيان وقدر ما يلقاه وما يلقاه أخوه من قريش إن منح محمداً معونة أو نصراً ؛ ولكنهما رأيا

ابن عمهما يأوى إلى ظلالها مكروباً محزوناً ، فلم يعلكا أن يتنما عن أن ينالاه بأيسر الخير وأهون البر ، فيدعوان عداساً عبداً من عبيدهما ويأمرانه أن يحمل إلى هذا الرجل الضعيف المكدود شيئاً من عنب البستان ليصيب منه ، ويمضى العبد منفذاً أمرهما ، ولكنهما لا يستطيعان أن ينصرفا عن مكانهما ولا أن يحولا بصرهما عن ابن عمهما ، وقد أهينت فيه قريش كلها ، لولا أن قريشاً قد احتفظت بأحلامها فهما ينظران ويرثيان ، ويعمل الأسى فى قلبيهما والعبد يسعى بالطبق الى هذا الرجل المحزون ، حتى إذا انتهى إليه وضع الطبق بين يديه ، وأقبل الرجل على العنب يريد أن يصيب منه ، والعبد قائم منه غير بعيد ، ولكن القرشيين ينظران فيريان عجباً : يريان كأن حديثاً قصيراً قد دار بين الرجل وبين هذا العبد ؛ ثم يريان العبد وقد أكب على هذا الرجل الحزين يقبل رأسه ويديه ورجليه باكياً مستعبراً ، مندفعاً فى حديث لا يكاد ينقضى ، مظهراً من التكرمة والاجلال لهذا الرجل ما لم يتعود أن يظهر لأحد من سيديه . فيقول أحد القرشيين : ويحك لقد أفسد علينا ابن عمنا هذا العبد : وما أرى إلا أن ثقيفاً معذرين إن خافوا منه على عبيدهم وضعفائهم وأقويائهم أيضاً ما خفنا نحن منــه على العبيد والضعفاء والأقوياء ؛ وهــذا الرجل قد نهض وقوراً هادئاً ، ومضى أمامه وقوراً هادئاً ، ومضى العبد معه شيئاً من الطريق . ثم وقف يشيعه بطرفه حتى غاب عن طرفه وعن طرف القرشيين

هنالك عاد العبد الى سيديه ، وفى وجهه آيات الكآبة والحزن ، وفى وجهه مع ذلك آيات الطمأنينة والرضى ، ودموع تجرى من عينيه لم يدريا أكانت دموع حزن وابتئاس ، أم كانت دموع غبطة وابتهاج

يقول عتبة بن ربيعة للعبد رفيقاً به عطوفاً عليــه : ويحك يا عداس ! إنك مع هذا الرجل لشأناً ، فاقصص علينا بدء حديثك فقد رأيناك حفياً به متلطفاً له ، مكباً عليه تقبله باكياً مواسياً ، ثم مرافقاً له تشيعه بشخصك ثم بطرفك . قال العبد : نعم يا مولاى إن لى مع هذا الرجل لشأناً وحديثاً عجباً ، وأحب الى أن أقص عليكما حديثى ! ولكن أى حديثى تريدان ؟ أتريدان حديثى منذ اليوم ، أم تريدان حديثى القديم الذى مضت عليه أعوام طوال ، والذى دفعنى إلى بلادكم هذه ، والذى اضطرنى إلى ما أنا فيه من رق ، أعمل لكما بيدى فى هذا البستان ، وما عملت لأحد قبلكما بيدى ، وما عملت لنفسى بيدى ، وإن كان الناس ليعملون لى كما أعمل لكما الآن ؟ قال عتبة وقد ثارت فى نفسه طبيعة العربى الذى أترف وفيه فضل من بداوة ، فهو مشغوف بالقصص ، كلف بغريب الحديث . قال عتبــة : وإن لك لحديثاً قديماً بينه وبين حديثك هذا الجديد سبباً . قال عداس : نعم . قال عتبة : فاقصص علينا حديثك . وأخذ القرشيان مجلسهما استعداداً لسماع الحديث ، وهم العبد أن يبدأ حديثــه قائماً ، ولكنهما أذنا له فى الجلوس فجلس وأطرق وأغرق فى صمت غير طويل ، ولكنه كان عميقاً . ثم قال : لقد انتهيت الى هذا الرجل منــذ حين فسمعته يقول كلاماً ما أعرف أن الناس يقولونه أو يقولون مثله فى هذه الأرض . فلما سألته عن ذلك حدثنى بحديث ما يعرفه إلا نبى ، وكأن حديثه هذا منى على ميعاد ، أو كنت أنا من حديثه هذا على ميعاد . لقد سألنى سؤالاً لم يسأله أحد منذ وطئت هذه البلاد . سألنى عن موطنى الذى نزحت منــه ، فأنبأته بما لا تعلمان وبما يحسن أن تعلماه الآن ، وهو أنى رجل من أهل نينوى ، نشأت فى بيت من بيوت الأحرار الذين إن لم يتح لهم الملك والامارة ، فقد أتيحت لهم الثروة والغنى ؛ وكنت موفور الحظ من النعمة وحسن الحال ، فارغاً لمــا يفرغ له أمثالى فى تلك البلاد من تقسيم الوقت بين لذة الجسم ولذة العقل ؛ ألهو ما وسعنى اللهو ، ثم أقرأ وأختلف إلى مجالس العلماء والفلاسفة من القسس والرهبان فأسمع منهم وأتحدث إليهم ، وآخذ معهم فى ألوان من الجدل حول ما يختلف الناس فيه عندنا من أصول الدين والعلم ، وأنتما لا تعلمان من أمرنا فى تلك البلاد إلا قليلاً ، إنما تعنيان ويعنى قومكما بما تحملون إلينا من تجارة ، وما تصـــدرون به عنا من مال . وما تصيبون فى بلادنا من هذه اللذات اليسيرة . فأما ما دون ذلك فليس لكم به علم ، وليس لكم عنه سؤال ؛ ولو قد دخلتم فى حياتنا وعرفتم دقائق أمرنا ، لرأيتم أن فى نفوسنا اضطراباً شديداً ، وغلياناً متصلاً ، وضيقاً بالسلطان ، وتمرداً على النظام ، وإنكاراً لما ورثنا من عادة ، وشكا فيما تلقينا من دين . ساءت فينا سيرة السلطان فنقمنا من نظام الحكم ، وساءت فينا سيرة القسس فشككنا فى الدين ؛ فأما العاجزون فقد أعطوا طاعة ظاهرة وأضمروا عصياناً خفياً ، وعكفوا

اللذات يستعينون بها على احتمال الحياة ؛ وأما الأقوياء وأولو
م فقد فكروا وقدروا وجدوا فى التفكير والتقدير يلتمسون
جاً من حرج ومخرجاً من ضيق ، وكنت فيما رأيت من هؤلاء .
ضقت بالحياة فى مدينتى ولم أجد عند علمائها وقسسها شيئاً
جت مسافراً إلى الشام ألتمس فى السياحة تسلية وعلماً ، وأبتغى
ا ظفراً بالخير ، ولست أقص عليكما رحلتى إلى الشام ومنازلى
طريق إليها ، واضطرابى فى مدنها وقراها ، ويأسى من قسسها
علمائها ، وضيق بسادتها وحكامها ، ولكنى انتهيت بعد كثير
ن الاضطراب إلى دير من الأديرة يقوم فى آخر العمران وأول
صحراء مما يلى بلادكم هذه ، وأقمت فى هذا الدير دهراً راضياً
ن حياته الهادئة المطمئنة راضياً عن حياة أهله الآمنين الوادعين
لأخيار ، ناعم النفس بعشرتهم مستمتعاً بأحاديثهم ، ولكننى سمعت
ن أحاديثهم عجباً : رأيت لهم فيما بينهم أمراً يتحدثون عنه بالرمز ،
ويومئون اليه بالاشارة ، ورأيت حديثهم هذا الرمزى يكثر ويشتد
إمعانهم فيه كلما مرت بديرهم قافلة من قوافلكم هذه التى تتردد
على بلاد الروم . رأيتهم يعرفون أنباء هذه القوافل قبل أن تصل
إليهم فيتهيأون لها ويستقبلونها ويكثرون من سؤالها ، ويظهرون
الحفاوة بها . ثم يخلو بعضهم الى بعض ، فيتبادلون بينهم أحاديث
الرمز والاشارة والايماء ، ويقول بعضهم لبعض : لم يأت النبأ
بعد ؛ أو يقول بعضهم لبعض : لقد انقطع النبأ بعد أن جاءت
بشائره . فلما كثر على منهم ذلك أزمعت أن أعلم علمه ، فتلطفت
لهم وتوسلت اليهم حتى عرفت أنهم ينتظرون إصلاحاً دينياً ذا بال ،
وأنهم قرأوا فى كتبهم أن هذا الاصلاح يأتيهم من قبل هذه
البلاد ، وأنهم حسبوا وقدروا ورأوا أن زمان هذا الاصلاح قد
أظل الناس ، وأن أنباء قد انتهت إليهم وأحاديث قد نقلت لهم .
وكلها يدل على أن أوان هذا الاصلاح قد آن . ثم قصوا على من
هذه الأنباء والبشائر أطرافاً ، فلم أملك أن كلفت بالرحلة الى بلادكم ،
وقلت ما يمنعنى إن أبعدنى السفر ؟ وما يمنعنى أن أتصل بقافلة من
قوافلكم هذه فأبلغ معها هذه الأرض ، فأعلم من علمها ، وأصيب
من تجارتها ؟ ولعلى أظفر بما يتحرق إليه هؤلاء الرهبان شوقاً ؛
وأنتما تعلمان كيف كان الاتفاق بينى وبين تلك القافلة التى أمنتنى
على نفسى ومالى ، وضمنت لى أن أبلغ بلادكم هذه موفوراً فأصيب
من تجارتها وأعود معها من قابل إلى الشام ، حتى إذا بعدنا عن بلاد
الروم وانقطعت أسبابى من أسباب قيصر عدا أهل هذه القافلة
على مالى فاحتجزوه ثم عدوا على فاتخذونى بضاعة وباعونى من
صاحبكما ذاك الذى اشتريتمانى منه قريباً من يثرب .

فهذا بدء حديثى أيها السيدان . وقد عملت فى بستانكما
أعواماً ، وكان الناس يتحدثون من حولى بهذه الأحداث التى
تحدث فى مكة ويتناقلون من حولى أنباء هذا الرجل الذى ينكر
الأوثان ويدعو الى التوحيد ، ويريد أن ينصف المظلوم من
الظالم ، والعبد من السيد ، ويسوى بين الضعيف والقوى ؛ وكان
الناس يتحدثون من حولى بما يلقى هذا الرجل فى بلده من شر .
وما يمتحن به أصحابه من ألوان الفتنة ، وكنت كلما سمعت هذه
الأحاديث هششت لها ، وطابت بها نفسى ، وأحسست أن النبأ
الأعظم قريب ؛ وكنت أقدر أن صاحب هذا النبأ يجب أن يكون
كاخوانه الذين سبقوه عالماً بدين الله ، داعياً اليه ، مخبراً من أنباء
الأولين بما لا يخبر به الناس ، وكم وددت لو أتيح لى أن أنحدر
الى مكتكما هذه فأسأل صاحبكما وأسمع منه . ولكن الرق فى
بلادكما شديد . فنحن أرأف منكم بالرقيق ، وأعطف منكم عليه .
وقد لبثت فى بستانكما هذا أسمع الأنباء وألتمسها وأتحرق شوقاً
إلى مصدرها حتى أقبل صاحبكما هذا منذ حين ؛ ولقد رثيت له
حين رأيته وأوشاب الناس من حوله يؤذونه بألسنتهم وأيديهم .
ولقد هممت أن أفزع لنصره والذود عنه ، وما كنت أعلم من
أمره شيئاً ، ولكنها الرحمة عطفتنى عليه ؛ ولقد هممت أن
أستأذنكما فى إيوائه وإيثاره بشىء من القرى . ولكنى رأيتكما
تنظران وتتحدثان ولا تنشطان ؛ ثم أمرتمانى بالسعى اليه ، فلما
لقيته سمعت منه كلاماً ما سمعت مثله فى هذه الأرض . فلما سألته
عن ذلك سألنى عن موطنى . فلما أنبأته به قال هذا موطن يونس
نبى الله . فما شككت فى أنه صاحبى الذى أقبلت ألتمس أنباءه .

قال عتبة ويحك يا عداس إن حديثك هذا لعجب ، ولكنا نخشى
أن يفسد عليك صاحبنا دينك ، وإن دينك لخير مما يدعو إليه .

قال عداس : مهلاً ياسيدى ! إن الذى يقول ما سمعت لا يدعو إلى شر
ولا يغرى بفساد ، ولا يأمر إلا بمعروف ، ولا يقول إلا حقاً .

قال شيبة : ويحك يا عداس لقد سحرك صاحبنا فيمن سحر ، فاذا

سمعت مذ [illegible] عداس : بل قال لقد هدانى فيمن هدى ، ولقد [illegible] جى ربه بحديث ما سمعت أعذب منـه . لقد حفظت [illegible] يته ، وإنك لتعلم ما أنا بالعربى ، وما حفظ أحاديثكم على بيسير .

قال عتبة : فهات أعد علينا ما سمعت . قال سمعته يقول : « اللهم إليـك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملـكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولـكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولم يفرغ العبد من هذا الحديث حتى أغرق فى بكاء هادئ ، وأغرق سيداه فى وجوم عميق . ثم ثاب القوم جميعاً إلى أنفسهم ونظر القرشيان أحدهما الى بعض نظرة المستخذى الأسف . ثم قال عتبــة لعداس : أنت وما تشاء يا عداس من حب صاحبك وطاعته ، ولـكن لا تنسَ أن لنا عليك حقاً وطاعة ، وأنا حريصان على ألا تظهر من أمرك شيئاً فتضطرنا فيك الى ما نـكره ، وتضطر قومنا فينا الى ما تـكره

ومضت أعوام وحدثت أحداث ، ونظر العبد الشيخ ذات يوم فاذا محمد صلى الله عليه وسلم قد ضرب عسكره حول الطائف يحاصر فيها ثقيفاً ؛ وكان عداس قد انتقل من ملك ابنى ربيعة بعد موتهما الى الثقفيين ، وإذا نفســه تنازعه الى صاحبــه ، وإذا هو يحرض الرقيق ويبث فيهم الدعوة الى الخروج على سادتهم واللحاق بجيش المحاصرين ، وإذا نفر من الرقيق يجتمعون اليــه ، وإذا هم يقتحمون الأسوار ويهبطون الى العسكر مسرعين وترميهم مقاتلة ثقيف بالنبل فتصرع منهم جماعة فيهم عداس قد مات قبــل أن يبلغ صاحبه العظيم ، ويخلص سائرهم إلى النبى فيهديهم الى الاسلام ويردهم الى الحرية ، وينصرف عن حصار الطائف حتى إذا أسلمت ثقيف تـكلمت فى رقيقها أولئك وأرادت ردهم الى الطاعة ، فيقول النبى الـكريم : كلا ! هؤلاء عتقاء الله

طه حسين

منطقــــة الإيمان

للاستاذ توفيق الحكيم



حينما كنت وكيـلاً للنائب العام كنت أرى عجباً فى قاعات المحـاكم وجلسات التحقيــــق ؛ وكنت أفـكر كثيراً فى أمر ذلك الشرير الذى طالعت صحيفة حياته فاذا آثام ودماء تسيل منها ، ومع ذلك يقف أمامى متطلعاً الى السماء ، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذبا . هــذا الآدمى قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقومها شىء ، لـكن بقيت برغم هذا فى نفسه منطقة عذراء لم يتطرق اليها فساد : منطقة العقيدة ! أهناك إذن حد فاصل بين العقيــدة والغريزة ؟ كذلك كان يدهشنى أمر صديق من خيرة القضاة ، كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ؛ ومع ذلك بقى عقله حراً من كل قيد . ما يدور بيننا حديث فى الخالق والخليقة حتى يذهب هو فى التدليل والنطق كل مذهب الى أن يقع فى الالحاد وإنكار الجنة والنار . وينادى المؤذن بالصلاة فاذا القاضى يسرع مخلصاً الى ذلك الدين الذى قال فيه منذ لحظة قولاً عظيما . أهناك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملـكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فان هذا القول يؤدى حتما الى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا الى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملـكات تباين ألوان الحقيقة لدى كل منها ؛ فما يصدق عند القلب ، قد لا يصدق عند العقل . بل إن كل ملـكة من تلك الملـكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى . يقابل ذلك فى المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين

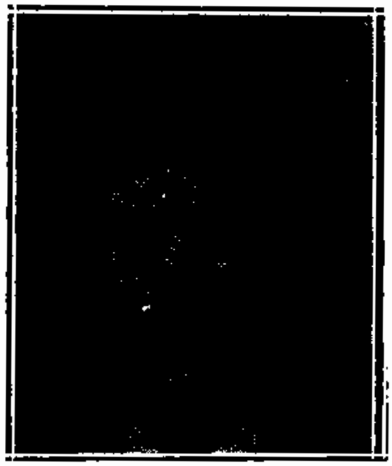
الحواس ، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية ، وما يعتبر موجوداً في منطقة العين لا يعتبر موجوداً في منطقة الأذن ، فهذا الحجر الساكن حقيقة تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة ، ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله ، لأن عالمها وهو عالم الأصوات لا يخطر له على بال أن في الوجود عالما يسمى عالم المرئيات . فالعقل لا يدرك إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه . والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة ، وليست الحقيقة كلها . ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فاذا كانت العقيدة مرجعها القلب ، فان العقل لن يرى منها إلا الشطر الذي يستطيع أن يراه ، ويظل محجوبا عنه الشطر الواقع في دائرة القلب . فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لا شك فيه عنه القلب ؛ أما العقل فان استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق ، فانه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة اليه ؛ وقد يراها في منطقة صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالاً له ، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التي هي في عرفهم مرادف الاكبار والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهل يستطيع الجزء أن يرى الكل ؟ هل تستطيع الكبد في جسم الانسان مثلاً أن تحيط إدراكا بحقيقة شكل الانسان الخارجي وهي جزء منه داخل فيه ؟ إن كل ما تدركه الكبد هو وجود تلك المواد التي تمر بها كل يوم فتحولها الى إفرازات دون أن تدري من أين جاءت ، ولا الى أين تذهب . العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدري من أين جاءت ولا الى أين تذهب . فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التي تمر بالحواس ؛ ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل ، كمن يطلب الى الكبد مضغ الطعام . فالحقيقة العقلية أو العلمية شيء ، والحقيقة الاحساسية أو الدينية شيء آخر ؛ وإن رجال الدين يقعون دائماً في الخطأ ، إذ يبسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولاً يتفق مع الدين ، ويقطبون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين . وما أحراهم في كلتا الحالين أن يبسموا غير مكترثين بسمة الصفاء واليقين ، وأن يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم في كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق ، وأن لا شأن للعلم بهم ، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه ، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طرقة واحدة من طرقات معوله ، وأن أولئك الملحدين الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك في جوهره ووجوده ، لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة إلى ذلك الموجود الاسمى الذي بيده نفوسهم . إن عقولهم كانت ترغى وتزبد بالكلام المعقول والمنقول ، وقلوبهم في معزل عن كل هذا الصخب ، لا تشعر ولا تدري شيئاً عن المعركة الحامية القائمة في تلك الرؤوس . فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من العبث . على أن اجتهاد المجتهدين في هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعي المبني على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرذيلة ...

وهنا يتساءل الناس دائماً : ما الدين ؟ أهو شيء مفيد للبشر في أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم إنه طريق لحل اللغز الأكبر وسبيل للنفوذ إلى المجهول ؟ . في الواقع أن كل دين من الأديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين . فالدين كقانون اجتماعي ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، هو أمر متعلق بحاجات الانسان ، متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر « الأخلاق » في الأديان ليس كل جوهرها . فان بعض البلاد قد استطاعت أن تجد في « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان » ؛ إنما قوة الدين وحقيقته في العقيدة والايمان « بالذات الأزلية » . هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه العلم الانساني ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الاحاطة ، والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية الوجود . فالاتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل . هاهنا يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . إني ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين الى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل ، فان الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ؛ ولا بد لنماء ملكة العقل من التفكير الحر الطليق ، كما لا بد لحياة ملكة القلب من

(البقية في ذيل الصفحة التالية)

الاسلام كعامل فى المدنية*

للاستاذ أحمد أمين



نســـــل أهم تراث الاسلام وأثره فى المدنية أمران : (الأول) العقيدة الاسلامية ، لأنى أرى أن كل ما نشأ عن الاسلام من فتح وعلم وادارة وفن وغيرها أثر من آثارها ، فالعربى قبيل الاســـلام كان هو العربى بعيده ، فى جسمه وجوهر عقله ومعدنه ، ولم يجعله يتجه الى الفتح ويرى نفسه جديراً بأن يقف فى المستوى الذى تقف فيه أرقى الأمم فى عصره — وهما الفرس والروم — بل يرى نفسه أرقى منهما ، وأجدر بأن يحكمهما ويوجههما وجهة خيراً من وجهتهما ويدخل التعـديل على مدنيتهما — الا عقيدته ؛ فهى — وحـدها — الشىء الجديد فى حيـاة العربى المسلم . لم يأت الاسلام فى أول دعوته بنظريات هندسية ، ولم يخترع آلات حربيـة ، ولا فنوناً جديدة ، ولا نوعاً من الادارة جديداً ، لأن هذه كلها أمور ثانوية بجانب العقيدة ؛ فالعقيدة اذا صلحت أصلحت كل فاسد ، ونشأ عنها كل أسباب التقدم ولو كان صاحبها فقيراً جاهلاً ، حتى ولو كان فى بلد جدب وأرض قفر ، ولو لم ينشأ فى مدنية ولو لم يرث حضارة . والعقيدة اذا فسدت أضاعت الثروة الموروثة ولم ينفع معها علم ولم يفد غنى ، كلا ولا تنفع أرض خصبة ولا مدنيـة فخمة ، ففيلة الفرس لم تثبت أمام بعير البدوى ، ولا الدروع المضاعفة الرومانيـة استطاعت أن تصمد أمام نبال العربى وقوسه الساذجة ، لأن بعير البدوى كان يحمل على ظهره قلباً مؤمناً ، وفيل الفارسى كان يحمل فؤادا هواء ؛ والقوس العربيـة كانت تصدر عن عقيدة صحيحة قوية ملهبة ، ودروع الرومانى كانت تتضمن قلباً لا عقيدة فيه ، كل همه شهوة ينالها ومتاع زائل يأمل أن يلتذ به ، فان فقـد العربى حياته فى القتال فلا بأس فانمـا يعجل ذلك قربه من الله ، واذا فقـد الفارسى أو الرومانى نفسه فيالها من خسارة ، فقد حرم الخمر وحرم النساء وحرم متع الحيـاة ؛ فاذا قاتل العربى قدم حياته فحفظت حياته ، واذا قاتل الآخر قدم عدده وادخر حياته فخسر عدده وحياته . لم يتغير شىء فى حياة العربى عند ظهور الاسلام إلا عقيدته ، وكل شىء تغير غيرها فبسببها . وقد كنت أود أن أقتصر على الكلام فيهـا لولا أن هناك ناحية أخرى تهمنا كأثر قوى فى بنـاء المدنية وهى « أثر الثقافة الاسلامية فى المدنية » ، فهى من جهة أكبر أثر للعقيدة ، ومن جهـة أخرى أقوى مركز ترتـكز عليه المدنية . لهذا سنحصر قولنا فى هاتين الناحيتين وفيهما الغناء

العقيدة الاسلامية — كان العرب فى جاهليتهم يعبدون الأصنام ، قد اتخذت كل قبيلة إلهاً من صنم أو وثن ، وقدمت اليه القرابين وجعلته الآمر الناهى ، وهو طور تـكاد تـكون الأمم كلها قد مرت عليـه وان اختلفت أسماء أصنامها باختلاف بيئاتها ؛ ذلك لأن فى طبيعة الناس الايمـان بقوة فوق قوتهم تدفع عنهم الشر وتجلب لهم الخير ، وتحيى وتميت ، وتخلق وتفنى ؛ واذا كان العقل قاصراً ركز هذه القوة فى شىء من المـادة خلع عليه هـذه الصفات ، فأحياناً يكون صنما ، وأحياناً يكون الشمس والنجوم ، وأحياناً يكون شجراً ، وأحياناً يكون حيواناً ، وأحياناً يكون نهراً أو بحراً ، فـكل هذه الـكوائن عبدت عند الأمم المختلفة ، لأنها أحست أن فى أعماق نفسها عقيدة بقوة فوق قواها . تساوت الأمم فى هذا ، ولـكنها اختلفت فى الشكل الذى تجسد فيه هذه القوة فتعبده ، بحسب قوتها العقلية والخيالية ومواضعها الجغرافية وبيئتها الاجتماعية

* ملخص المحاضرة التى ألقاها الأستاذ فى جمعية الشبان المسيحين ببيت المقدس

الشعور الحار العميق . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الـكلامية التى هى كل بهرجهم الأدبى الأجوف ، فان كل هذا الضجيج العقلى لن يصل خبره إلى القلب الذى لا يفتر لحظة عن التسبيح رغماً عنهم بالعقيدة التى ركبت عليها حياته النابضة ...

توفيق الحكيم

وكانت هــذه هى الحالة الساذجة للعبادة عند الأمم يعترفون به أو آلهة ، ويشكلونها فى شىء محسوس يقدمون لهــا صنوف تعظيم والتمجيد — فــكرة حق ولـكنها اتخذت مظاهر خرافية كالطفلة فى غريزتها الأمومة ، وفى طبيعتها الاشراف على تنظيم الحيـاة البيتية ، فهى تتخذ لها لعباً من عرائس تجعلها أبناءها بناتها وتمنحها عطفها ، وتنفذ عليها أوامرها اجابة لداعى الغريزة الـكامنة وارهاصاً لمـا يكون منها بعد نموها

وأحياناً يحاول أن يتخلص من المـادة فيعبد أرواحاً جناً أو ملائـكة أو نحو ذلك ، ولـكن سرعان ما ينتكس ثانية فيسبغ عليها أوصاف المادة فيجعلها ذكوراً وإناثاً ، ويجعل لها أجنحة تطير بها ، ويجعل لها قروناً وذيولاً لأنه لم يرق حتى يستطيع أن يتحرر من عبادة المادة بتاتاً

كذلك كان العرب بل كان أكثرهم فى حالة منحطة من عبادة المادة ، يعبدون الحجر لا النجوم ولا الأرواح ، ويأتمرون بأمرها فى زعمهم فى اقامة ورحيل ، واقدام واحجام ، وزواج وطلاق

وعبادة الأصنام كائنــة ما كانت — تشل حركة العقل ، وتضعف قوة النفس ، وتحط الحياة الاجتماعية ، وتجعلها حياة خرافية وضيعة . مثل هــذه العقيدة تعوق العــلم ، لأن العلم لا يلائمها ، وتعوق التفـكير الصحيح لأنه ليس من طبيعتها ، وتعوق التقدم الاجتماعى لأنه أساس اطلاق الفـكر من قيوده ، والفـكر مشلول بعبادة الأصنام

ومن أجل هذا كان أهم ما أتت به سلسلة الأنبياء محاربة هذه العقيدة ، وتخليص الفـكر من قيوده التى قيدته بها العقيدة فى الحجر والشجر ، والنجوم والبحار والأنهار ؛ وكان نجاحهم فى أول الأمر قليلا قليلا ، لأنه لم يكن يقوى على احتمال تجريد الاله عن المـادة الا القليل من الناس ، وحتى فى العصور الحديثة لا تزال النزعة الى مادية الاله تتسرب فى أشكال مختلفة ، مع رقى العقل البشرى ونموه ونضوجه

وقد بدأت هذه الدعوة الى التجديد فى الأمم السامية من عهد ابراهيم ، واستمرت بين الظهور والخفاء ، وكلما تقدم الناس كانوا أكثر لها استعدادا وأقرب قبولا ، حتى أتى محمد (ص) فدعا دعوته الجريئة الصريحة الى كسر الأصـنام وتحطيم الأوثان وتخليص العقيدة من كل شرك ، وتجريد الله عن كل مادية ؛ وكان شعار عقيدته « لا إله إلا الله » ، ومدار عقيدته « ليس كمثله شىء » ؛ فالأصنام ليست تصلح لشىء الا للمعاول ، والنجوم هو الذى خلقها ونظم حركاتها ، والبحار والأنهار هو الذى خلقها وأجرى ماءها ، والملائـكة هو الذى خلقهم « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ، لا شىء يشاركه فى ألوهيته من مادة أو روح — هو حقيقة واضحة معقولة لا فى شكل — غيبت عن العقول حقيقته ، وظهرت لهم صفاته ، فهو الخالق لـكل هذه الظواهر ، وهو الذى يسيرها ، وهو غرضها الأسمى ؛ هو وحدة لا تعـدد فيها بأى حال — تنزه عن المـادة وتنزه عن الشريك

سلك القرآن فى الدعوة الى الايمان مسلـكا خاصا ، فبعد أن أبان للانسان أن الله خالق كل شىء ، وأنه رب العالمين ، طلب اليه أن ينظر الى كل شىء فى العالم من صغير وكبير ، فسيرى فيه مظهراً من مظاهر الألوهية ، ودليلا على عظمة الله وقدرته لم ينهج القرآن منهج الفلاسـفة فى دوران العقل حول نفسه ليستخرج منها نظريات مجردة ، ومقـدمات ونتائج منطقية ، انمـا طلب أن تمتزج النفس بالعالم ، وأن ينفذ العقل الى رب العالم عن طريق العالم ، لأن هذه الطريقة أكثر إحياء للشعور ، ومبعثاً لحياة القلوب ؛ والايمان ليس يعتمد على العقل وحده ، بل هو يعتمد على القلب أكثر من اعتماده على العقل . من أجل هذا طلب القرآن النظر الى كل شىء فى العالم من الذباب والنحل والعنكبوت ، الى الفيل والجمل ، الى البحر والنهر ، الى السماء والأرض ، الى السحاب المسخر بين السماء والأرض ، الى الشمس والقمر ، الى الليل والنهار . والقرآن مملوء بالآيات التى تصل الانسان بالعالم ، وتصل العالم بالقلب ، وتبعث حرارة الايمان بالله ، وتملأ القلب حياة وحماسـة . وهذا هو الذى ملأ صـدر الصدر الأول من المسلمين بالعقيدة ، وجعلهم يبيعون أنفسهم فى سبيل الله عن سـخاء . وهذا بعينه هو الذى شجع المسلمين على البحث العلمى ، فقد اتجهوا الى العالم يستدلون به على خالقه فدفعهم ذلك الى العالم يتعرفون طبيعته وقوانينه ، وهذا هو العلم . لم يطلب اليهم الاسلام أن يعيشوا فى صوامع يديرون طاحونة العقل على

هواء ؛ ب اليهم أن يتصلوا بالعالم يدرسونه وينظرون فيه
نفهم ، فكان ذلك داعية للعلم والمدنية معاً . لم يتطلب
لام من صاحبه أن يعيش عيشة روحية مطلقة مجردة عن المادة ، بل طلب اليه أن يمزج الحياة الروحية بالحياة المادية ، وأن يعمل لدنياه كما يعمل لآخرته ، وأن يتزوج ويصلى ، وأن ينعم بالحياة فلا يحرم على نفسه زينة الدنيا وطيبات الرزق كما ينعم بالنظر وبالتفكير فى ملكوت الله ، وبعبارة أخرى لم يتطلب الاسلام من الانسان أن يكون ملكا ، وانما طلب اليه أن يكون انساناً كاملا ، يعيش وفق ما خلق ، فقد خلق جسما وروحا ، فلجسمه عليه حق ، ولروحه عليه حق ؛ فلا عجب بعدُ أن رأينا المسلم يساهم فى بناء المدنية لأنها واجبه ، وفى بناء الروحية لأنها مطلبه

لم ينح الاسلام منحى العلم ، يقرر القوانين جافة جامدة كما تفعل العلوم الرياضية والطبيعية ، وكما تفعل الميتافيزيقا اليونانية فهذا هو العلم ؛ ولكنه سلك مسلكا سماه « الحكمة » وقال : « ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر الا أولو الألباب » ؛ وما الفرق بين العلم والحكمة ؟ العلم هو هذا النوع من المعرفة التى تأتى من طريق الحواس وما تألف منها ؛ فاذا نظمت هذه المعارف ووضعت كل طائفة منها فى مجموعة سميت علماً . أما الحكمة فمزج الروح والنفس بالعالم ، والعلم يغذى العقل وحده ؛ أما الحكمة فتغذى العقل والمشاعر ، وهذه المشاعر هى التى عبر عنها الدين بالقلب والفؤاد . اذا كان العلم ينظر الى الانسان فيقسمه الى أجناس ، والى أمم ، والى ذكور وأناث ، فالحكمة تنظر الى الانسانية فى الانسان والى الانسانية التى من ورائها الله يسيرها وينظمها ويمنحها الوجود وعدها روح منه . واذا كان العلم يقسم النبات الى فصائل ، ويميز اختصاص كل فصيلة ، فالحكمة ترى فى اختلاف أنواع النبات دليلا على القدرة الالهية . وهكذا بينا فى العلم تمد الطبيعة رباطا بينها وبين العقل ، تمد الحكمة رباطين أولها وأولاهما بينها وبين القلب ، وثانيهما بينها وبين العقل

ومن أجل هذا عنى القرآن بمظاهر الاختلاف بين القوانين الطبيعية أكثر مما عنى بتقرير القوانين الطبيعية الجزئية ، فهو يلفت النظر الى الانسان ، كان نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم كان من المضغة عظام ، ثم كسا العظام لحما ، ثم كان من ذلك انسان

ولفت النظر الى اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الشمس والقمر ، واسترعى النظر الى السحاب يسير باذن الله ، ثم يمطر ماء فتكون منه زروع وجنات يأكل منها الانسان والأنعام ، والى الانسان واختلاف ألوانه واختلاف ألسنته ، والى حركة الماء فى البحار والأنهار وتلاقيهما . وهكذا عُنِى القرآن بهذه المناظر المتغيرة ، وبهذه الحركة الدائمة لأنها أمس بالشعور وأقرب الى الحكمة وأدل على المحرك والخالق والمدبر ، فكانت بذلك مبعث ايمان صادق حار لا يفتر

وقد غفل علماء الكلام من المسلمين عن الفرق بين العلم والحكمة ، وبين الفلسفة والدين ، وبين منهج القرآن ومنهج اليونان ، فحولوا — وعلى رأسهم المعتزلة — الدين من القلب الى العقل البحت ، وألفوا العقائد فى شكل قضايا منطقية ، فتحجر الدين ، وانقلب جسما جامدا لا روح فيه ، فخمدت حرارته ، وضعفت شعلته ، وقل نوره وضياؤه

بهذه العقيدة التى ألممنا بها نقل الاسلام العرب من أفق خرافى ضيق كسم الخياط ينحصر فى تقديس الحجر والرجوع اليه فى أهم الأحداث ، الى أفق فسيح لا حد لسعته ، يطالع فيه جميع المخلوقات فى الأرض والسماء ، ويسبح بعقله وشعوره فيها ، ويمتزج بها ، بل هو لا يقف عند ذلك ، ويتعداه الى إله مجرد عن المادة ، ومنزه عن شبه المادة ، يحكم العالم ويسيطر عليه ، وينظمه ويسيره ، وهو وحده لا شريك له رب العالمين

وضع الاسلام فى يد العرب الذين كانوا يدينون بالأصنام معاول يكسرون بها الأصنام ، وهم اذ كانوا يكسرونها حسياً كانوا يعلنون بعلمهم أنهم تحرروا من رق الخرافة ، وسموا عن تقديس حجر ، وارتفعوا بتفكيرهم وشعورهم الى ما فوق المادة ، واتصلوا بإله الكون يستمدون منه القوة ، ونظروا من طيارة الى من حولهم من الناس يرثون لحالهم ، اذ رأوهم بائسين ، كما كانوا هم بالأمس ، من فرس مجوس يعبدون ناراً ، وما النار إلا مخلوق ضعيف تشبه فى ضعتها الأحجار التى كانوا يعبدونها أيام جاهليتهم ، ومن رومان

را وراءهم دينهم الصحيح وأخذوا يعبدون شهواتهم فعبدوا ، وعبدوا النساء وعبدوا المال وعبدوا الجاه ، وما كل ذلك أصنام كأصنامهم التي حطموها بالأمس ، وما هي إلا ضرب من ضروب النار التي يعبدها المجوس تشب بين جوانحهم . هؤلاء الفرس وهؤلاء الرومان الذين كانوا بالأمس القريب ، المثل الأعلى للعرب ، والذين كانوا يرون في أعماق نفوسهم أنهم أنفسهم عبيد ، وأن الفرس والروم سادتهم ، وأنهم سوقة والفرس والروم ملوكهم ، وأنهم أذلة والفرس والروم أعزة ، وأنهم فقراء وأمل الآمل منهم أن ينال من متاجرته مع الفرس والروم شيئاً من فتاتهم ومما تناثر من أيديهم ؛ هؤلاء الفرس والروم أصبحوا في نظر العربي المسلم أسرى عقائد فاسدة ، وأسرى شهوات وضيعة ، وأن مالهم وجاههم وعددهم وزينتهم لا تساوي شيئاً بجانب صحة عقيدتهم هم ، لقد كانوا ينظرون اليهم من غواصة فيحسدونهم على استنشاق الهواء على ظهر الأرض ، فأصبحوا ينظرون اليهم من طيارة عالية جداً فيرونهم حشرات حقيرة تتقاتل على متع دنيئة ، ويرونهم المثل الأدنى للانسانية . وقد كانوا المثل الأعلى ، وأنهم أحق بالعطف عليهم والأخذ بيدهم ، وقد كانوا من قبل يستجدونهم ويستذلون لهم ويخطبون ودهم . لم يقلب هذا الوضع عند العرب الا العقيدة ، وكفى بها ثورة : ثورة في العقل وفي القلب وفي والخلق جعلتهم كأنهم خلق آخر

هذه العقيدة بما أضاءت وبما بعثت من حكمة جعلتهم فوق العلم . ان شئت فانظر الى عمر بن الخطاب ، وأبي عبيدة ، وسعد ابن أبي وقاص وأمثالهم — ماذا كانت ثقافتهم العلمية بالمعنى الذي نفهمه الآن ؟ كانت لا شيء ، أو كانت ضعيفة كل الضعف ، فليسوا على علم واسع بقوانين الحساب والهندسة ، ولا بالجغرافية ، ولا بشيء من فروع العلم ، ولكن أضاءت الحكمة أذهانهم وقلوبهم ففاقت العلم ؟ والا فكيف استطاع عمر بن الخطاب — مثلاً — أن يدير هو وأعوانه مملكة الفرس والروم ، وقد بلغتا في الحضارة شأواً بعيداً ، يعرف أهلهما الجغرافية معرفة واسعة ، ويؤسسون المملكة على نظم ادارية وحربية دقيقة ، وعندهم علم وأدب وفن . لو عهد بأقليم من أقاليم الفرس والروم الى عمر في الجاهلية لحار في إدارته وارتبك ، ولساسه كما يرعى الشاء والابل ، ولكنه الاسلام وما بعث من حكمة غير نظره الى الأشياء وجعله ينفذ ببصيرته الى نظم الفرس والروم فيدرك منها الصالح وغير الصالح ، ويعدل في ادارتها وشؤونها الاجتماعية تعديلاً لا يستطيعه العالم الماهر الذي تنتجه ، حتى حضارة اليوم . فهو يغير من نظام الضرائب ، وتوزيع الأراضي ، وتدوين الدواوين ، ويستطيع وهو في مكة أن يرسم خطة السير لحكومة تسوس العراق ومدن الفرس ، كما تسوس الشام ومدن الروم ! انها احدى العجائب الكبرى أن يصل بدوي الى ذلك ، وعهدنا بالبدوي الهمجي يخرب ولا يعمر ، واذا غزا وانتصر فكل مطمعه في الغنيمة . فما بال عمر وأمثال عمر يدخل التحسينات على الحضارة ، ويقترح فيما يزيد العمران ، ويبث في الحضارة القديمة روح العدل والاحسان ؟ لا شيء غير العقيدة الاسلامية محصت نفسه ، وطهرت قلبه ، وجعلت نظره ينفذ الى بواطن الأمور ، يعدل على الذين لا يرون الا الظواهر ، ولا يهمهم إلا بهرجة الدنيا ، والزخرف الظاهري

فان نحن عددنا العقيدة الاسلامية — بالشرح القليل الذي شرحنا — أثمن ما قدمه الاسلام الى المدنية لم نكن مبالغين

هذه العقيدة لا تقر بعظمة إلا عظمة الله ، ولا تقر بتقديس ملك ولا بامتياز لرجال دين ، ولا تعترف بوساطة أحد بين الانسان وربه ، ولا بأي نوع من أنواع الأرستقراطية : لا أرستقراطية المال ولا أرستقراطية العلم ولا أرستقراطية رجال الدين . كل الناس سواء . الناس من تراب وإلى التراب يعودون . ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى . وخير الناس أنفعهم للناس

(البقية في العدد القادم)

أحمد أمين

منـــــذ ألف عام

للاستاذ علي عبد الرازق

يوجد بين حياة الشرق فى العصر الحاضر ، وبين حياته منذ ألف عام مضت ، نوع من التشابه يستوقف النظر . وقد يكون فى دراسة هذا التشابه واستقصاء البحث فيه لذة ومتاع للنفس ؛ وقد يكون فيه مع ذلك فائدة للعلم

وما ندعى أننا نستطيع الآن أن نستوفى جوانب هذا البحث أو نلم به الماماً واسعة ، وانما نريد أن نفتح هذا الباب للباحثين لعلهم يجدون فيه خيرا كثيرا من أنواع المتاع وفنون العلم

وفى الحق انه يوجد دائما نوع من التشابه بين صور هذه الحياة الدنيا ماضيها وحاضرها وقديمها وحديثها ؛ وما دام الناس هم الناس فى جميع العصور ، وما دامت كواكب السماء تروح وتغدو فى دورة منتظمة لا تبديل فيها منذ وجدت كواكب السماء ، وما دامت الأرض هى بعينها الأرض فى الماضى والحاضر ، فمن الطبيعى أن تتشابه الى حدٍّ ما صور الحياة وأن يحاكى بعض الحوادث بعضا

والذى يقارن بين أى جزء من أجزاء التاريخ وبين أى جزء آخر منه لا يعجز عن أن يتبين بينهما مظاهر من التشابه والتماثل ؛ ولكن التشابه الذى يجده الناظر بين حياتنا الحاضرة وبين الحياة من ألف عام ليس هو من هذا النوع الذى يلحظ بين جميع أجزاء الحياة وجميع مظاهرها . وليس هو من القلة بحيث لا يستلفت النظر ولا يثير رغبة البحث . فالتشابه هنا ظاهر وقوى يكاد يجعلهما صورة واحدة لعصر واحد

على أنه مع ظهوره وقوته لا يبلغ أن يكون دليلا على تماثل العصرين من جميع الوجوه ، ولا على اتفاق العصرين فى جميع الصفات والخصائص ؛ وهو لذلك لا يبلغ أن يكون دليلاً قاطعاً على صحة مايذهب اليه بعض الباحثين من أن التاريخ يعود بنفسه

منذ عام توفى المرحوم أحمد شوقى أمير الشعراء ؛ ومنذ ألف عام توفى أبو الطيب المتنبى ؛ وبين الرجلين من التماثل ما يشبه أن يكون مثلاً صادقاً لرجعة التاريخ ، فقد يمكن القول بأن متنبى القرن الرابع كان شوقى القرن الرابع عشر ، وبأن شوقى القرن الرابع عشر كان هو متنبى القرن الرابع!

دع عنك ديباجة الشعر وما بين الشاعرين فى ذلك من توا[...] جد قريب ؛ وانظر الى ما أحاط بالرجلين من ظروف وملابسات

لقد كان عصر المتنبى عصراً داوياً بالشعر زاهياً بالكثير م[ن] الشعراء ، ولكن شعر المتنبى قد غطى على أكثر تلك الأصوا[ت] الداوية ؛ وقد غمر اسم المتنبى أكثر تلك الأسماء فكان كما ق[ال] عن نفسه :

أنا الصائح المحكى والآخر الصدى

وكذلك كان شوقى فى عصر يدوى بالشعر ويزخر بالشعرا[ء] ففلج عليهم شوقى باسمه وبشعره ، وجاءه الشعراء من كل صوب يبايعونه بأمارة الشعر

وقد كان المتنبى شاعراً مداحاً وكذلك كان شوقى ؛ والمتنبى كان يتنقل بمدائحه من جناب الى جناب ، ومن بلد الى بلد وكذلك فعل شوقى

ولقد أخلص المتنبى فى مديح سيف الدولة فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلوداً لا يبلى ؛ وما كان سيف الدولة لولا المتنبى الا ملكا كسائر الملوك

وكذلك أخلص شوقى فى مديح سمو الخديو عباس الثانى ، فأفاض عليه من مدائحه الخالدة خلوداً لا يبلى ، وسجل اسمه مشرقاً وضاء فى سماء المجد حيث لا يلمع كثير من الأسماء الطنانة

اننا لنأسف اذ لا نجد بين أيدينا صورة مفصلة لجوانب الحياة الاجتماعية فى مصر منذ ألف عام لنستطيع أن تقارن بينها وبين جوانب حياتنا الاجتماعية الحاضرة لنستخلص ما يكون بين الحياتين من تماثل قريب أو بعيد

على أن ذلك لا يمنعنا من أن ندرك ما بين الحياتين اجمالاً من تشابه قوى الى حد يثير العجب ؛ فلقد ترك المتنبى وصفا واضحا وان كان مجملاً للحياة فى مصر أيام عرفها المتنبى واتصل فيها بعمية كافور الأخشيدى . ولعمرى لا يزال أكثر ما قاله المتنبى فى ذلك أو كله ينطبق على حياتنا الحاضرة ويصفها وصفا صادقاً :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا

مصرع الحسين

للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني



كان لنـا ، قبل
رب ، صديق معمر ،
، بني الفرس — أو
، أجدادهم الأولين على
ضح — فقد كان عمره
رق المائة ، وكنا نحاسبه
يكون تارة مائة
عشرين ، وأخرى مائة
بضع سنوات ، فأضحك
وأقول : « يجب أن نقيد هذه الأرقام الرواغة » . وأتناول القلم ، وأقيم سنه على الورقة ، وأنظر اليه ، وأقول : « تفضل ! قبل أن يغرق الطوفان الأرض كنت سعادتك سفيرا لدولتك عند روسيا ، ولما صعق موسى عند ذلك الجبل ، كنت .... » فيتكلف الغضب ، وينهرنا عن هذا العبث ويقول : « اختش يا ولد ! »

وكان على عظم ارتفاع سنه قوى البنية ، متين الأسر ، وكنا نسأله عن سر ذلك ، فيقول إنه لم يتزوج قط ، فأضحك وأقول : « هات سبباً آخر ، فان هذا معلوم ، مفهوم بالبداهة ! » فيرفع عصاه الغليظة ، ويلوح بها كأنمـا يهم بضربي ، فينقلب ضحكنا قهقهة عالية مجلجلة ، ويسره سرورنا فيفيء الى الرضى

ويقول لنا أحياناً : « تعالوا نتمشى » ، فنسأله : « أين ؟ وإلى أين ؟ » ، فيقول : « في طريق الجيزة » ، وكان بيته في « باب الخلق » ، فنخرج معه ، إلى الزمالك ويقف بنا على جسره هنيهة ، يحدثنا ويروى لنا أخبار القرون الأولى ، أو يرتجل شعراً فكاهياً بجيزه ، أو نشطر قصيدة لواحد من شعارير ذلك الزمان تشطيراً يخرج بها إلى الهزل الصريح والمجانة الشديدة ، وأذكر من مطالع قصائده المرتجلة :

« في حدثيني عند كوبري الزمالك
وروى غليـل القلب يا أم مالك »

ثم نستأنف السير بعد أن نميل إلى طريق الجيزة ، حتى نفتر ونـكل ، وتخذلنا أرجلنا ، وهو لا يزال كما بدأ ، فيسخر منا ، ويوسعنا تقريعاً وتعييراً ، فلا نبالي ، ونقعد على الأرض من شدة التعب . ويتفق أن تمر بنا سيارة ، تخطف ، فيشير اليها ويقول مازحا : « خذونا ، أخذكم الله ! »

ولم يكن هزالا ، وانمـا كان يوسع لنا صدره ، ويتقبلنا على علاتنا ، ويأنس بنا كأنسنا به ، وكانت الدنيا كلها أصدقاء له ، ولـكنا نحن كنا نلازمه بعد أن نفرغ من أعمالنا ، وكان بيته نادينا ، وفيه تعقد حلقتنا الأدبية الخاصة . وما أكثر ما كنا نقول له : « نريد أن نأكل أرزاً فارسياً » فيمضي بنا الى المطبخ لنساعده ، فهذا يقشر بصلا ، وذاك يغسل آنية ، وثالث يضرم النار ، وهكذا ، حتى يطبخ الأرز ويغرف في الصحون ، ثم نحف به — أعني بالأرز — ونقبل عليه فنلتهمه

وكان لنا خيراً من الأب ، وأخلص من الصديق وأوفى ، وكان ربمـا رأى أحدنا ساهيا أو واجماً ، فيسأله عن سبب ما يبدو عليه ، فيفتح له صدره ، ويبثه ما فيه ، ويقول له بشجوه ، حبا كان ذلك أوهما ، أو غير ذلك ، فيشير عليه بالرأى الناضج ،

انا في زمن ترك القبيح به من أكثر الناس احسان واجمال
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه أني بما أنا شاك منه محسود

ولـمـا صار ود الناس خبا جزيت على ابتسام بابتسام
وصرت أشك فيمن أصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

الخ الخ

* * *

منذ ألف عام كانت الخلافة الاسلامية في بني العباس تشارف النهاية وتلفظ الأنفاس الأخيرة من حياتها

وكان العالم الاسلامي في جملته يضطرم ثورة ، ويتأجج بالمنازعات السياسية ناراً

على أن ذلك الاضطراب السياسي لم يمنع من سير الحيـاة الاجتماعية والعلمية في بلاد العالم الاسلامي سيراً مطرداً الى الأمام

وعصرنا الحاضر يشهد تلك المشاهد نفسها أو قريبا منها ، كما شهدها أجدادنا منذ ألف عام

ألا ليت شعري هل صحيح أن للتاريخ رجعة ؟ واذا كان ذلك حقا فهل يرجع التاريخ كل ألف عام ؟ علي عبد الرازق

ويخلص له النصح ، ويقوى ضعفه ويشجعه ، ولا يزال به حتى تعود اليه البشاشة

وقال لنا يوماً : « خـذوا » وناولنا بطاقات فيها دعوة إلى ما كان يسمى « زفة الحسين » ، وما هى بزفة ، وإنما هى مأتم ، ولـكنها هكذا كانت تدعى على ألسنة العامة ، فذهبنا فى الموعد المضروب الى بيت رحيب فى زقاق ضيق ، فوجدنا هناك كثيرين من رجال مصر المعروفين ، أجلسنا معهم ، ثم دعينا الى مائدة مثقلة بألوان الآكال الشهية ، وكان الأستاذ البرقوقى الى جانبى ، فظمئ على الطعـام ، وأسر الى بذلك — لا أدرى لمـاذا — فأومأت الى الخادم ، فناوله كوباً رفعه الى فمه ، وما كاد يفعل حتى رده عنه ، وقال : « بفففف ! » ، ذلك أنه كان سكراً مذاباً لا ماء ، فعجبنا واتقينا أن نشرب

وانحدرنا الى صحن الدار ، وكان فيها منبر ، ارتقى اليه شيخ فارسى ، وانطلق يقول كلاماً لم نفهمه ، ولـكن صوته كان يتهدج وكانت الدموع تتسايل على خديه ، وتبل لحيته الـكثة ، وقيل لنا إنه يرثى الحسين ويندب مصرعه ، وكان الذين يفهمون كلامه من بنى جنسه يبكون ، بل يعولون ، ومنهم من كانت تهيج حرقاته فيلطم ، أو يضرب صدره أو ظهره العارى بسلسلة غليظة من الحديد ، أو يضرب جبينه بطن سيف مسلول ، أو بكله — أى قفاه الذى ليس بحار — ولـكن أحـــدهم اضطرب وهو يفعل ذلك فأصاب حد السيف جبينه فانفجر الدم كأنه من نافورة ، وقد خفوا اليه ، وضمدوا جرحه ، وعصبوا له رأسه ؛ وهال أحدنا منظر الدم ، وظن أن الرجل لا محالة هالك ، فأغمى عليه ، وسقط على الأرض كما تسقط الخشبة ، فأنشقوه شيئاً فى زجاجة أنعشه ورد اليه روحه

ولا أحتاج أن أقول شيئاً فى وصف الموكب الذى يخرجون به ويطوفون بالشوارع وهم يدقون صـدورهم العارية أو يضربونها بالسلاسل ، أو يخبطون وجوههم أو عواتقهم ببطون السيوف ، فان ذلك كله معروف مألوف ، وإن كان قد انقطع ، والأكثر من الناس قد رآه فى زمانه ، ولـكنى أقول إنى بعد بضعة أيام من شهود هذه « الزفة » وقعت على مقال فى مجلة انجليزية لـكاتب انجليزى أو ألمـانى — لا أذكر ، فان العهد بها بعيد ، وقد فقدتها على الرغم من حرصى عليها وتحفظى بها — وفى هذا المقال يذهب الـكاتب — والأرجح أنه ألمـانى — إلى أن الحسين بن علي رضى الله عنهما ، تعمد أن يضحى بنفسه ؛ وأذكر أنه قال إن الحسين لم يكن أبله ، فقد حاول أمراً عرف مبلغ استحالته ، ومع ذلك أصر على الزحف ، وليس معه إلا النساء والأطفال وحفنة صغيرة من الرجال ، مضى بهم وبنفسه معهم إلى بوار محقق

وقد دارت فى نفسى هذه المقالة ، فذهبت بها إلى صـديق الفارسى ، فقد كان عالما واسع الأطلاع ، غزير المعرفة ، وترجمتها له ، وسألته عن رأيه فيها ، فلم يتردد فى الموافقة عليها . وقد فكرت بعد ذلك فى أمر الحسين وفى مغامرته العجيبة ، فلم يزدنى ذلك إلا اقتناعاً برأى هذا المستشرق الألمـانى ، وبغير ذلك لا أدرى كيف يستطيع المرء أن يفسر اقدامه على طلب الخلافة وسعيه لانتزاعها من بنى أمية ، فقد عرض نفسه على كثير من القبائل فما وجد منها إلا اعراضاً وانصرافاً ، أو على الأقل فتورا شديدا عن نصرته ، من حقه أن يثبط ، وليس من شأنه أن يشجع ولم يكن حوله من الرجال من يطمع أن يديل بهم من بنى أمية وحمل معه النساء حتى لـكأن أكثر من الرجال ، ولم تصده عن السير خيبة مساعيه عند القبائل ، ووضوح خذلانها له ؛ والتقى برجال بنى أمية فعرضوا عليه ما لا يمكن أن يحلم بالفوز به بمجهوده فأباه وأصر على المغامرة ، فوقعت الواقعة ، وكانت هذه المجزرة الخالدة التى لا يزال أثرها باقياً الى اليوم

ولم يكن الحسين مجنوناً ، ولا طياشاً ، ولا عرف عنه ما يحمل على سوء الظن بعقله ونظره ، فـكيف هم بأمر كان من استحالته على يقين جازم ؟ ؟ وهبه كان مخدوعا فى اول الأمر فقد رأى من الاعراض عنه والخذلان له ، والزهد فى الانتقاض على بنى أمية والخوف من بطشهم وانتقامهم ، ما يدفع إلى اليأس ويغرى بالقعود ؛ ولا يمكن أن يقال إنه كان يرجو فلاحا ، فما كان معه فى زحفه إلا النساء وإلا عشرات لا تغنى ، ولا يعقل أن تصبر على قتال دولة ذات بأس وصولة ، وما رأى أحدا استجاب لدعوته ، أو أبدى استعدادا للحاق به ، حتى يقال إنه كان ينتظر نجدة ومددا ، وهؤلاء النسوة من آل بيته لم أصر على حملهن معه وزحفه بهن ، وقد كان خليقاً بعد أن رأى كيف خذلته القبائل أن يشفق عليهن ويردهن ليقيهن أن يصرن الى ما هو صائر اليه لا محالة . ألا يعذر من يذهب إلى أن استصحابه لهن إلى المذبحة ، إنما كان مقصودا

ه أن يحف المصرع الذى مضى اليه عامدا بكل عوامل الاستفزاز وعناصر الايلام المثير ؟ ؟ لقد ألقى بهن معه على القتل أو الاذلال والتحقير والهوان ، وهن آل بيت الرسول صاحب هذا الدين ، فلولا أنه تعمد أن يضحى بهن معه ليقيم القيامة على بنى أمية ، لكان أيسر التفكير كافياً لحمله على اقصائهن عما سعى اليه ووطن نفسه عليه ؛ ولكنه نظر فرأى أن استرداد الدولة من بنى أمية مطلب لا سبيل اليه ولا مطمع فيه ، فيئس من إمكان ذلك بالوسائل المألوفة ، فقال أنسف الدولة الأموية من قواعدها ، وأكون أنا اللغم الذى ينفجر تحتها ، فيزلزلها ويدك بنيانها ، ويطير أنقاضها ، ويجعل عاليها سافلها ؛ ولا بد لذلك من أن تكون التضحية تامة ، وعلى أبشع صورة من الصور ، وأرغم بنى أمية على أن يقتلونى أقبح القتل ، وأن يمثلوا وينكلوا بى وبأهلى أشنع التمثيل والتنكيل ؛ فيستفظع المسلمون منهم ذلك — على قرب العهد بالرسول — وتضطرم نفوسهم بالموجدة والنقمة عليهم ، وينقلب العالم الاسلامى بركاناً يظل يفور ويغلى فى جوفه الحقد والبغض ، ثم ينفجر ، فلا يبقى ولا يذر ؛ وإنى لميت ميت ، طال الأجل أم قصر ، والخير من أن أموت حتف أنفى ، أن أجعل ميتتى تكلف بنى أمية ملكهم كله ودولتهم أجمعها ؛ ولقد خرج الأمر من أيدينا وصرنا رعية لبنى أمية ، فاذا رضينا وقنعنا من الحياة بالطعام والشراب ، وقعدنا ننتظر الأجل فى أوانه ، ثبتت الدولة ورسخت قواعدها . وإنى لأعلم أنه ليس لى حول ولا قوة ، ولكن فى وسعى أن أملأ نفوس المسلمين قيحاً وصديدا من كره بنى أمية ، إذا بذلت دمى ، وما دمى ؟ وهو سيجمد فى عروق يوما ما ، فأولى أن يخضب الأرض فلا تلبث أن تنقلب جحيما عليهم ؛ وما خير أن أكون سبط الرسول إذا أنا لم أرج الدنيا بذلك ؟ وإن الأمر لراجع الينا لا محالة إذا أنا جعلت من نفسى ومن أهلى ضحايا لبنى أمية ، ويجب أن يكون قتلنا استشهادا مروعا لتكون الدية هذه الدولة كلها

لهذا أصر على المغامرة ، وهو على يقين من نهايتها ، وأعرض عن ذكر العواقب التى كان يعرفها معرفتها ، ولم يكترث بخذلان من دعاهم الى نصرته ، بل اغتبط بذلك ، وحمل أهل بيته معه ليحيق بهن كل مكروه من الأذى والهوان ، وليكون ما يصيبهن أبلغ فى إشعار العرب هول الفجيعة ، وأبى أن يجعل أذنه الى الذين أشفقوا عليه أو سعوا عنده ليترضوه ويحملوه على العدول ، أو وعدوه ما شاء غير الخلافة ؛ ولم يكن يخفى عليه أنه يعاند ويكابر ويتحدى الأقدار ، ولكنه كان يدرك أن هول المصرع الذى يسير اليه مصمما عليه سيطوى كل ذكر لما عداه ، فلا يبقى إلا أن بنى أمية قتلوا سبط الرسول وآله ، ومثلوا بهم أقبح التمثيل . وكان يعرف أن بنى أمية لا بد أن يعدلوا عن محاسنته إلى المخاشنة لشدة ما يرون من عناده وصلابته ، إذ كان لا يسعهم أن يتركوه يحرض الناس على الخروج عليهم ، بلا كابح ، وقد عرضوا عليه كل ما دون الخلافة فازدراه ، فلم يبق مفر من رده بالقوة ، كما شاء هو ؛ وكان هو يعول فى سياسته هذه على احراجهم وإكراههم على البطش به ، ويعتمد على ما تدفعهم اليه لجاجته فى استفزازه لهم ، فتطيش حلومهم ، فتكون الطامة عليهم بعد أن تدور الدائرة عليه . وقد جرى كل شىء على ما قدر ورسم ، وحدث ما كان ينشد ، فأسرف الأمويون فى القتل والتمثيل والتنكيل ، كما كان يتوقع ، وصدقت فراسته القوية فى رجال الدولة على عهده ، ولم يخب له ظن أو رأى فيهم ، فريعت الدنيا ، وهالها الأمر على ما كان قدر ، وصارت كل قطرة من دمه ، وحرف من اسمه ، وهاتف من ذكراه ، لغما فى أساس الدولة الأموية

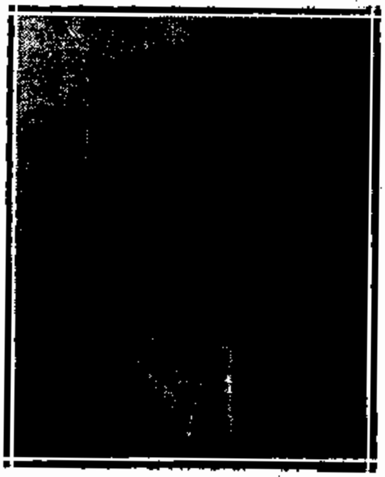
وقد ذهبت الدولة الأموية فى سبيل من غبر ، وجاءت بعدها دول أخرى لحقت بها ، ومضى أربع وخمسون وثلثمائة وألف سنة ، ولا تزال لذكرى مصرع الحسين هزتها الأولى فى كثير من البلاد الاسلامية ؛ ومأتمه يقام كل عام فى كربلا كأنما هو لم يقتل إلا الساعة ؛ ويموت الشيعى فى بغداد أو سواها فيحمل منها إلى النجف ليدفن هناك . وأحب آل البيت إلى النفوس وأعزهم عليها هو الحسين . ولا تزال العيون تغرورق بالدمع ، والقلوب تخفق ، والصدور تعلو وتهبط لحكاية هذا المصرع . فمن كان يصدق أن الحسين فعلها عن طيش أو سوء تقدير ، أو تورط ، فانى لا أصدق إلا أنه أقدم عليها متعمدا لها . ولو أن ميتاً استطاع أن يضحك ساخراً لضحك الحسين ورأسه بين أيدى قتلته البلهاء .

ولست أعرف ميتة أخرى أبلغ أثراً فى حياة الناس ، ومستقبل الدول والأمم ، ولا أطول منها — مع عمق الأثر — عمر ذكرى

ابرهيم عبد القادر المازنى

صور من التاريخ الإسلامي

أم المؤمنـــين
خديجة بنت خويلد
للأستاذ عبد الحميد العبادي



كم يود صاحب هذا المقال لو كان شاعرا وثاب الخيال، مطلق العاطفة، جزل الألفـاظ، سرى المعانى: إذاً لاستطاع أن يصوغ للقراء من سيرة أم المؤمنـين خديجة بنت خويلد قصـيدة عصماء يضمنها مناقب تلك السيدة الجليلة، وما مناقبها إلا مناقب المرأة الكاملة من جمال، وطهر، وعفاف، وزوجية بارة، وأمومة صحيحة، ومواساة فى أشرف معانيها

ولكن صاحب هذا المقال، وا أسفاه! ليس شيئاً من ذلك الشاعر الذى يتمنى أن يكونه. إن هو إلا مؤرخ يعرض لوقائع الحياة العامة من ناحيتها الوضعية جهد طاقته، ويشد خياله الراكد إلى تلك الوقائع، فلا يأذن له ولا بمحاولة التطاير والتحليق؛ ويكتم عاطفته حتى لا يطغى عليه سلطانها فيتنكب سبيل المؤرخ الذى همه البحث والتحقيق، ثم العرض البسيط للأشياء؛ فليقنع القارئ الكريم بالصورة المجملة التى أرسمها فى هـذا المقال، حتى يتأذن الله بظهور شاعر عظيم ينظم الالياذة العربية، فيطالع فيها إذ ذاك فصلا عن تلك السيدة يكون من أبلغ ما خطه يراع شاعر وأروعه

* * *

كانت جزيرة العرب فى القرن السادس الميلادى قد أخذت تتهيأ للأحداث الجسام التى تمخض عنها القرن السابع، وقد بدا ذلك التهيؤ فى جميع مناحى الحياة العربية العامة، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية. ونحن إنمـا تهمنا فى هذا المقام الناحية الاجتماعية، ويهمنا منها بصفة خاصة نظام الأسرة. كان نظام الأسرة قد أخذ يتحول فى حواضر الحجاز عامة ومكة خاصة الى النحو الذى أقره فى جملته الاسلام فيما بعد، فأخذت تتلاشى ضروب الازدواج القديمة التى اعتبرها الاسلام سفاحا، ويحل محلها نظام الزواج القائم على التراضى والتعاقد. وصاحب هـذا التطور الخطير فى بناء الأسرة تطور خطير مثله فى مكانة المرأة الاجتماعية؛ فبعد أن كانت المرأة العربية ليس لها حق التملك ولا حق الأرث، بل بعد أن كانت هى نفسها تملك وتورث فى بعض الحالات، أصبحت تستمتع بحق الملكية وحق الميراث وحق التصرف فى مالها، وحق مفارقة الزوج عند اللزوم، هذه الحرية المستحدثة جعلت المرأة العربية عاملا فعالا فى الحياة المكية العامة قبيل الاسلام وفى عصر النبوة

* * *

ولدت خديجة بمكة حوالى منتصف القرن السادس المذكور، وهى خديجة بنت خويلد بن أسـد بن عبد العزى بن قصى، وكان خويلد ممن قاد قريشا فى حرب الفجار، ثم هى ابنة فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤى، ولا نعرف عن فاطمة شيئا، غير أن الذهبى يقول فى جدها عمرو بن خنتر المزنى أنه كان من أبطال الجاهلية. فنسب خديجة لأبيها وأمها يدل على أنها تنتمى الى بيت من أعز بيوت قريش هو بيت عبد العزى ابن قصى، والى قبيلة من أعز قبائل مضر هى عامر بن لؤى؛ واكتنفت عمود هـذا النسب الجليل فروع وحواش زاهية زاهرة، نعد منها عم خديجة عمرو بن أسد وكان سيدا من سادات قريش، وأبناء عمومتها حكيم بن حزام، وورقة بن نوفل وأخته قتيلة بنت نوفل، فأما حكيم فكان صاحب مروءة وعاطفة طيبة تتجلى فى صنيعه لبنى هاشم والمطلب عندما حصرتهم قريش فى الشعب، وأما ورقة بن نوفل فكان معدودا فى تلك العصبة المستنيرة التى يعرف آحادها باسم (المتحنفين) قد ترك الوثنية، وتنصر وقرأ التوراة والانجيل، وكتب العبرانية، وشاركته أخته قتيلة فى ميوله الأدبية والدينية، فكانت «ممن ينظر فى الكتب» على حد تعبير القدماء؛ ومن هـذه الفروع أخو خديجة العوام بن خويلد، وكان من رجالات قريش، وهو والد

بير بن العوام حوارى رسول الله

فخديجة من أوسط نساء قريش نسباً ، كما يقول مؤرخو عرب ، واذا جاز للمؤرخ أن يلحظ عمل الوراثة فى هذا المقام ، انا نقول انها ورثت عن أبويها مزايا السؤدد العربى ، من نبل وكرم خلق ووفاء وشجاعة ؛ كما لقفت عن عمومتها تلك الاستنارة العقلية ، وذلك السمو الروحانى الذى أعدها لتقدير الدعوة الاسلامية وقبولها عن طيب نفس وطواعية خاطر

***

تزوجت خديجة مرتين فى مقتبل حياتها وقبل تزوجها من محمد بن عبد الله . تزوجت للمرة الأولى من عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم ، ثم مات عنها عتيق فتزوجت بعده أبا هالة هند بن زرارة التميمى . ثم توفى أبو هالة فغدت أيما . وقد ورثت على ما يظهر عن أبويها وزوجيها ميراثاً قيما رأت أن تقوم على استغلاله فى التجارة التي كانت مرتزق قريش فى ذلك الزمان . فكانت كما يحدثنا الرواة تستأجر الرجال فى الاتجار لها بمالها لقاء نصيب تسهمه لهم من الربح

لكن خديجة الحسيبة النسيبة ، الثرية الوسيمة ، لم تزل بعد نصفاً فى النساء ، عوانا بين الشباب والكهولة ، قد شارفت الأربعين ولما تعدها ، وهى سن لها عند بعض النساء جمال وروعة ، وملاحة وأخذة ، وكان غير واحد من كبار قريش حريصاً على خطبتها ، ولكن خديجة كانت تتأبى على الخطاب ، لا رغبة منها فى العزوبة ، فهى أعمر قلباً وأنضر شباباً من أن ترغب فيها ، ولكن لأن الأيدى التى كانت تمتد لخطبتها ليست من الطراز الذى يعجبها . لقد نضج عقلها ، وكبر قلبها ، وأصبح كل منهما ينشد الكفء والمثيل ، .ومن لها بالعقل الراجح ، والقلب الكبير فى مجتمع خشن ، كثيف ، غليظ ؟ أصبحت لا يروقها ذلك السؤدد العربى الجاهلى بما ينطوى عليه فى واقع الأمر من بداوة وأعرابية ، لا يمكن أن تنىء منهما إلى ظل ظليل

وبينا خديجة تروض النفس على احتمال الحياة الجديدة اذا بقلبها قد أخذت تنطبع عليه شيئاً فشيئاً صورة نجم شارق فى أفق المجتمع المكى ، ويوشك أن يتكشف عن كوكب وقاد يملأ الكون نوراً هادياً . وحرارة تبعث فيه الحياة قوية بعد أن لم يبق له منها الا الذماء . لقد كانت تلك الصورة منتزعة من الحقيقة لا من الوهم ولا الخيال . انها كانت صورة فتى لا يزال مغمورا ، ولكن كل مخايله كانت تؤذن فى نظر خديجة بأنه سوف يأخذ بزمام العالم ويوجهه وجهة جديدة . ذلك الفتى هو محمد بن عبد الله

كان محمد اذ ذاك شاباً قد ناهز الخامسة والعشرين من عمره ، سوى الخلقة ، مشرق الطلعة ، نبيل المظهر ، كريم المخبر ، وكان يحيا حياة لعله لم يكن يحياها بمكة أحد غيره . كان زاهداً فى الناس ، عزوفاً عنهم ، إلا ما اقتضته ضرورة المعايشة والمساكنة ، نزوعاً الى التفكير ، محباً للعزلة ، قادعاً للشهوة رادعاً للنفس ، فأوشك بذلك أن يستغنى بنفسه عن غيره . وغدا أنسه فى وحشته وانبساطه فى انقباضه ، وغناه فى اقلاله . قد حد ما بينه وبين الناس بحد واضح المعالم . ثم لم يأذن لملاقته بهم أن تتجاوز هذا الحد فتنغص عليه نعمة باله ، وتفسد عليه هدوء سربه

لقد كان قلب خديجة يخفق خفقاناً شديداً عند ما كانت تلمح هذا الفتى العجيب ، يروح لطيته ويغدو فى طرق مكة وأسواقها وأنديتها ، وأدركت من فورها أنه حاجة قلبها ومهوى فؤادها . ولكن كيف تفضى اليه بدخيلة نفسها ، وتبثه لاعج حبها ؟ إن الحسب ، والنسب ، والخفر والحياء ، كل ذلك كان يمنعها أن تكون هى التى تخطو فى الأمر الخطوة الأولى وتقول فيه الكلمة الأولى . لقد كان الموقف دقيقا كل الدقة ، حرجا كل الحرج . فلتسر فى الأمر بحذر واحتياط محافظة على نسبها وحسبها ، وتوفيرا لخفرها وقنية لحيائها

إنها كانت تستأجر الرجال فى الاتجار لها بمالها وتساهمهم بنصيب مسمى من الربح ، فلم لا تستأجر محمداً وتضاعف له الجعل الذى كانت تجعله لغيره ؟ وأنشأت من فورها تجيب عن هذا السؤال ؛ فوسطت الى محمد من عرض عليه رغبتها . فقبل محمد ما عرض عليه ، وسافر الى الشام فى صيف عام ٥٩٤ متجراً فى مال السيدة ، وسافر معه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهى الى السيدة عند عودته جلة حاله فى السفر ، فتلم بجملة حاله فى السفر والحضر . وباع محمد ، واشترى ، ولقى الرهبان ببادية الشام ، وتحدث اليهم ، وتحدثوا اليه ، ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحاً وفيراً ، وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد فى السفر من رقة الشمائل ، وسهولة الخلق ، وصدق المعاملة ؛ فعلمت السيدة عند ذلك أن قلبها لم يكذبها ؛ فقطعت كل تردد ؛ وأجمعت أن تخطو

هى الخطوة الأولى ، وتقول هى الكلمة الأولى . وكانت لهـا صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منيه ، فدستها الى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه :

نفيسة — يا محمد : ما يمنعك أن تزوج ؟

محمد — ما بيدى ما أتزوج به !

نفيسة — فان كفيت ذلك ودعيت الى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، ألا تجيب ؟

محمد — فمن هى ؟

نفيسة — خديجة !

محمد — وكيف لى بذلك ؟

نفيسة — على !

محمد — فأنا أفعل !

لا شك أن محمداً لم يقل مقالته الأخيرة الا بعـد أن أصبح يشعر نحو السـيدة خديجة بمثل شعورها نحوه ، وبعد أن أصبح يبادلها عطفا بعطف ، وتقديراً بتقدير . نعم انها أسن منه ، ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس الى محاسنها وفضائلها الكثيرة التى جعلته يرى فيها رغبة نفسه وطلبة قلبه ، وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها ، فكل وافق ، وبنى محمد بها بعد أن أصدقها عشرين بكرة كما يروون .

* * *

كان هـذا الزواج لمحمد وخديجة فاتحة حياة زوجية هادئة وادعة هنيئة ، كأهدأ ما تكون حياة زوجية وأروعها وأهنئها ولم لا تكون كذلك ؟ وكانت تقوم على الكثير المتبادل من الحب والاخلاص والتقدير . كانت خـديجة تقدر فى محمد كرم الخلق ورقة القلب ، وروحانية النفس ، وكان هو يقدر فيها رجاحة العقل وكثرة العطف عليه ، والاعجاب به ، والتوفير لأسباب راحته فى منزله ، ومطابقته فيما يحب وما لا يحب ، ولا ننس أن محمداً لم يكن كسائر الرجال يعيش كيفما اتفق ، فهو رجل كثير العناية بأمر نفسه ، ليس كل الطعام يطعم ، ولا كل الشراب يشرب ، ولا كل الملبس يلبس ، ولا بكل الزينة يزدان ، ثم هو ميال بطبعه الى العزلة ، مؤثر للصمت ، مطيل للفكر ، فعلى جليسه وعشيره أن يعرف فيه كل ذلك ويرعاه له ، وقد عرفت خديجة ذلك ورعته له أتم رعاية ؛ فلا شك أنها كانت تعد له ما يستطيبه من الدباء والعسل ، والتمر المنقوع فى اللبن أو المخلوط بالقثاء أحياناً ، ولا شك أنها كانت تقل فى طعامه من البصل والثوم اللذين كانت تعاف كثرتهما نفسه ، كما كانت تعنى بنظافة ثيابه وأدوات طيبه وأدهانه ، فقد كان محمد يحب أن يبرز للناس عطر الجسم ، نظيف الملبس ، ولا شك أنها كانت توفر له الهدوء فى المنزل ، واذا جنح الى الخلوة أو التحنث فى الغار لم تقطع عليه سكونه ؛ بل أعانته على ذلك بأعداد الزاد الذى يحتاج اليه ، فاذا طالت غيبته افتقدته فى غير إزعاج له ، ولا تكدير لصفو نفسه

وكما كانت خديجة مثال الزوجة الحفية بزوجها ، فانها كانت مثال الأم المعنية بأولادها . لقد رزق محمد منها كل أولاده غير ابراهيم . رزق منها القاسم وبه كان يكنى ، ثم ولدت له زينب ورقية ، وفاطمة وأم كلثوم ، وكل هؤلاء ولدوا قبل النبوة ، ثم ولد له فى الاسلام عبد الله الذى عرف بالطيب والطاهر ، وقد مات الغلامان صغيرين ، أما البنات فكلهن أدركن الاسلام وتزوجن وهاجرن ، وقد انضم الى هؤلاء على بن أبى طالب ، ضمه النبى الى أولاده تخفيفاً عن عمه أبى طالب الذى كان فقيراً كثير العيال ، وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف منها كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم ؛ غير أن ما ورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة فيما نحن بصدده . روى ابن سعد عن الواقدى قال : « وكانت سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب تقبل خديجة فى ولادها ، وكانت تعق عن كل غلام بشاتين ، وعن الجارية بشاة ، وكان بين كل ولدين لها سنة ، وكانت تسترضع لهم ، وتعد ذلك قبل ولادها » ، وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ، ورضاعتهم ، وتنشئتهم ، فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها ، فهى التى أشارت على النبى بأن يزوج سعد بن الربيع من بنتها زينب ؛ فلما زفت اليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن بعد سيرد ذكره . ثم إن كل من أصهر الى محمد سعد بزواجه ، فسعد بن الربيع أبى أن يفارق زينب عندما أرادت قريش حمله على طلاقها نكاية فى محمد مع أن سعداً لم يكن قد أسلم بعد ، وقد تزوج عثمان بن عفان رقية ، فلما توفيت ورآه النبى حزيناً مهموماً لهفان زوجه اختها أم كلثوم ، وكانت فاطمة عنـد زوجها على بن أبى طالب بالمحل الرفيع ، والمكان الممتاز

* * *

لكن فضل خديجة الأكبر ، وفخرها الخالد خلود الزمن ؛ إنما هو فى موقفها من زوجها عند ما نبئ ، ومن الدعوة الاسلامية التى أخذ يدعو اليها ، بعد خمس عشرة سنة من زواجه منها

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادئ السرب ، ناعم البال ، وأصبح له منزل وأهل يسكن اليهما فانصرف الى ما كانت تصبو اليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكر ، فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أى ترى فى مسلكه بأساً . فلما فجئ الوحى محمداً ، وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والحيرة ، ورجع الى منزله رعباً حائراً وقال لها : « لقد خشيت أن يكون بى جنن ! » لم يكن منها إلا أن ثبتت فؤاده ، وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة « والله لا يخزيك الله أبداً ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . الخ » ثم إنها انطلقت من فورها الى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وقصت عليه خبر زوجها ، فبشرها ورقة بأن الذى رآه محمد انما هو الناموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى ، وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها ، فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به ، روى الطبرى باسناده الى عفيف الكندى أنه قال : « كنت امرأ تاجراً ، فقدمت أيام الحج ، فأتيت العباس ، فبينا نحن عنده اذ خرج رجل يصلى ؛ فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلى ، وخرج غلام فقام يصلى معه . فقلت : ياعباس ما هذا الدين ؟ قال : هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه على بن أبى طالب آمن به . قال عفيف : فليتنى كنت آمنت يومئذ ، فكنت أكون ثالثاً »

ولم يزد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخاً ، ولا يقينها إلا قوة ، ولا تعلقها بزوجها الا شدة ، فكانت فى السنوات العشر الأولى للبعثة ، وهى السنوات التى توالت فيها الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه ، واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد ، كانت خديجة فى تلك السنوات الى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه ، وتأسو بعطفها جراحه ، روى ابن الأثير باسناده فقال : « وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله ، وصدق بما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه الا فرج الله عنه بها ، اذا رجع اليها تثبته ، وتخفف عنه وتصدقه ، وتهون عليه أمر الناس »

ولم تتردد خديجة عند ما جد الجد ، أن تشرك زوجها فى محنته ، وتقاسمه مر العيش كما قسمته حلوه ، وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة . فعند ما اشتدت قريش على بنى هاشم والمطلب وحصرتهم فى الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد ، كانت خديجة فى الشعب تقاسى ما يقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها . فلما فاءت قريش الى صوابها وخلت سبيل أولئك المجاهدين المجهودين ، كان طول الحصار قد أضر بخديجة واخترم المرض جثمانها فلم تعش الا قليلاً ، وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة ، بالغة من العمر خمسة وستين عاماً ، وقد دفنها الرسول بالحجون ، وسوى عليها التراب بعد أن نزل قبرها وألقى عليها النظرة الأخيرة

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفى نفس العام عمه أبا طالب ، وهو الذى كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه . فاجتمع على محمد فى وقت واحد خطبان فادحان ، ورزآن بالغان ، ولكن لا شك فى أن داخل رزئيه كان الأفدح ، وباطن جرحيه كان الأدمى ؛ لقد تهدم صرح سعادته المنزلية ، وغدت الحياة مشغلة له فى الداخل والخارج ، على كثرة ما أعطاه الله فى الداخل والخارج

* * *

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن احسانه ، وأكرم من ألا يفى لحبيب صدقه الحب ، وأصفاه الود ، ولو باعدت بينه وبينه أطباق الثرى ، وكذلك كان شأنه مع خديجة بنت خويلد ، لقد وفى لها فى حالى الحياة والموت ، أحبها ولم يتزوج عليها فى حياتها ، فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره ، ولا فارق تذكرها لسانه ، وهم يروون فى ثنائه عليها ودوام تذكره لها أخباراً كثيرة . يرون أنه فضلها هى ومريم بنت عمران على نساء العالمين ، وأنه بشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لاصخب فيه ولا نصب ، وأنه عند ما أرسلت اليه ابنته زينب بقلادة قلدتها اياها خديجة ، لتفتدى بها زوجها سعد بن الربيع وكان قد أسر ببدر ، رق النبى لذلك رقة شديدة ، وطلب الى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها وما لها ففعلوا ، وأنه كان اذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

البين منها ، وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة ويثني عليها ، والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهي بعد آثر نسائه لديه ، وأجملهن ، وأصغرهن سناً . روى ابن الأثير باسناده الى عائشة أنها قالت : « كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوماً من الأيام ، فأدركتني الغيرة ، فقلت : هل كانت الا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها . فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبني الناس ، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ؛ ورزقني الله منها أولاداً اذ حرمني أولاد النساء ، قالت عائشة : فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً »

* * *

تلك بالاختصار سيرة أول امرأة مسلمة ، وخير امرأة مسلمة يعرف فيها القارئ المثل الأعلى للمرأة زوجة ، وأما ، وعونا على جلائل الأمور في غير خروج على طبيعة الجنس ومواضعات الناس منذ صار الانسان إنساناً ؟

عبد الحميد العبادي

عُقْبة على شاطئ المحيط

للدكتور عبد الوهاب عزام



— ١ —

من القوم أوغلوا في البيداء ، يجوبون سيناء ، قد أغذوا السير ، وأقلوا المَيْر ؟

من القوم تسبح بهم الجمال ، في لجج الرمال ، وتنوص منهم الأشباح والظلال ، في غمرات الآل . تسيل بهم الهضاب إلى الوهاد ، وتفيض بهم الوهاد إلى الهضاب ، لا يألون تأويباً وإدلاجا ، ولا يشكون نصباً ولا كلالا ؟

من القوم ترى عزائمهم الغايات ، وتطوى هممهم السبل ، سيان عندهم البعيد والقريب ، والعسير واليسير ؟

من القوم تضيء بالايمان قلوبهم ، وتقر على اليقين نفوسهم ، خدامهم القرآن ، وغناؤهم الأذان ، رحالهم معابد ، ومنازلهم[1] مساجد ، قد شروا لله أنفسهم ، وأرخصوا في مرضاته أرواحهم ، ورضوا بما قسم لهم . وقد ساروا الشمس مغربين ، لا تصدهم الأهوال ، ولا تستردهم الأوطان ، كأنهم نجوم في حبك الأرض ، تسير بقدر إلى قدر ؟

* * *

العرب المسلمون يقودهم عمرو ، يتوجهون تلقاء مصر . رموا الباطل في جانب وسددوا إلى جانب ، وصرعوه في ميدان وهرعوا إلى ميدان ؛ وهدموا سلطان الروم والشام وصمدوا لسلطان الروم في مصر وأفريقية

بالأمس زحموا الصرح فانهار ، ونفخوا زخرف قيصر فطار ، وأشاروا إلى الصنم فسجد ، وخلى جبروته إلى الأبد . وضعوا سلطان هرقل ورفعوا سلطان الله ، وأقاموا الحرية في مصارع العبودية ، وشادوا العدل على مقاتل الجور

واليوم يتبعون الباطل المهزوم ، ويشردون الزور المذود . إنهم يؤمون مصر . ومصر أكرم على الله من أن تكون مباءة الباطل ومثوى الجبروت . إنهم يسرعون إلى مصر . فعفاء على الروم وسلطانهم ، وويل للباطل يدمغه الحق ، والظلم يصمد له العدل ، والاستعباد تثور به الحرية ، وويل للروم يسير إليهم العرب

— ٢ —

أترى البحر المائج ، واللج الهائج ؟ أترى السفن على الثبج راجفة ، والجموع فوقها واجفة ؟ أترى الموج يتلاطم ، والسفين يتصادم ، والجيوش ملتحمة ، والخناجر والسيوف مختصمة ؟ أترى جنداً يلوذون من حر الضراب الى برد الماء ، ومن ذل الاسار الى عار الفرار ، وجنداً ثبته اليقين فثبت ، وآثر الموت على العار فظفر ؟

واعجبا ! قد أصبح فرسان الصحراء أبطال الدأماء ، وصار حداة الابل أمراء السفن ، جاوزوا الكثبان البيض إلى اللجج

(١) منازل الطريق

الحضر ، فاتخذوا السفين جياداً والبحر مراداً . وهل الابل لا سفن الصحراء ، وهل السفن إلا أفراس الماء ؟ فما استبدل ئولاء إلا سفينة بسفينة وفرساً بفرس

وانها ، على ذلك ، لأحدى العبر : أبناء البادية ينازلون لروم فى الأساطيل . معاوية وابن أبى سرح يقاتلان قسطنطين بن هرقل ، وقد جاءهم فى ستمائة سفينة تحمل جند الروم وتاريخ الروم ، وثارات الروم . وأعجب العجب أن يغلب الأسطول الرضيع الأسطول المكتهل ، أن يغلب ابن أبى سفيان ابن هرقل ، أن يغلب العرب الروم فى بحر الروم[1]

— ٣ —

ماجزيرة العرب ، وفارس ، والشام ومصر ، وما الهند والصين ، والمشرق والمغرب فى همة هذه الشمس الوهاجة ، وعزيمة تلك الكواكب السيارة . قد استقر سلطان القوم فى مصر فلم يقنعوا ، وها هم قد غزوا برقة ورجعوا . أتحسب الأمد تطاول عليهم ، والشقة بعدت بهم فملوا أو خاروا ؟ تلبث قليلاً ثم انظر جيش العبادلة[2] يزحف الى افريقية فيظفر ثم يصالح . وما وراء الحرب والسلم الا المسير لاعلاء كلمة الله ، وبلوغ الغاية مما أرادوا فى سبيل الله

ويقف القوم سنين . وما هو الا الجمام للسير ، والتحفز للوثوب ، والاعداد للجهاد ، والتريث للتثبت . وعما قليل يطوون المغرب لا تعوقهم الفيافى المترامية ، ولا تصدهم الجيوش الجرارة . تنظّر الغد . فما بلغ القوم الأمل الموعود ، ولا قاربوا الغاية المقدورة

— ٤ —

عشرة آلاف تطوى الأوطان والقطان فى سبيلها ، وتطأ الأهوال والأبطال الى غايتها ! عشرة آلاف وفى الناس واحد كألف

تجمعت فى فؤاده همم ملء فؤاد الزمان احداها

عشرة آلاف قائدهم عقبة بن نافع قد عزموا ألا ينثنوا ، وصمموا ألا يهزموا ، وآلوا ألا يرجعوا ما اتسع الفتح لعزائمهم ، وامتدت الأرض لأقدامهم

(١) إشارة إلى موقعة الصواري سنة ٣١ هـ

(٢) جيش غزا إفريقية وفيه أبناء أبى بكر وعمر وعمرو والزبير وأبو ذؤيب الشاعر

ها هو ذا عقبة يبنى مدينة القيروان ، فعل الغازى المعمر والفاتح المقيم . وسيجعلها مبدأ السير وأول الفتح ، كأنهم ماقطعوا المهامه اليها ، ولا ساروا عن ديارهم قبلها

فى كل فج عزمهم سيار
الى الوغى تهافتوا وطاروا
جماعة ليس لهم ديار
الا ظهور الخيل والغبار

أرض الله ، وعباد الله : أينما توجهوا فهى أرضهم ، وحيثما حلوا فهى ديارهم . لا بعد عندهم ولا قرب ، ولا شرق ولا غرب « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله »

ولكن عشرات آلاف من الروم والأفريق قد ساروا اليهم . لقد أعد الروم لهم ، وأزمعوا أن يحطموهم . فوارحمتاه للأمجاد القليلين ، والغرباء النازحين !

كلا لا خوف ولا حزن ، ولا قلة ولا كثرة . انظرهم يديرونها على عدوهم حرباً طاحنة ، ويلجئون الروم وأعوانهم من لظى النار الى سلاسل الأسار — ألوف من الروم مصفدون

أترى الكثرة أغنت ، أم ترى القلة قلت ؟ ذلك آخر عهد الروم بافريقية

— ٥ —

أين الجنود البواسل ، والعباد الغزاة ، والبداة الذين خرجوا ينشدون الحق ويردون الجبارين الى العدل ؟ أنهم ليسوا فى برقة ولا افريقية . . . . ها هم فى أقصى المغرب ! هم اليوم فى طنجة ! بل هم فى إيسوس . لقد انتهوا الى الساحل ، لقد انتهت الأرض وأسفا للجواد المتمطر لا يجد مجالاً ، والعزم المحضير لا يجد مضطرباً . قد بلغوا البحر فكيف المسير ؟ وفتحوا ما بين المدينة المنورة ، وبحر الظلمات فانى الفتح ؟

انظر عقبة تضيق بعزمه الأرض ، وتصغر فى عينه الأقطار ، فيدفع جواده فى البحر ويصيح :

« والله لو علمت وراءه أرضاً لسرت غازياً فى سبيل الله »[1]

(بغداد) عبد الوهاب عزام

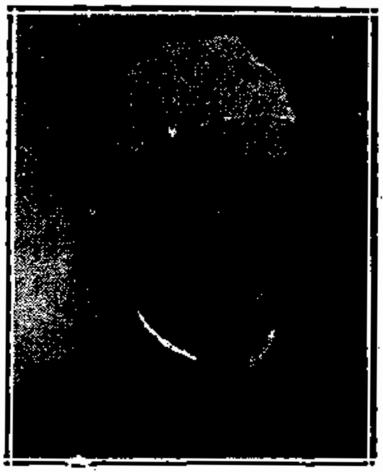
(١) روى بعض المؤرخين أن عقبة فعل هذا حينا بلغ شاطىء المحيط الأطلسى

صداقة تدين التاريخ

« ألا إن لنا قلوبا »

للاستاذ أمين الخولى

— ١ —



في واد مشرق السماء، جهم الأديم، تضطجع بين الجبال، على سريف الصحراء، تلك العذراء المنعمة « مكة »؛ تكاد تنال باحدى يديها مياه « القلزم »؛ حين تنسم عن بعد نسيم الشرق بعراقه وفرسه، تلتفت عنة الى بلاد العرب السعيدة، بدفء شتائها وأسباب حياتها؛ وترنو يسرة الى مشارف الشام بوارف ظلالها، وفتون حضارتها

في واد غير ذى زرع حول البيت المحرم، منذ بضعة عشر قرناً كانت تخفق القلوب وجلة، وتختلج النفوس متطلعة، ويشيع في أولى الألباب تشوف وتلهف، استحال اضطراباً اجتماعياً، وثوراناً روحياً، على قديم لا يرضى العقل، ولا يسعد القلب، حتى هب نشاط أناسى منهم الى انتجاع ذلك الجديد بالرحلة اليه، والنقلة في سبيله، مثلما تلتمس أسباب الرفاهة الحيوية، من أعراض التجارة وحطام الدنيا

— ٢ —

في ذلك العهد الحائر، كان سيدان من سادات قريش، قد اكتملت لهما بسطة من الجسم والحلم، وظفرا بوفر من الحسب والكرم، حين سمدا بأخلاق تشابهت في السمو، حتى تلاقت فيهما نعوت الواصفين: لا يعيشان لأنفسهما، ولا يفكران في ذواتهما. انما هم أحدهم ظلم يرفع، وحاجة تدفع، ومعونة على الدهر، أو اضطلاع باصلاح اذا كثر الشر

كانا في سن متقاربة، لا تقول هما لدان، ولكنهما متقاربان، سبق أكبرهما صاحبه الى هذه الدنيا بعامين وشيء من الأيام

كانا يضربان في حياة تشابهت ودنياها، وإن تخالفت ألوانها، الكبير تاجر يصرف الدراهم والدنانير، حين كان الأكبر يرعى الشاء ويدبر البعير، على هينة في ذلك وقلة عناية

توثقت بينهما صداقة عريقة، حين كان الأكبر يشارف الأربعين، قد بقى له من عدها عام، والكبير يبعد عنها بخطوات ثلاث وعدة أيام؛ فلهما الشباب المكتمل، والعقل المتزن. وما كانت بينهما هذه الصداقة الا عن تآلف نفس، وتمازج روح؛ والا ففيم يتقاربان، والكبير يعرف من سبل الكسب وطرق الثراء، ما وراء أفق البادية الجديب، ويختلف الى اليمن والشام يثرى ويربح، على حين ينصرف الأكبر عن المال والنشب؛ قليل الكد في سبيلهما، زاهدا في أسبابهما؛ يعتزل الناس فريدا ويتحنث وحيداً، يسائل الشمس والقمر، ويستنطق الريح والصخر، أى شيء هذا؟ وفيم العناء؟ وإلام المسير؟ وأين الثواء؟ هذه حالها حين ربطت بينهما تلك الصداقة؛ فما إن نشك في أن هذا الصديق كان يشاطر صديقه هذا التساؤل، ويبادله ذلك التفهم؛ وان وقف في ذلك دونه، لا يتكشف له من الآفاق ما يستشرف له الأكبر، ويطالعه في قوة روح آلف لهذا وأقدر

— ٣ —

تعارفا وتآلفا؛ وما هو الا عام حتى ظهر النور الأنضر، وجاء الفتح الأكبر.. وأسر الصديق الى صديقه أنه قد همس في أذنه، وألقى في روعه، وتفتحت له جنبات السماء، وانه لحدثه عنها حديث الرائى المشاهد. فاذا الكبير على الفه؛ يرى بعين الأكبر، يستشف ما في روحه، ويجد في قلبه صورة ما تنطوى عليه جوانحه، فيؤمن معه أو يؤمن به؛ واذا حياتهما قد صارت إيماناً، حار الأنفاس، ملتهب الاحساس، متصل الأسباب بالحق الأعظم، فزاد ما بينهما قرباً أو اتحادا، وصارت صداقتهما على ما اشتهى الواثقون بطهر الانسانية ومعنوية الحياة؛ اذا ما قال الأكبر أنت أحب الرجال الى، قال الكبير أنت الى أحب الناس

— ٤ —

اضطلع الأكبر بعبئه أمام الدهر؛ وخرج يدفع الانسانية دفعاً، ويدير الحياة في غير مدارها، ويخط مستقبل التاريخ، وما أشق وأهول!

اذا ما أقبل النهار ، وارتفعت الشمس ، خرج يرى لنفسه ، طلف لأمره ، بين بدو همل هائمين ، وعتاة فيهم مأفونين ، يهم أنه قد حل اللغز الأعقـد ، وظفر بالمجد الأوحد ، اتصل الله بسبب ، ووقف من السماء بمنال ، ويهجو آلهتهم ، ويسفه لامهم . . فأى سخرية يلقى ، وأى عناء يواجه ، وبأى نقيصة يرف ... هو كاهن ، وساحر ، وشاعر ، ومجنون ، وممسوس ، كذاب و و . . .

فاذا ما كاد يبخع نفسه أن لم يؤمنوا ؛ واذا ما ذهبت نفسـه سرات عليهم ، تلفت فاذا صورة نفسه قائم الى جانبه ، يواسيه زفه عنه ، يمسح عن قلبـه أوضار الألم ، وقذائف التهم ، حين لب الجروح قد أسالتها أحجار المفـــترين وقذائف السفهاء عمولين عليه ، وما يزال كذلك حتى يسلمه فى الليل الى تلك زوجة الأمينة الرزينة ، التى فهمت عنه حين جهله الناس ، اطمأنت اليه حين أنكره الناس . . فهو منهما فى ألفة وطمأنينة . النفس بالصديق ، آنس منها بالمشيق . .

وكانت احن ومحن طالت بضعة عشر عاماً ، فقد فيها الأكبر تلك الزوج ، فـكان نهاره وليله لصديقه الصدوق ، وعنده انتهت مؤانسته ، حين كان الهم يزداد والعناء يشتد

وخشى القوم خطر تلك الدعوة الدائبة ، وهاتيك المهاجمة المصابرة ، فزادوها قسوة وتنكيلا ، وأشـبعوا من نصرها ألماً وتعذيبا ، فاذا الصديق يفى لأنصار صديقـه وفاءه له : يجد فى انقاذهم ، ويسعى فى تحريرهم ، باذلاً فى ذلك ما ادخر وأثل ؛ فاذا عتقاؤه منهم سبعة نفر . . . ولقـد أدركت ولا مراء ، أنه لن يكون الا الأعز . . . أبا بكر

— ٥ —

هذان هما ، قد نبا بهما المقر ، وأجمع الناس كيـدهم ، فهو الموت والدم بدد ، والثأر ضائع ؛ لـكن الصديق أبداً مخلص ، هو ظله حيث سار وردؤه فيما يرى لنفسه ؛ وعفاء على الأهل والمال والولد والوطن ، يخليها جميعاً ويخرج من الدنيا بصديقه . . . الى التيه ، الى الشرود ، الى المغامرات ، الى الـكهوف والغيران ، الى الجوع والعذاب ، الى الدرك والمحاق ، الى الموت ، الى كل كريهة ، ماهى الا المحببة حين يريدها الصديق . وما أجله وأنبله حين أنزله الغار فلم يخف ، وحسبك أنه انمـا يقول له : « لا تحزن ان الله معنا » ؛ وما ظنك باثنين الله ثالثهما . . أجل لقـد كانا كذلك انفراداً فى الغار ، كما كاناه انفراداً فى صداقة وولاء ووفاء

— ٦ —

رافقه الى مأمنـه ؛ ولازمه فى مهاجره ، وتنفست الدنيا ، وانبلج صبح الفوز ، فظل له كما كان يوم عرفه قبل مبعثه ، يبذل له قواه وروحه ، كما يبذل له اخلاصه وبره ؛ يحمل اليـه فلذة كبده ، يضعها فى حجره ، فتكون رسالة من قلب الى قلب . وتمسى فى النساء قرة عينه كما كان فى الرجال أبوهاله ؛ يبـذل له ماله ، وما المال فى ذلك كله ؟ وأى شىء أربعون ألف درهم خرج من دنياه لا يعرف منها مكان درهم ؟ يلازمه فى حربه وسـلمه ، وصحته ومرضه ، حتى تأذن الله له بالنصر ، وأتم الرسول عليه السلام ما ندب له من حادث فى مسير الدنيا ، ومستقبل الـكون ، فاذا ذلك كله فى التاريخ يعرف بد تلك الصداقة

— ٧ —

وخرج الرسول عليه السلام من دنياه ، فتصدع الأساس ، وانشعب الأمر ؛ ارتدت الجزيرة ، واضطرب الباقون فى قمع الخارجين . . . لـكن الصـديق النبيل الجليل قائم ، يصل من وراء القبر روح صديقه ، ويحسه قائماً الى جانبه ، فاذا هو جيش وحده ، وإذا هو أمة وحده ، واذا هو الاسـلام كله حين يقول لهم جميعاً : أيها الناس ! لو أفردت من جمعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده ، حتى أبلغ من نفسى عذرا أو أقتل مقتلاً . . . فسارع الـكل وظفر الاسلام

قرت الدولة ، وانبسط السلطان ، وأينعت الحضارة ، وسعدت الانسانية ، وشهد التاريخ ، فاذا ذلك كله يعرف ولا غرو دين تلك الصداقة

— ٨ —

بنى الشرق ! ان السـيوف قد استحالت فى أيدينا خشبا . والمدافع قد أمست مواقيت للطعام وتلاهى للأعياد ، والجو من فوقنا ، والأرض من تحتنا ، والبحر من حولنا ، ليس من ذلك شىء لنا ، لـكننا ولا غرو نحتاز نفوسا ، ونملك قلوباً موصولة السبب بتلك القلوب ، فلو عرفت الايمان لشقت المجـد ، ولو أحست الوفاء لنالت أسباب السماء ، ولو وجدت مس تلك الصداقة لنصرت دينا ، وبنت دولة ، ودانت التاريخ . . .

فهل تذكرون ؟

أمين الخولى

درس من النبوة

للاستاذ مصطفى صادق الرافعي



قالوا : إنه لما نصر الله تعالى رسولَه وردَّ عنــه الأحزاب وفتح عليه قُرَيْظَةَ والنَّضِير(١) ظن أزواجُه صلى الله عليه وسلم أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم وكنَّ تســعَ نسوة : عائشة ، وحَفْصة ، وأم حبيبة ، وسَوْدة ، وأم سَلَمَة ، وصَفِــية ، وميمونة ، وزينب وجُوَيْرِية ؛ فقعــدن حوله وقلن : يا رسول الله ، بناتُ كسرى وقيصر فى الحَلْى والحُلَل والإماء والخَوَل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق . وآلَمْنَ قلبَه بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بمــا تعامل به الملوكُ وأبناء الدنيا أزواجَهم ؛ فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى أمرهن من تخييرهن فى فراقه ، وذلك قولُه تعالى : « يا أيها النبيُّ قل لأزواجك إنْ كنتن تُردن الحياةَ الدنيا وزينتَها فتعالَيْنَ أُمتِّعْكُنَّ وأُسرِّحْكن سَراحاً جميلا(٢) . وإن كنتن تردنَ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيما »

قالوا : وبدأ صلى الله عليه وسلم بعائشة (وهى أحبهن إليه) فقال لهــا : إنى ذاكرٌ لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيــه حتى تســتأمرى أبويك . قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية . قالت : أفيك أستأمر أبويَّ ؟ بل أختارُ اللهَ تعالى ورسوله ثم تابعن كلُّهن على ذلك ، فسمّاهن الله « أمهاتِ المؤمنين » تعظيما لحقهن وتأكيداً لحرمتهن وتفضيلاً لهن على سائر النساء .

* * *

هذه هى القصــة كما تُقرأ فى التاريخ وكما ظهرت فى الزمان والمكان ، فلنقرأها نحن كما هى فى معانى الحكمة ، وكما ظهرت فى الإنسـانية العالية ، فسنجد لها غَوْراً بعيداً ونعرف فيها دلالةً سامية ، ونتبين تحقيقاً فلســفياً دقيقاً للأوهام والحقائق . وهى قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوى على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد ، ومن أجلها ذُكرت فى القرآن الكريم ، لتكون نصًّا تاريخياً قاطعاً يدافع به التاريخ عن هذا النبى العظيم فى أمر من أمر العقل والغريزة ؛ فإن جهلةَ المبشرين فى زمننا هذا وكثيراً من أهل الزيغ والإلحاد وطائفــةً من قصار النظر فى التحقيق يزعمون أن محمداً صلى الله عليه وسلم إنمــا استكثر مــن النساء لأهواء نفسية محضة وشهواتٍ كالشهوات ؛ ويتطرَّقون من هذا الزعم إلى الشبهة ، ومن الشبهة إلى سوء الظن ، ومن سوء الظن إلى قبح الرأى ، وكلهم غبى جاهل ؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه ، لما كانت هذه القصة التى أساسُها نفى الزينة وتجريد نسائه جميعاً منهــا ، وتصحيحُ النيّة بينه وبينهن على حيــاة لا تحيا فيها معانى المرأة ، وتحت جوٍّ لا يكون أبداً جوَّ الزهر . . . وأمرُه من قِبَل ربه أن يخيرهنَّ جميعاً بين سَراحهن فيكنَّ كالنساء ويجدن ما شئن من دنيا المرأة ، وبين إمســاكهن فلا يكنَّ معــه إلا فى طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهى الدنيا وزينتُها

فالقصة نفسها ردٌّ على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغةَ الشهوة ولا سياسةَ معانيها ولا أسلوبَ غضبها أو رضاها . وما هُهنا تمليقٌ ولا إطراء ولا نعومةٌ ولا حرصٌ على لذة ولا تعبير بلغــة الحاسة ؛ والقصةُ بعدُ مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبهُ معنى من حرارة القلب ، ولا أثر ولا بقيةُ أثر من ميل النفس ، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم . وهى على منطق آخر غير المنطق الذى تُستمال به المرأة ؛ فلم تقتصر على نفى الدنيا وزينة

(١) هما حيان من أحياء اليهود بالمدينة ، وكان ذلك فى أواخر سنة خمس للهجرة

(٢) السراح : الطلاق ومتعــة الطلاق ما تعطاه المطلقة — وهو يختلف حسب السعة والاقتار

نيا عنهن ، بل نفت الأمل فى ذلك أيضاً إلى آخر الدهر باتت معناه فى نفوسهن بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : فى أمره ونهيه ، والرسول فى شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة تكاليفها ومكارهها . فليس هنا ظرف ولا رقة ولا عاطفة لا سياسة لطبيعة المرأة ، ولا اعتبار لمزاجها ولا زُلفى لأنوثتها ؛ هو تخيير صريح بين ضدين لا تلوّن بينهما حالةٌ تكون بهما معاً ، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدة لا أكثر

والحريص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتى بشىء من هذا ، ل يخاطب فى المرأة خيالها أولَ مايخاطب ، ويُشبعه مبالغةً وتأكيداً ويُوسعه رجاء وأملا ، ويقرب له الزمن البعيد حتى لو كان فى أول الليل ، وكان الخلاف على الوقت لحقق له أن الظهر بعد ساعة .

* * *

وبرهان آخر وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يتزوج نساءه لمتاع مما يمتّع الخيالُ به ، فلو كان وضعُ الأمر على ذلك لما استقام ذلك إلاّ بالزينة وبالفن الناعم فى الثوب والحلية والتشكُّل كما ترى فى الطبيعة الفنية ، فإن الممثلة لا تمثل الرواية إلا فى المسرح المهيأ بمناظره وجوّه . . . وقد كان نساؤه صلى الله عليه وسلم أعرف به ؛ وها هو ذا ينفى الزينة عنهن ويخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها . فهل ترى فى هذا صورة فكر من أفكار الشهوة ؟ وهل ترى إلا الكمال المحض ؟ وهل كانت متابعةُ الزوجات التسع إلاّ تسعةَ برهانات على هذا الكمال ؟

وكأن النبى صلى الله عليه وسلم يلقى بهذه القصة درساً مستفيضاً فى فلسفة الخيال وسوء أثره على المرأة فى أنوثتها ، وعلى الرجل فى رجولته ، وأن ذلك تعقيد فى الشهوات يقابله تعقيد فى الطبع ، وكذبٌ فى الحقيقة ينشأ عنه كذب الخلق ، وأنه صرفٌ للمرأة إلى حياة الأحلام والأمانى والطيش والبطر والفراغ ، وتعويدُها عاداتٍ تفسد عاطفتها وتُضيف إليها التصنع فتُضعف قوتَها النفسيةَ القائمة على إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها ، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها

وكل محاسن المرأة هى خيالٌ متخيل ولا حقيقة لشىء منها فى الطبيعة ، وإنما حقيقتها فى العين الناظرة إليها فلا تكون امرأةٌ فاتنةً إلا للمفتون بها ليس غير . ولو ردّت الطبيعة على من يُشبّب بامرأة جميلة فيقول لها : هذه محاسنك وهذه فتنتك وهذا سحرك وهذا وهذا ؛ لقالت له الطبيعة : بل هذه كلها شهواتك أنت[1] . . . .

وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر فلا يفتنه جمال الصورة ولا سحر الشكل ولا فراهة المنظر ، وإنما يفتنه صوت المرأة وجَسُّها ورائحتها . فلا حقيقة فى المرأة إلا المرأةُ نفسُها ؛ ولو أخذتْ كل امرأة على حقيقتها هذه لما فسد رجل ولا شقيت امرأة ، ولانتظمت حياة كل زوجين بأسبابها التى فيها . وذلك هو المثل المضروب فى القصة

يريد النبى صلى الله عليه وسلم ليعلم أمته أن تحكيمَ الغريزة على العقل إفسادٌ لهذا العقل ، وأنه متى أخذت المرأة لحظ الغريزة واختيارها كانت حياتها استجابةً لجنون الرجل ، وملأتها معانى التزيد والتصنُّع ، فيوشك أن ينقلها هذا عن طبيعتها السامية التى أكثرها فى الحرمان والإيثار والصبر والاحتمال ، ويردّها إلى أضداد هذه الصفات فيقوم أمرها بعدُ على الأثرة والمصلحة والتفادى والضجر والتبرم والإلحاح والإزعاج ، ويضعف معنى السلب الراسخ فى نفسها من أصل الفطرة فيتبدل حياؤها وفى الحياء ردها عن أشياء ، ويقل إخلاصها وفى الإخلاص رد لها عن أشياء أخرى ، ويكثر طمعها وفى قناعتها مُحاجَزَةٌ بينها وبين الشر

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة المتصنعة ؛ فاذا كثر المتصنعات لا يكون من النساء مشاكل فقط ، بل تكون من حُلول المشاكل معهن مشاكلُ أخرى . . . .

* * *

ولُبابُ هذه القصة أن النبى صلى الله عليه وسلم يجعل نفسه فى الزواج المثل الشعبى الأكمل كما هو دأبه فى كل صفاته الشريفة ،

(١) بسطنا هذا المعنى فى كثير مما كتبناه وخاصة فى كتاب : (السحاب الأحمر)

فـ ـ تكون زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ليكون المثل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التى تبرع البراعة كلها فى الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا تكون المرأة زينة تطلب زينة لتتم بها فى الخيال ، ولكن إنسانية تطلب كمالها الإنسانى لتتم به فى الواقع

وهذه الزينة التى تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتقلّد ، وكلما أسرفت فى هذه أسرفت فى تلك ، بل الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعانى كالأظافر والمخالب والأنياب ، غير أن هذه لوحشية الطبيعة الحية المفترسة ، وتلك لوحشية الغريزة الحية التى تريد أن تفترس . ولا تنكر المرأة نفسها أن الزينة على جسمها ثرثرة طويلة تقول وتقول وتقول .

* * *

وإنما يكون أساسُ الكمال الإنسانى فى الإنسان العامل المجاهد لا يحصر نفسه فى شىء يسمى متاعاً أو زينة ، ولا يقدر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها ، ولا يعتدُّ ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات . ونبينا صلى الله عليه وسلم هو الغاية فى هذا ، دخل عليه مرة عمر بن الخطاب فاذا هو على حصير وعليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر فى جنبه . قال عمر : وإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، وإذا إهابٌ معلق[١] ، فابتدرتْ عيناى ، فقال ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ قال عمر : يا نبى الله ومالى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصفوته وهذه خزائنك[٢] ؟

وجاء مرة من سفر فدخل على ابنته فاطمة رضى الله عنها فرأى على بابها ستراً وفى يديها قُلْبين من فضة[٣] فرجع ، فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع أبيها ، فسأله فى ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : من أجل الستر والسّوارين

فلما أخبرها أبو رافع هتكت الستر[١] ونزعت السوارين فأرسلت بهما بلالاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت به فضعه حيث ترى . فقال لبلال : إذهب فبعه وادفعه إلى أهل الصُّفة[٢] . فباع القُلبين بدرهمين ونصف (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدق به عليهم

يا بنت النبى العظيم ! وأنت أيضاً لا يرضى لك أبوك حلية بدرهمين ونصف وإنّ فى المسلمين فقراء

أى رجل شعبى على الأرض كمحمد صلى الله عليه وسلم فيه للأمة كلها غريزةُ الأب ، وفيه على كل أحواله اليقينُ الذى لا يتحول ، وفيه الطبيعةُ التامة التى يكون بها الخفيقُ هو الحقيق

يا بنت النبى العظيم ! إن زينةً بدرهمين ونصف لا تكون زينة فى رأى الحق إذا أمكن أن تكون صدقةً بدرهمين ونصف إن فيها حينئذ معنى غير معناها ؛ فيها حقُّ النفس غالباً على حق الجماعة ؛ وفيها الإيمان بالمنفعة حاكماً على الايمان بالخير ؛ وفيها ما ليس بضرورى قد جار على ما هو الضرورى ؛ وفيها خطأ من الكمال إن صح فى حساب الحلال والحرام لم يصح فى حساب الثواب والرحمة

تعالوا أيها الاشتراكيون فاعرفوا نبيكم الأعظم . إن مذهبكم ما لم تُحيِه فضائلُ الإسلام وشرائعه ، إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط . . . كل يوم تحلون وكل يوم تربطون ولا ثمرة فى الطبيعة

* * *

ليست قصة التخيير هذه مسئلةً من مسائل الغنى والفقر فى معانى المادة ، ولكنها مسئلة من مسائل الكمال والنقص

(١) كيس من جلد كالذى يتخذه العرب وعاء

(٢) الروايات من مثل هذا كثيرة عنه صلى الله عليه وسلم وقد بسطنا فلسفة هذه المعانى فى مقال (سمو الفقر) من مقالاتنا فى الرسالة

(٣) القلب بالضم سوار من الفضة غير ملوى هو الذى يقال له اليوم (الفويشة) وهو خفيف

(١) أى مزقته ؛ وكذلك رأى مرة ستراً على باب عائشة رضى الله عنها فهتكه وقال : كلما رأيته ذكرت الدنيا . أرسلى به إلى آل فلان

(٢) الصفة الفرقة وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له سهم منزل يسكنه فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه

، معانى الروح ؛ فهى صريحة فى أن النبى صلى الله عليه وسلم ستاذ الإنسانية كلها ، واجبه أن يكون فضيلة حية فى كل حياة ؛ أن يكون عزاء فى كل فقر ، وأن يكون تهذيباً فى كل غنى ، من ثم فهو فى شخصه وسيرته القانون الأدبى للجميع

وكأنه صلى الله عليه وسلم يريد ليعلِّم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهى ، ولكن بعمل عظمائها فى الأمر والنهى ، وأن الحاكم على الناس لا ينبغى أن يحكم إلا إذا كان فى نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساسَ المتسلط لا الخاضع ، ليكون أول استقلاله استقلال داخله

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى فى ظاهر القصة ، ولكنها جرأةُ النفس العظمى فى تقرير حقائقها العملية

* * *

وتنتهى القصة فى عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته صلى الله عليه وسلم « أمهات المؤمنين » بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة . وعلماء التفسير يقولون إن الله تعالى كافأهن بهذه التسمية ؛ وليس ذلك بشىء ولا فيه كبير معنى ، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الاعجاز ، فإن الزوجة الكاملة لا تكمل فى الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وصفُها مع رجلها كوصف الأم ترى ابنها بالقلب ومعانيه لا بالغريزة وحظوظها . فكل حياة حينئذ ممكنةُ السعادة لهذه الزوجة ، وكل شقاء محتملٌ بصبر ، وكل جهاد فيه لذتُه الطبيعية ، إذ يقوم البيت على الحب الذى هو الحب الخالص لا المنفعة ، وتكون زينة الحياة وجود الحى نفسه لا وجود المادة ، وتبنى النفس على الوفاء الطبيعى كوفاء الأم ، وذلك خلُق لا يعسر عليه فى سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها

وآخر ما نستخرج من القصة فى درس النبوة هذه الحكمة : بِحَسْبِ المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقةَ نفسه الطيبة وإن لم يجد حقيقةَ كسرى ولا قيصر ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

عظـــة الهجرة

للاستاذ عبد الرحمن شكرى



يتخذ الناس من عبر الحوادث مثلاً للكمال فى الخلق وشعاراً يذكر بما ينبغى أن يسلكوه وما يجب التنزه عنه من عمل أوقول ، ويكون لهم كاللواء يجمعون أمرهم حوله ، وكالحكمة يسترشدون بهداها ورشدها ، وكالحداء للركب يعينهم فى قافلة الحياة ، وكالرمز يرجعون الى مدلوله فى كل أمر حازب ، وكالعماد يعتمدون على قوته وعونه ، وكالامام يأتمون به

وقد لا يستطيع المرء فى كل حال من أحوال الحياة ألا يزايل شعاره ، فقد تخونه نفسه أو تخونه الحوادث فيسلك مسلكاً لا يشاكل شعاره ، ولكن المرء بخير اذا لم يمزق شعاره يأساً من أجل عجز عارض لا يلبث أن يزول ؛ والمرء بخير أيضاً مهما تعددت سقطاته عن شعاره ومثله ما دام له مثل يأتم به فى فعله وقوله ؛ واذا كان اتباعه له فى القول أكثر من اتباعه له فى الفعل ، فهذا أيضاً خير من ألا يكون له مثل يقدسه ، وله فى نفسه أثر قل أو كثر

وفى الهجرة النبوية لنا مثل وشعار ورمز اذا اعتبرنا بأسبابها وحوادثها ؛ وهو رمز ذو معنيين : معنى فيما ينبغى أن نتجنبه من مشابهة المشركين فى اضطهاد الحق والعقيدة النفسية والفكرة التى تنبعث منها ، ومعنى فيما ينبغى أن نتخلق به من الائتمام بالنبى صلى الله عليه وسلم فى اباته منزايلة الحق وصونه ، وفى نصرته بالرغم من اضطهاد وضيق ، وفى الاعتماد على الله فى الشدة

ولكل من المعنيين فى الحياة شواهد وأمثلة وأمور تستدعى

ذكرى ا[illegible] ـبوية وذكرى حوادثها الجليلة
ـسطعنا أن نذكرها فى كل أمر من أمور الحياة كان
ذ[illegible] خيراً من ذكرها فى تاريخ واحد معين ، على ما فى ذكرها فى هذا التاريخ الواحد المعين من خير وفضل وحمد

أى الناس لا يضطهد الحق فى أمور كثيرة من الأمور اليومية إذا كان فى اضطهاده اياه كسباً ورزقاً ، أوثناء وحمداً ، أو راحة ودعة ، أو ارضاء عزيز ، أو زلفى لدى كبير مسيطر محكم عليه ؛ وحتى عند تخيل نيل الكسب غير المحقق نيله ، وعند الأمل فى الزلفى التى قد تخيب ، يضطهد الناس الحق فى أمور الحياة وروحهم روح المشركين ولفظهم لفظ المؤمنين . ثم هم قد يعــدمون حتى لفظ المؤمنين فلا يكون لهم من الايمان إلا اسمه . هؤلاء لم يتعظوا بعظة الهجرة ، ولم يتنزهوا عن الروح التى اضطهد المشركون بها النبي صلى الله عليه وسلم . وأمثال هؤلاء لا ينتفعون باحياء ذكرى الهجرة النبوية مهما اشتغلت أبدانهم باحيائها من غير أن تشتغل قلوبهم بعظتها ، ومن غير أن تتنزه نفوسهم عن مشابهة المشركين فى اضطهاد الحق

يقول المسيحيون : إن كل من يضطهد الحق فى أمر من أمور الحياة يضطهد عيسى عليه السلام ، ويعين أعداءه عليه ، ويعادى روح الحق الذى جاء به ؛ ونحن نقول مثل هذا القول عند ذكرى الهجرة النبوية وهى ذكرى اضطهاد المشركين للحق الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، فكل من يضطهد الحق فى أمر من أمور الحياة يضطهد روح الحق الذى جاء به النبي الكريم سواء أكان اضطهاد الحق فى أمر من أمور الحياة طمعاً فى مغنم أو فى دعة أو صداقة أو زلفى

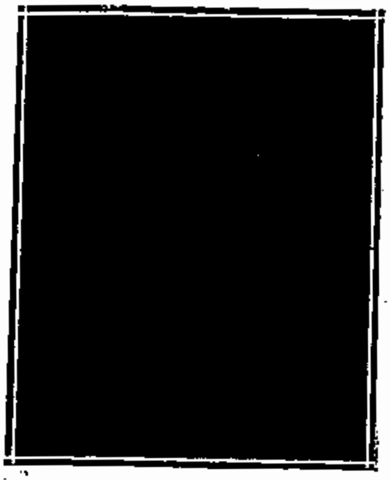
وخير شعائر الدين ومواسمه وأعياده وذكره وتواريخه الجليلة مثل تاريخ الهجرة هو فى أن تحول بين المرء وبين عادته فى قلب الفروض الخلقية الى مسميات يحسب ترددها على لسانه عقيــدة وإيماناً ، وماهو بإيمان اذا كان لايجتنبها ، واذا كان يشارك المشركين ويشابههم فى اضطهاد الحق طمعاً فى مغنم أو دعة أو صداقة أو زلفى ، فيعادى الصدق فى القول والعمل والعدل فيهما أيضاً ، ويعادى الوفاء ومكارم الأخلاق ، وهو اذا عاداها كان معادياً للحق الذى جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو المعنى الأول الذى نعتبر به فى احياء ذكرى الهجرة النبوية ؛ والمعنى الثانى متصل به وهو قوة وعماد نصر ، وهو الاعتماد على الله كما فى الآية الكريمة التى وردت فى حديث الهجرة : (ان الله معنا)

كنت فى بعض الأحايين أزور صديقاً لى من عادته اذا اتخذ شعاراً أن يكتبه فى لوح كبير ويضعه أمامه ويذكر نفسه به ، وكنت أرى على جدران منزله هذه الآية الكريمة مكتوبة بخط جميل فى لوح كبير ، وكان كلما دهمه أمر وكربه خطب وأحس أنه لا يكاد يقوى على احتماله ينظر الى هذه الآية الكريمة فيقوى بها على المصائب ، وكانت له عوناً كبيراً فى الحياة ؛ وهذا من فضل احياء ذكرى الهجرة النبوية ، ومن فضل الائتمام بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وطوبى لمن يستطيع مهما نالت منه المصائب أن يقول : (إن الله معنا) ، وطوبى لمن روض نفسه على الحق والعــدل والصدق فى القول والعمل ، وتنزه عن روح الاشراك ومعناه كما يتنزه عن لفظه واسمه ، وجعل عظات الهجرة شعاراً له فى كل أمر من أمور الحياة ؛ بل طوبى للانسانية لو أن كل انسان أخذ بروح من تلك العظات ولم يجعل الغيرة على الحق والعدل حبائل كسب لا حقيقة لها فى نفســه ، ولم يجعــل الفروض الخلقية مسميات يتباهى بترديدها . لقد حدثت نفسى فقلت ماذا كان يكون لو أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رجع الى هذه الحياة الدنيا كى يرى روح الحق الذى جاء به ، ولكى يقيم الحجة على الناس . هب أنه لم يذكر لهم اسمه وشاء أن يعرف كيف يلقون الحق فى شخصه من غير أن يعرفهم بنفسه . إنهم كانوا يرون رجلاً دأبه الحق والصدق والقصد والعدل فى القول والعمل ، وأنهم كانوا يرون رجلاً يطلب منهم كل هــذه الصفات فى أمور حياتهم وهو مطلب يثقل على نفوس الناس ، وهم دنيويون يريدون من الصــفات ما شابهها فى المظهر وخالفها فى الحقيقة ، ويريدون المكسب والجاه من أى وجه وبأية وسيلة ، فاذا كانوا يصنعون لو أنهم لم يعرفوا أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى يريد منهم روح الحق . أكبر الظن أن مأساة اضطهاد الأولين له كانت تتجدد ، وأكبر الظن أننا كنا نرى هجرة ثانية مثــل الهجرة الأولى ، ولكنها ليست هجرة على التخصيص من مكة الى يثرب

عبد الرحمن شكرى

مصر تحمى الاسلام والمدنية
فى عين جالوت

للاستاذ محمد فريد أبو حديد



استهل القرن السابع الهجرى (وذلك فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى) وقد ترامى الى القاهرة نبأ النضال الدموى الذى ثار فى الشرق فيما بين نهرى سيحون وجيحون بين جنود التتار وبين جنود الملك محمد خوارزم شاه ؛ وكان المسلمون الى ذلك العهد لا يعرفون للتتار دولة ذات خطر ، فانهم انما كانوا يعرفون قوماً من البدو يعيشون فى فيافى الشرق التى تمتد الى أكناف الصين طالما حاربتهم جيوش المسلمين فلم يجدوا فى بلادهم مطمعاً ، اذ كان هؤلاء الحفاة كلما أوقع بهم جند الاسلام وقعة لاذوا بكبد الصحراء يضربون فيها ويمعدون فلا يجد قواد المسلمين لهم مدنا ولا ريفاً ، ولا يستطيعون أن يقبضوا منهم على ناصية . فاذا القرن السابع الهجرى يحمل معه اجتماعا عجيباً لهؤلاء التتار لم يسبق له مثيل الا فى أحوال نادرة ، اذ قد نبغ من بينهم الزعيم الداهية (تيموجين) الذى يعرفه التاريخ باسم (جنكيزخان) ، فوحد لهم دولة وأقام لهم ملكا بعد أحداث يطول بنا وصفها لو تعرضنا لذكرها . وما كان لهذا الحدث أن يكون له ذلك الأثر البالغ فى تاريخ الاسلام والمدنية لولا ما لابسه من ظروف العصر وما كانت عليه حال الدولة الاسلامية المتاخمة للتتار . فلو كانت الدولة الاسلامية فى عصمة هارون أو المأمون ، أو لو كانت فى قيادة المعتصم أو المتوكل ، لما زاد الأمر على قيام دولة تترية تلمع حيناً كما يلمع الشهاب ثم يندثر ، فكانت تجتمع لهم كلمة وينبسط لهم سلطان على من فى فيافى التركستان وما يليها من الكرج والديلم ، ثم تمضى تلك الدولة الناشئة بعد حين كأن لم تكن ، ويسدل عليها التاريخ ستاراً كثيفاً ، وتحجب ذكراها وراء الكثبان المترامية البعيدة

غير أن مجرى التاريخ فى هذه المرة قد اتجه اتجاهاً لا يزال ماثلا فى أذهان الانسانية ؛ وما زالت اصداء اجتماع التتار على زعامة جنكيز تردد الى اليوم فى الأقطار جميعها شرقيها وغربيها ؛ وما زالت آثار ذلك العهد تنعب فوق أطلال بخارى وسمرقند ومرو ، بل ما زالت جاثمة فوق بغداد العظيمة يشهد العالم منها الى اليوم كيف يقوض التخريب أسس المدنية التليدة ، وكيف تذهب كنوز القرون ومخلفات الاجيال على يد الهمجية بين عشية وضحاها . وما اتخذ التاريخ ذلك المجرى الا لسبب واحد ، قد يبدو صغيرا ضئيلا لا خطر له . غير أن أجل حوادث التاريخ طالما نبعت من أمثال هذا السبب الصغير

كان الجزء الشرقى من العالم الاسلامى يئن من حكم طائفة من الأمراء قد وثبوا الى الحكم وهم أشبه شىء بقطاع الطرق يثبون على غنيمة آمنة فى قافلة عزلاء غريرة . وانك اذا تدبرت الأمر كله فى تاريخ الاسلام لم تجد نكبة أصابت المسلمين الا كانت آتية من مثل هؤلاء الأمراء المفسدين . تراهم وقد حكموا البلاد لكى يبتزوا ثروتها لا لكى يقوموا بواجب الحكم فيها ، وتراهم يبطشون بالناس بطش الأسد بالصيد لا يعاقبون أحداً لأنه أساء ، بل لأنه تنفس بكلمة حق ، أو فرج عن نفسه بأنة مصدور . وتراهم قد أحاطوا أنفسهم بشراذم من جنود مرتزقة ، لاهم لها الا أن تشترك فى الغنيمة ، فهى تساعد الطغيان على أن يطغى ، وتشترك معه بأن تستعلى فى الأرض وتطغى ، وهؤلاء الملوك وأولئك الجنود لا حد لاستعلائهم مادامت مسألة الحكم مقصورة على ضبط الرعية العزلاء ؛ فاذا ما جد الجد ، واحتاج الأمر الى الحماة كانوا أحرص الناس على الحياة ، وأخوفهم من التعرض لبلاء الجهاد ومحنة الجلاد

ولقد كان محمد شاه خوارزم أحد هؤلاء الطغاة المستكبرين الضعفاء . فلقد كان أشد الناس بطشاً وأحدهم شوكة فى سيرته

مع الأفراد والضعفاء ، وكان من أحرص الأمراء على الثروة والسلطان ما دام لا يمانع الا شعبه المسكين ، فقد سلط عليـــه طوائف أعوانه فكسروا أنوفه ، وخضدوا شوكته ، وأذلوا نفوسه ؛ وقد أراد القضاء أن يتعدى أذاه الى طائفة من تجار التتار كانوا قد جاءوا الى بلاده مسالمين فى تجارة فأوقع بهم ونهب متاعهم ،فاستجار هؤلاء بصاحبهم ، وكان عند ذلك (جنكيز) ، فرأى من واجبه أن ينصرهم ، فبدأ من ذلك الاصطدام الذى أعقب الدمار والبلاء ببلاد المسلمين

لم يشهد التاريخ مثل ذلك الصراع الذى بدأ عنـد ذاك بين التتار والمسلمين . فتيار أتىّ من جموع الهمج يصدم هيكل الدولة القديمة المبجلة ، فاذا بذلك الهيكل يتصدع عند اللمس وينهار بعد قليل . حتى أن التتار أنفسهم ترددوا حيناً ووقفوا مبهوتين لا يكادون يصدقون أنهم قد هدموا ذلك الهيكل الهائل ، ولكن الهيكل لم يكن سوى جدار أجوف قد نخره الظلم واستل منه الحيـاة

لم يثبت الأمراء الطغاة الا مقدار لطمة قصيرة المدة ثم عرفوا أنهم لا يستطيعون أن يرعبوا عدوهم كما كانوا يرعبون رعيتهم ، ولن يقدروا على تحطيمه كما كانوا يحطمون أهل بلادهم ، ومنذ تحققوا ذلك طارت نفوسهم خوفاً ، وغلب الحرص كل غرائزهم فقلبوا الفكر فى مصيرهم ، وعرضوا ما كان منهم وما يكون . أتذهب عنهم أموالهم ، ويضيع سلطانهم ، ويضطرون الى مقاساة الأهوال فى الدفاع والنضال ؟ أيقاسمون اليوم رعيتهم ضيق الحياة وضنك العيش فى القتال ؟ أينزلون عن السعة والعزة والمنعة فى سبيل دفاع المستميت ؟ أيمدون أيديهم الى الرعية أن هلمى الى صف واحد نبذل فيه الحياة معا فنحيا كراما أو نموت وقد أعذرنا ؟ ثم جالت بخيالهم ذكريات ما سبق لهم أن أجرموا ، وما كان لهم فى الحكم من سيئات ، وعادوا الى أنفسهم يسائلونها : أيستطيعون اليوم أن يقفوا مع الرعية كتفا الى كتف ؟ وهل يجدون من أنفسهم الجرأة على أن يخاطبوها خطاب الأنداد الأكفاء ؟ أيستطيعون أن يستنهضوها لبذل المال والنفس فى سبيل الخلاص من العدو المخيف ؟ وهل يستطيعون أن يخيفوا الناس من عدوهم المقبل وقد كانوا بالأمس لا يجندون الجنود الا لكى يحكموهم بالقسر والعسف ؟ جالت هذه الأفكار فى رؤوسهم وهم مترددون بين الثبات والانهزام ، وبين النضال والهرب فخذلتهم قلوبهم اذ رأوا أن الرعية التى آذوها بالأمس لن تجيب نداءهم لو نادوا ، ولن تخلص لهم اليوم بعد ما نالها من شرهم وطغيانهم ؛ ولئن أجابت الرعية وتناست كل ما كان ، أبقيت فيها بقية للنضال ؟ ان ظلم القرون اذا أفلح فى ازالة القلوب الحرة الأدبية التى تنفر من الظلم ، وتأبى الاستعباد ، فقد أفلح كذلك فى اماتة الرجُولة والنخوة ، وأحال الناس الى أشباح مرتعدة خوارة لا تستطيع شيئا فى الدفاع ولا تغنى غناء فى النضال . فلن يستطيع شعب أذهب الطغيان إباءه وعصف بنخوته أن يصمد فى نضال البقاء فى الحياة

ولم يستطع محمد شاه خوارزم عند ذلك الا أن يعمد للهروب بمـا استطاع استخلاصه من أمواله وذخائره التى استلها من دماء رعاياه وابتزها من عرق كدهم ، ودموع أعينهم ، ورجفة العراة منهم والجائعين ، وبقى الناس بعد أن هرب ذلك الطاغى وهم كالغنم المبعثرة اذا دهمتها الذئاب ، وقد هرب عنها الرعاة الجبناء . فلنسدل الستار عن نضال غير متعادل بين الشاة والذئب ، ولنغمض العين عن منظر شعب من شيوخ أهل علم ، وشبان أهل تجارة ، وكهول أهل صناعة ، ومن عمال فقراء لا يملكون ما يسدون به الرمق وزراع لا دراية لهم بشىء بعد المحراث والفأس ، وهم يخرجون ألوفا الى خارج المدن والقرى ، لا يدرون كيف يفعلون ، ولا أنى يتجهون ، فلا تكون الا ساعات حتى يحصدهم العدو حصداً ، أو يحصد بعضهم بعضا فى فزع حرب لاعهد لهم بها . لابل إنهم كانوا يستسلمون كما يستسلم الدجاج ليذبح واحدة بعد واحدة ، وهى تستسلم للهلاك خوفا من رهبة الدفاع عن أنفسها

لقد سلبهم الطغاة ما كان فيهم من رجولة بالعسف المتواصل جيلاً بعد جيل ، وبالخنوع والاذلال يتوارثونه ابنا عن أب عن جد . ألا فليحمل الطغاة وزر هذه المخازى ، ولتلطخ ذكراهم باثم هذه المجازر لا براءة لأحد منهم منذ بدأ الحجاج جريمته فى تذليل الأمة الاسلامية لحكم الطغيان . وترامت أنباء هذه المجازر الى مصر فلم تجد من نفسها فراغاً الى أن تملأ آذانها بها اذ كانت

تناضل نضال الأبطال فى دفاع الصليبيين عن أرضها . اذ بينا كانت مذابح التتار تفتك بالمسلمين فيما بين نهرى سيحون وجيحون ، كان الصليبيون يفدون ألوفاً مؤلفة الى شواطئ مصر يريدون أن يرموا بفتحها قلب دولة الاسلام . وكان بمصر بقية الدولة الأيوبية ، فكان ملوكها يردون من ذلك الفتح موجة بعد موجة ، فالملك الكامل يدفع حملة دمياط الأولى ، والملك الصالح يقف لجيش فرنسا وحلفائها ويموت وهو فى ميدان الحرب فيخلفه ابنه الملك طوران شاه فيقضى على جيش لويس التاسع ، ويتم الفتح بأسر الملك الصليبي المتحمس . وهكذا علمت مصر دول أوربا أنها لن تكون هينة فى النضال اذا شاءوا نضالاً

ولما تنفست مصر من حملات الصليبيين راعها ما سمعت من دوى التخريب فى مدن الشرق ، وكان قد علا وصار مرعباً فظيعاً . وكان أعلى ذلك الدوى ما جاء من بغداد اذ فتح هولاكو عاصمة الخلافة وألحقها بالخراب الذى خلفه جده بين سيحون وجيحون ، وسمع من بمصر أن خزائن العلم وآثار المدنية فى دار السلام قد صارت كلها أثراً بعد عين ، وأن دولة الاسلام العظيمة قد تحطمت وانهارت كأنها لم تكن من قبل ملاذ الحضارة والفن والعز منذ قرون . فاختلط فى نفسها الحزن على مجد الاسلام الضائع والخوف من أن ينالها من ذلك التيار المدمر ما نال سائر معاقل الاسلام

واندفع التيار المدمر بعد اجتياح بغداد فسار فى سبيله الى الغرب حتى بلغ الشام ، وكانت قلاعها عند ذلك عواصم الحدود للدولة المصرية الكبرى التى ورثت دولة بنى أيوب وهى دولة الأتراك المماليك

وكان صدى أنباء تلك الغارة فى مصر غير صداها فى سائر الأقطار ، فان صوت التتار الذى أفزع العالم الاسلامى فأخرجه عن رشده وأفقده ارادته وجعل أهله يستسلمون للموت لا يكادون يحركون يداً ، لم يزد على أنه أثار حفيظة أهل مصر ، وحملهم على الاستعداد للنضال . وذلك أن مصر لم تكن كسائر البلاد الاسلامية فانها لم تفقد كرامتها ولا رجولتها . ولم تنس معنى العزة والاباء . حقا لقد كان يحكمها أمراء من الترك ، وكان قبل ذلك يحكمها بنو أيوب والفاطميون وغيرهم ، ولكن هؤلاء لم يكونوا فى يوم من الأيام الا حكاما يقومون بخدمة الجماعة . ولم تزل مصر على توالى المحن عليها سيدة أمرها والمسيطرة على قانونها وحقوقها . ولو كان الأمر عند ذلك أمر جيش وسلطان لانتهى النضال على ما انتهى اليه نضال ملوك الشرق وجيوشهم ؛ فنضال مصر مع التتار كان نضال أمة بأسرها محسة بوجودها ، شاعرة بما يجب عليها أن تبذله وأن تدبره ؛ وان شئت مصداق ذلك فها هو ذا وصف مجلس حربى اجتمع عند ذلك لينظر فى أمر التتار والاستعداد لملاقاتهم

كان فى ذلك المجلس ممثلو الشعب المصرى وأهل الرأى فيه من مشايخ العلماء وأئمة القانون . كما كان فيه كبار الامراء والحكام والأعيان . وكان سلطان الوقت شابا غرا جاهلا وهو على بن معز الدين أيبك . فتذاكر المجلس غارة العدو وما تحتاج اليه البلاد من وسائل الدفاع من مال وجند ، وما لا بد من بذله من مجهود جامع شامل ، فكان أول ما نظروا فيه أن تساءلوا : هل السلطان للبلاد أم هى البلاد التى للسلطان ؟ وهل يليق بنا فى مثل هذا الوقت أن نقيم شابا غراً جاهلاً يتصرف فى شؤون الدولة لا لشىء الا لأنه ابن للسلطان الذى حكم من قبل ؟ ولم تطل بهم المناقشة فى ذلك فاختاروا رجلاً من أكبر قواد العصر فأقاموه سلطانا بدل ذلك الصبى الصغير ودلوا بذلك على أن نظر مصر انما هو لمصالح الدولة ، وانها انما تختار حكامها ليقوموا بواجبهم لها لا ليكونوا سادة متحكمين فيها . ثم نظروا بعد ذلك فيما يجب جمعه من المال للاستعداد للحرب ، فلنسمع الآن قول أحد مشايخ مصر وهو الشيخ عز الدين ابن عبد السلام لنعلم منه كيف كان يخاطب نواب المصريين قادة الحرب فى بلادهم ، وهل كانوا يرونهم سادة أم خداما : قام ذلك الشيخ الجليل عند ذلك فقال شيئا مثل هذا : « لقد جئتم أيها القواد والأمراء من بلادكم جنوداً صغاراً لا تملكون شيئاً ، بل كنتم مملوكين أرقاء . ولقد صارت لكم أموال وعقارات ، وأصبحت فى أيديكم النعم الجزيلة والخيول المطهمة ، والجواهر والحلى التى لا يستطاع تقدير قيمتها . فهلمو فابذلوا كل ما عندكم من تلك الأموال حتى اذا ما صرتم كالناس لا تملكون الا ما يملكه أوساطهم ، كان الواجب على الأمة أن تبذل كل ما تملك فى سبيل الجهاد من ورائكم . وليست العامة بمعزل عن الحرب

ولا هى مترددة فى خوض غمـاره . فهلموا ! اسألوا سهول فارسكور عن الألوف من أهل الريف الذين حاربوا الفرنج ، وأبلوا فى حربهم أحسن البلاء . وهلموا فنادوا أن النفير عام تجدوا الناس جميعا عند ندائكم مسارعين الى الجهاد والنضال »

ولقد انفض ذلك المجلس على اتفاق وثيق ، فخلع السلطان على ونودى بالسلطان الجديد : الملك المظفر قطز ، ونودى على الناس جميعا أن النفير عام الى الغزو فى سبيل الله

وهكذا كانت الحركة حركة بمصر ، والجهـــاد جهادها لا جهاد أمرائها

وخرج السلطان بموكبه فى أواخر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وبلغ الشـام فى رمضان ونزل على جانب الأردن فى أواخر شهر الصيام

وكان الى جانب وهدة الأردن واد من الوديان الـكثيرة التى تهبط من جبال فلسطين أو تلالها ، تخرج فيه عين من مرتفع لا تزيد علوه على مائتى متر وتسمى عين جالوت ، وذلك الوادى على مقربة من بيسان التى اشتهرت بابنها النجيب القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى . وقد اجتمع جند مصر عند ذلك الوادى ، آتيا من علايات فلسطين . وكان جند التتار قد توافوا فى وهدته آتين من دمشق بعد أن جروا عليها ذيل تخريبهم وتدميرهم

وجال التتار فى السهل وهم يتضاحكون ويمرحون ، ينظرون الى جنـود مصر بلباسهم الزاهى ، وسلاحهم الثمين ، وحليتهم الرائعة ، ولعلهم كانوا اذ ذاك يقول بعضهـم لبعض : ها هى ذى غنيمة لم يسبق لنا عهد بمثلها ، ولا عجب فهى كنوز مصر

واجتمع جنـد مصر من أتراك وعرب ، وبرزوا على عادتهم صفوفا من الفرسان لا تكاد ترى فيها ميلا ولا عوجا ، كل فارس منهم على فرسه كالجبل الراسى اذا تحرك ، فكأنما ارادة واحدة تتحرك ، فالفرسان اذا تحركت فهى خيل مقبلة ، والخيل اذا أقبلت فهى فرسان مواجهة ، وانتظم السلك فاذا الجيش سلسـلة تطوق جوانب الوادى ، أعلاها نحاس براق وحديد صقيل ، وأسفلها حوافر الخيل المتوثبة تضرب الأرض وهى قلقة الى النضال ؛ ثم دقت الـكؤوس ، وأمر القائد بالهجوم ، فاذا بهذه السلسلة المستوية تنحدر الى الوادى صاخبة داوية راعدة ، ولـكنها مع ذلك متماسكة مستوية حتى بلغت الجانب الآخر من الوادى ، وكانت جموع التتار عنده تنتظر الهجوم لتجد عنده النصر الذى اعتادته فى مصافها ؛ واهتزت صفوف السلسلة المستوية عند الاصطدام كما تهتز الاسطوانة الطاحنة اذا صدمها حجر صلد ؛ غير أنها لم تقف وأبطأ سيرها وخفت جريتها ؛ ولـكنها لم تنشعب ولم ترتد

وعلت قعقعة الحديد ، واختلطت ضجة الأصوات ، وارتمى البعض عن البعض ، وتدحرجت الأجزاء عن الأجزاء

وكانت ساعة تشيب لهولها الولدان ؛ ثم ازدادت سرعة السلسلة كأنها قد اجتاحت العقبة التى عاقت سبيلها ؛ واندفع جيش مصر مرة أخرى وراء فلول منهزمة من التتار تجرى فزعة فى غير نظام نحو بيسان فى أسفل الوادى

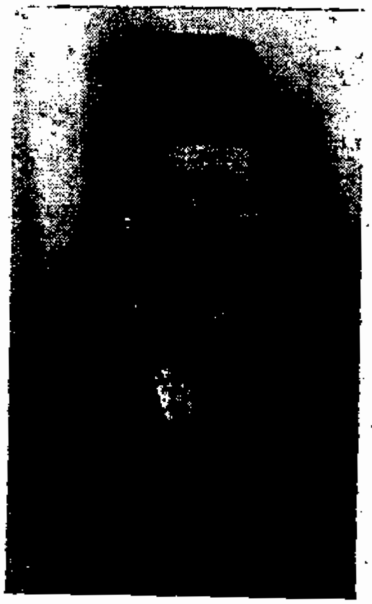
فلقد حطمت الجيوش المصرية جموع التتار المخيفة لأول مرة فى تاريخها منذ خرجت على العالم تذيقه العذاب والوبال ؛ وكانت وقفة مصر فى عين جالوت حماية للاسلام والمدنية والانسانية

محمد فريد أبو حديد

ام الجديد :

آمال وآلام

للاستاذ محمود غنيم



ْ الفضـاء بنورك المُتجدِّدِ ياليت شِعرى ما تُخَبِّئه فى غدِ
د مضى عامٌ عرفتُ صروفَه وعَييتُ بالغيب الذى لم يُوجَد
ـدُوا النجومَ ورحتُ أرصُـد شيخها
شيخَ النجوم الزهرِ علَّك مُرْشِـدى
ن الظلام أماتعبتَ من السُّرى أبداً تروحُ على الأنام وتغتدى
يبتَ ناصيةَ القرونِ ولم تزل طفلاً تُطالعُنا بوجـــهٍ أمردِ
ضى الحياةُ فلا تعودُ إذا مضت وأراك تختتم الحيـاة وتبتدى
ـتَامَ تضربُ فى الدياجى هائماً تهدى الأنامَ ولا إخالُكَ تهتدى
قدَ الأنامُ خليُّهم وشـجيُّهم وظلِلْت وحدك ساهراً لم ترقد
ولقد حسبتُكَ بالسلام مبشِّراً فبرزتَ مثـل الخنجر المتجرِّد
الشرق مُضـطرِمُ الجوانح ثائرٌ والغربُ يهدِر كالخضمِّ المزبد
إنى أرى ناراً أُعِدَّ هشـيمُها وثقابُهـــا لـكنها لم تُوقد

* * *

ـعامٌ وآخرُ مقبـــلٌ ومودعٌ شيَّعتُ نعشاً واحتلفتُ بمولِدِ
ولىَّ القديمُ فما ظفرتُ بطائلٍ وأتى الجديدُ فهل تُرى هو مُسعدى
ولقد تشابهت الســنونَ كأننى ما عشتُ عمرى غيرَ عامٍ مفرد
قالوا عجبنا مالشــعرك نائحاً فى العيد ماهـذا بشَدْوِ معيِّد
ما حيلةُ العصفور قصُّوا ريشه ورَمَوْهُ فى قفصٍ وقالوا غرِّد

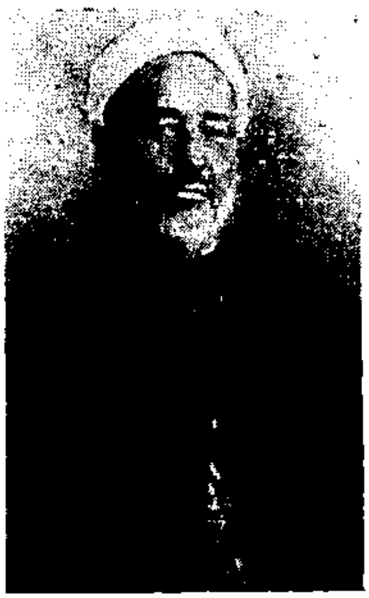
* * *

ياليت شـعرى يا هلالُ أعائدٌ للمسلمين بنصر دين محمد
أتعيدُ للجُمُعات سابق عهـدها أتعيـد للاسلام مجد المسجد
أدركتَ عهدَ الراشدين «بيثرب» وحسدتها بين النجوم الحسَّد
وشهدتَ دولة «عبدشمس» حينما بلغ « الوليدُ » بها عنان الفرقد
ولقد طلعتَ على بنى العبَّاس إذْ جلس «الرشيدُ» مع السُّهافى مُقعد
لهفى عليها دولةً قد أوشكت تمتـــدُّ حتى ساحِل المتجمِّد
للشرق ماضٍ كلَّما عرضت له ذكراهُ يزفر زفرةَ المتنهِّد
الشرق يأمُل أن تحلَّ وثاقه جرت الشعوب وسار سير المقعد
لهفى عليه منسَّـــبًا لم يجْدِهِ طيبُ النجار ولا كريمُ المحتِـد
بتنا نعيش على حساب جدودنا هيهات ليس الحرُّ كالمستعْبَد
أين الجبالُ من التلال أو الربى أين القويُّ من الضعيفِ القُعْدَد
لا القوم منِّى لا ولا أنا منهمُو إن لم أُقْفُهُمْ فى العلا والسؤدد
كان الجدودُ لهم شرًى يأوُونَهُ ولنا وكورٌ من يَرِدْها يَصْطَد
كانوا مغاوِرَ يعتدون على الورى فإذا بنوهم عرضةٌ للمعتـدى
صالوا برمحٍ ذابلٍ ومهنَّدٍ عَضْبٍ ونعجز أن نصولَ بمِبْرد
أين الذى نظم الجيوش ؟ من الذى نظمَ الكلامَ قلائداً من عسجد
قد كان همهم الفتوحُ وهمنا أن نغتذىَ أو نرتوىَ أو نرتدى
إرثٌ على يدنا تبـــدَّد شملُهُ ياليت هـذا الإرثَ لم يتبدَّد
يا من رأى أرضاً أُبيحَ حرامُها بالأمس كانت فى قداسَةِ مَعْبَدَ
أُممٌ تباعُ وتُشترى فى السوق مِنْ يَدِ سـيِّدٍ تمضى إلى يد سيد
الحرب حولَ الشرق شبَّ أُوارُها والشرق يرقبُ من يَقُدُّهُ ينقد
مالى أرى الشرقَ المهيضَ جناحُه رغم اتحاد الهم غيرَ موحَّد
وإذا تفرقت الشـعوب مواقعاً وتقاربت غاياتها لم تبعـــد
ولقد تهانَ أمامنا جاراتُنا وشكاتهنَّ تُذيب قلبَ الجَلْمَد

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

هجرة الرســـل

للاستاذ عبد الوهاب النجار



لقد قتل الناس مسألة الهجرة النبوية بحثاً وغاصوا في أعماقها ، ولم يتركوا زاوية من زواياها الا أخرجوا خباياها ؛ فأنا لا أريد أن أكتب على غرار ما كتب من قبل فأعيد ما بدأه غيري وأنا مولع بمعاداة المعادات

والذي أريد أن أكتب هو هجرة الأنبياء الذين عبروا قبل رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأنه ليس بدعا من الرسل عليهم الصلاة والسلام

أول الرسل الكرام هجرة هو نوح عليه السلام فكانت هجرته حياة له وهلاكا لأعدائه

دعا نوح قومه الى عبادة الله تعالى وترك عبادة غيره من الأصنام والأوثان وصار يغاديهم بالنصح ويراوحهم بالعظات ألف سنة الا خمسين ، وهم لا يزدادون منه الا بعداً ونفوراً الى أن ضاق صدره بما يلاقي منهم ، ولم يجد باباً لهدايتهم الا طرقه ، ولا منفذاً لنصحهم الا قصده ، ولم يجد قومه باباً للنكاية به الا ولجوه ، ولا منفذاً لأغاظته الا سلكوه . فتراهم يقولون له : (ما نراك الا بشراً مثلنا ؛ وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ؛ وما نرى لكم علينا من فضل ؛ بل نظنكم كاذبين) فهم يرون أن الرسالة لا تكون للبشر بل للملائكة ، والهداية لا يمكن أن ينالها الفقراء وذوو الأعواز ، ولكنها وقف على ذوى الوجاهة والقوة ، وأن الذى يريد الله أن يصطفيه إنما يكون من أهل الثراء والغنى ، ولقد رد عليهم نوح بقوله : إنه لا يسألهم على الهداية التى يزفها اليهم أجراً . فهو لا يجر بذلك لنفسه نفعاً ولا يحوز مالاً ، وانما يريد أجره من الله ، ولم يقل لهم إن عنده خزائن الله ليس عنده شيء من علم الغيب ، ولم يقل لهم إنه ملك ، ولا يقول للذين تزدرى أعينهم من أتباعه لن يؤتيهم الله خيراً وهو الهدى والاستقامة على الجادة ، وأن علم ما فى أنفسهم عند الله لا عنده الى أن ضاق بالقوم وضاقوا به . فقالوا له ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، ودعا نوح عليهم فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجراً كفاراً » فأنبأه الله أن العذاب سيحل بهم ، وأمره ألا يخاطبه فيهم وأنهم مغرقون . وأوحى اليه أن يصنع الفلك لينجو بها من العذاب النازل بهم وليهاجر بها عنهم

صنع نوح الفلك وكان قومه يسخرون منه وهو يسخر منهم لغفلتهم عن أنفسهم وتفريطهم فى حياتهم وغيرهم بعدم اتباعه الى أن جاء أمر الله وفار التنور ، وتفجرت ينابيع الأرض ، وحلت عزاليها السماء ، وجاء الطوفان وأبادهم بعد أن نزل نوح والذين آمنوا معه فى السفينة ، وسلك فيها زوجين اثنين من كل ذى حياة ، وانتهت هجرته من الأرض بعد سنة وعشرة أيام بعد أن استقرت السفينة على الجودى . فكانت هجرته ميمونة عليه وعلى من معه فى السفينة وهلاكا لأعدائه

فترى ونسمعُ صامتين كأننا ... لم نَستمعْ وكأننا لم نشهد
فإذا تحمسنا مَددْنا نحوَهمْ ... كفَّ الدعاء وغيرها لم نَمْدُد
عذراً بنى أعمامنا ! أغلالنا ... قعدتْ بنا عن نجدة المستنجد
أعْززْ علينا أن نرى جيراننَا ... يتَخطَّفون ونحن مكتوفو اليد

* * *

من لى بجيل مستجدٍّ لم يرثْ ... إلا عنِ الجدِّ القديم الأبعد
يرثُ «ابنَ هندٍ» فى أصالة رأيه ... أو « خالداً » فى عزمه المتوقِّد
لم يعتقد الضيمَ الذى نعتادُهُ ... أهْوِنْ بكلِّ أذًى على المتعوِّد
إنْ قام يثبتُ حقَّه فدليلُه ... قصفُ المدافع أو صليلُ مهنَّد
لا خيرَ فى حقٍّ يقالُ ومنطقٍ ... عذبٍ بحدِّ السيف غيرِ مؤيَّد
جيلٌ إذا سِيمَ الهوانَ أبَى وإن ... يطلبْ إليه البذلُ لم يتردَّد
يهوى الحياةَ طليقةً ويعافُها ... ذلاً ويُدعى للفداء فيفتدى

كوم حماده — محمود غنيم

لوط عليه السلام

آمن بعمه ابراهيم واستجاب الى عبادة الله تعالى وهاجر مع عمه ابراهيم كما قال تعالى : « فآمن له لوط وقال إني مهاجر الى ربي » وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن عثمان حين هاجر الى الحبشة ومعه زوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أول مهاجر الى الله بأهله بعد لوط عثمان بن عفان

يعقوب عليه السلام

كان بينه وبين أخيه عيسو شيء من الخلاف ، فهاجر الى بلاد ما بين النهرين عند خاله لابان ، ومكث عند خاله يرعى عليه غنمه ، وتزوج من ابنتيه ليئة وراحيل ، ومن جاريتيهما زلفى وبلها ، ورزق منهن أولاده جميعا ، وكانت هجرته خيراً وبركة عليه ، فقد صار رب أسرة عظيمة كثيرة العدد ، وأموال وماشية كثيرة وعاد الى فلسطين بعد ذلك ، وولد له في هجرته جميع أولاده الا بنيامين

يوسف عليه السلام

هاجر مرغما حين ألقاه اخوته في غيابة الجب ، ثم التقطه بعض السيارة وأسروه بضاعة وباعوه في مصر بثمن بخس ، واشتراه عزيز مصر أو رئيس الشرطة بعاصمة الديار المصرية ، وهي مدينة صان في الشرقية ، ثم امتحن بامرأة العزيز التي راودته عن نفسه فاستعصم ، ثم بهتته في وجهه واتهمته بأنه راودها عن نفسه « وشهد شاهد من أهلها ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال » العزيز لها : « انه من كيدكن ؛ ان كيدكن عظيم » ، والتفت الى يوسف وقال له : « يوسف أعرض عن هـذا » ، والتفت الى زوجه وقال : « استغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين — الى أن بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » ، وفي السجن ظهرت آيات فضله ، وفسر لساقي الملك وخبازه منامهما ، وأوصى الذي ظن أنه ناج منهما أن يذكره عند ربه الملك فأنساه الشيطان ذكر ربه ، فلبث في السجن بضع سنين الى أن رأى الملك سبع بقرات سمان حسان يأكلهن سبع بقرات عجاف مهزولة ، وسبع سنبلات خضر غلبتهن سبع سنابل يابسات ، وحار العلماء والسحرة والعرافون في تفسير ذلك المنام فذكر الذي نجا من الفتيين شأن يوسف وتفسيره للمنام ؛ فاستأذن الملك وأتى الى يوسف واستفتاه فيما رآه الملك . ففسر له الرؤيا على وجهها ، وجاء الساقي وقص القصص على الملك ، وكان ما كان ، الى أن اصطفاه الملك لنفسه ، وجعله على خزائن الأرض ، ودبر أمر مصر الى أن جاء سبع سنوات مخصبة خزن فيها مازاد على الحاجة ؛ ثم جاء السنين المجدبة ففتح مخازن الادخار ، وأطعم الناس ، وجاء اخوته فداعبهم ودبر عليهم تدبيراً حتى جاءوه بأخيه بنيامين ، ثم عرفهم بنفسه وقال : « ائتوني بأهلكم أجمعين » فكانت هجرته القسرية وتغربه خيراً عليه وعلى أهله وعلى الناس أجمعين ؛ ولولا تدبير الله له وتدبيره لأمر الأغذية لهلك الناس

موسى عليه السلام — وهجرته

لا نريد أن نتكلم عن أولية موسى عليه السلام . وانما نقول إنه نشأ في بيت فرعون عزيز الجانب ؛ ولما بلغ مبلغ الرجال لم يخف عليه أنه دخيل في ذلك البيت وأنه من العنصر العبراني ؛ وعرف العبرانيون ذلك فاستعزوا به وانتفعوا بجاهه

وسار في المدينة يوماً على حين غفلة من أهلها فوجد رجلين يقتتلان أحدهما عبراني من شيعة موسى والثاني قبطي من عدوه ، فاستغاثه العبراني على القبطي ، فأغاثه موسى وعمد الى القبطي فوكزه فقضى عليه ، وهو لم يرد قتله ، وانما أراد كف عاديته عن العبراني ، ولن يؤخر الله نفساً اذا جاء أجلها

لم يشاهد أحد هـذه الحادثة سوى العبراني . وعاد موسى باللائمة على نفسه وقطع على نفسه عهداً ألا يكون ظهيراً للمجرمين

ظهر أمر القبطي ولم يعلم قاتله . فلما كان اليوم الثاني خرج موسى في مثل ذلك الوقت فوجد ذلك العبراني بنفسه في معركة مع قبطي آخر يريد أن يسخره وهو يأبى ، فاستغاثه كما استغاثه بالأمس فقال له موسى انك لغوي مبين . وأراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما ويكف عاديته عنه . فظن العبراني أنه اياه أراد . فقال له : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ان تريد

إلا أن تكون جباراً فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وصالح القبطى واتخذ موسى خصما

حينئذ ظهر قاتل القبطى وهو موسى وانتهى الخبر الى فرعون فاجتمع ملأ فرعون وقومه على قتل موسى . فجاء اليه رجل من آل فرعون من أقصى المدينة يسعى وقال له إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، ونصح له بالخروج لينجو بنفسه فخرج من المدينة خائفاً يترقب قائلاً رب نجنى من القوم الظالمين

ولى وجهه شطر مَدْين على خليج العقبة . ولعلها كانت أقرب بلاد يجد فيها مأمنه لخروجها عن قبضة الحكومة المصرية — ولما كان خروجه على عجل لم يترو فى الأمر ولم يأخذ معه زاداً ولا ما يساعده على قطع المسافة من مطية ولا رفقة له فى هذا السفر الشاق ولا دليل لأنه انما يريد أن ينجو بخيط رقبته . فلما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . فحقق الله تعالى أمنيته وبلغ ماء مدين بعد الجهد الشديد والجوع المضنى فوجد على الماء أمة من الناس يسقون ووجد امرأتين تذودان غنمهما عن الحوض ، فلم يعجبه أن يتقدم أولو القوة ويتأخر المرأتان فسألهما عن شأنهما . فقالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء لأننا ليس بنا قوة على التقدم والمزاحمة ، وأبونا شيخ كبير لا يقدر على رعى ماشيته ولا سقيها . فنحى الرعاء بما بقى له من فضل قوة وسقى لهما ثم تولى الى الظل يشكو الى الله حاجته الى القوت وما به من مخمصة قائلاً : (رب إنى لما أنزلت الى من خير فقير)

أراد الله أن يكافئ موسى جزاء توكله عليه وفعله الخير ابتغاء وجه ربه فلم يلبث أن جاءته احدى المرأتين تمشى على استحياء حتى وقفت عليه وقالت له فى خفر : (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا)

لبى موسى الدعوة ؛ وجاء الى أبيها الشيخ وقص عليه قصصه . فقال له الشيخ لا تخف نجوت من القوم الظالمين

أرادت احدى بنتى الشيخ أن يقوم موسى عنهما برعى الماشية لأنه أقدر على ذلك لما رأته من قوته فى النزع بالدلو وأمانته اذ أخرها وقال لها اسى ورائى وانعتى لى الطريق ؛ فقالت لأبيها (يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين)

نشط الشيخ لما أشارت به ابنته ، وطلب الى موسى أن يستأجره ثمانى حجج على أن يزوجه من احدى ابنتيه ؛ فاذا رضى أن يتم الثمانى عشرا كان ذلك على أن يكون بالخيار فى قضاء أحد الأجلين

تقول التوراة إنه بقى عنده الى أن كانت سنه ثمانين سنة ؛ والقرآن الكريم ليس فيه تحديد قاطع فى المدة التى أقامها

والمهم فى الأمر أنه لما قضى الأجل وصار حرا صادفه أن أبعد فى الرعى وضل الطريق فى ليلة مظلمة باردة ؛ وحاول أن يقدح نارا فصلد زنده ولم يور نارا ؛ وبعد لأى (آنس من جانب الطور نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو أجد على النار هدى) . فلما جاء الى النار نودى (يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالوادى المقدس طوى ؛ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) وبعد حوار أرسله الله نذيرا الى فرعون وملئه لاخراج بنى اسرائيل ؛ فكان ما كان مما قصه القرآن من شأنه مع فرعون وشأنه مع بنى اسرائيل ؛ فكانت هجرته خيرا وبركة عليه وعلى بنى اسرائيل ؛ كما أجاب فرعون بقوله (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين)

هجرة داود عليه السلام

هو داود بن يسى من سبط يهوذا . كان له إخوة يحاربون الفلسطينيين مع طالوت الذى هو شاول أول ملك من ملوك بنى اسرائيل . وكان فى الفلسطينيين جندى جبار اسمه جالوت قد هابته الأبطال وتحامت الشجعان لقاءه خوف الهلاك

وكان لداود إخوة فى الحرب ؛ فأرسله أبوه بطعام لاخوته ولينظر حالهم ويعود الى أبيه بما يطمئنه عليهم . فبينا هو سائر الى اخوته نظر فى البرية الى أحجار ملس راقته فوضعها فى كنفه (الكنف كيس الراعى) ولما ذهب الى اخوته والحرب على قدم وساق نظر الى الفلسطينى وهو يعير بنى اسرائيل احجامهم عنه . فاستشاط الفتى داود غضبا وسأل ما الذى يناله من قتل هذا الأغلف الفلسطينى . فأجيب بأن الملك يغنيه ويغدق عليه ويزوجه ابنته ويجعل بيته أكبر بيت فى اسرائيل . فذهب الى الملك واستأذنه فى لقاء جالوت فضن به الملك أن يقتل فى غير فائدة وهو صغير السن لا يقوى عليه . فقال له داود : إن عبدك

(يعني نفسه) قتل أسدا تعرض لغنم أبي وقتل دبا أيضا . فأذن له وأعطاه لأمة حربه فلم يحسن داود المشي فيها فخلعها وذهب الى جالوت بمقلاعه وأحجاره . وقد هزأ منه جالوت ونصحه أن يعود من حيث أتى فلم يفعل ، ووقف قبالته ووضع حجرا من تلك الأحجار في المقلاع رماه به فارتز الحجر في جبهة جالوت وخر لليدين وللفم ، فأخذ داود سيف جالوت وفصل رأسه به وجاء به الى الملك وانهزم الفلسطينيون شر هزيمة

ولكن طالوت ضن على داود بابنته التي وعد أن يزوجها من قاتل جالوت وزوجه من ابنة له أخرى وقدمه على رؤساء جنده

تغير بعد ذلك طالوت لداود وعمل على اهلاكه بيد الأعداء خوفا من أن يوليه بنو اسرائيل الملك ، فكان يكلفه بالقدوم الى الحرب وكان داود يظفر دائما . فعمد الى اهلاكه بنفسه ، ونجا داود منه مرات وهو يتبعه في كل مكان ، وتمكن داود من قتل الملك مرات ولكنه لم يفعل ويخبره بتمكنه من قتله وأنه أبقى عليه ، فيندم الملك ثم يعاوده خوفه على الملك فيطارده الى أن خرج داود من ملك اسرائيل وأقام مع الفلسطينيين برضاء ملكهم الى أن قتل طالوت وابنه . فجاء الى قرية أربع وهي مدينة الخليل وبويع فيها بالملك . وكان لطالوت ولد بويع بالملك أيضا الى أن قتل ابن طالوت الملك وانفرد داود بالملك واشترى قلعة صهيون التي عند باب الخليل وسماها مدينة داود ، ثم اشترى جبل الموريا الذي عليه الحرم القدسي ومدينة أورشليم القديمة المعلومة اليوم بأسوارها وحدودها

وفي أواخر أيام داود نزا على الملك ولده ابشالوم وبايعه العدد العظيم من بني اسرائيل . ورحل داود الى شرق الأردن وجلس ابشالوم على كرسي الملك وحارب أباه فقتل أبشالوم وعاد داود الى مقر ملكه . فهاتان هجرتان لداود وكانت العاقبة له على خصومه فيهما

هجرة المسيح عليه السلام

أما المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فله هجرة ليست كهجرة سائر الأنبياء الذين هاجروا من بلادهم

ذلك أنه لما ولد كان هناك ملك من قبل الرومان أخبر أن ملك اليهود ولد في بيت لحم ، فجد في قتل الأولاد الذين ولدوا في بيت لحم في تلك الأيام . فأمرت مريم بأن تهاجر بابنها ومعها خطيبها يوسف النجار فذهبت الى مصر وأقامت فيها مدة قيل إنها كانت سبع سنين أو أقل ، الى أن أمرت بالرجوع الى فلسطين ، لأن الذي كان يطلب نفس ولدها قد هلك ، فعادت

وهـــذه الهجرة نص عليها في انجيل متى وانجيل برنابا ولا وجود لها في سائر الأناجيل الثلاثة الأخرى المعروفة ؛ فهجرة المسيح كانت تابعة لهجرة أمه خوفاً عليه ولم تكن بارادته

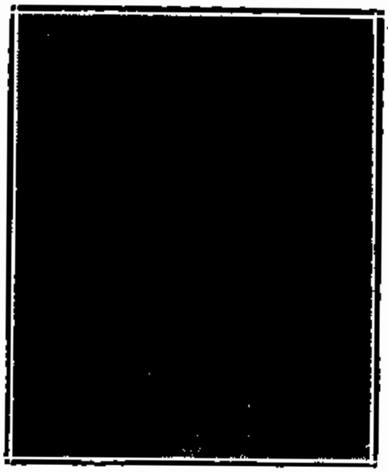
محمد عليه السلام

من ذلك كله نرى أن محمداً لم يكن بدعا من الرسل الذين هاجروا من قبل ، فقد جاهد جهاد الأبطال في اذاعة دعوته بين الناس ، وقد أوذي في الله تعالى هو وأتباعه . حتى اذا لم يبق في قوس تصبرهم منزع سهل الله تعالى اسلام أهل المدينة فأقبلوا على الدين بمحض اختيارهم ، حتى اذا كثروا جاءوا اليـه وبايعوه على النصرة ، فأذن لأصحابه في الهجرة وبقي هو وأبو بكر وعلي والمستضعفون . فلما مكر به كفار مكة ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه وصحت منهم العزيمة على ما بيتوا ، أمره الله تعالى بالهجرة (وكان أبو بكر يعد لها العدة) فامتثل الرسول أمر ربه وآذن أبا بكر بذلك ففرح وحاول أن يدعو صهيب بن سنان للسير معهما فلم يقدر له ذلك ، وخرجا الى غار ثور فأقاما به ثلاثا . وقد جهد كفار قريش في العثور عليهما فصرفهم الله عن ذلك ، وقد كانا منهم قاب قوسين أو أدنى ؛ ثم ذهبا الى المدينة بعد أن هدأ الطلب يدل بهما عبد الله بن اريقط وهو على شركه الى أن وردا قباء ثم المدينـة هاربين بدينهما . فبدل الله خوف رسول الله والمؤمنين أمنا ، ومكن لهم في الأرض ، وأرى كفار قريش منهم ما كانوا يحذرون ، وأتم الله نعمته على أهل الاسلام ، مكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم الى أن مضى رسول الله لسبيله ، وقام خلفاؤه من بعده يحملون عبء تبليغ الرسالة والتمكين للدين ؛ وانتشر الاسلام شرقا وغربا ؛ وكانت الهجرة على رسول الله وعلى أمته خيرا وبركة كما كانت هجرة الأنبياء خيرا وبركة عليهم من قبل ؛ ولله عاقبة الأمور ؛ لا مبدل لكلماته ، ولا معقب لحكمه ؛ وهو العزيز الحكيم

عبد الوهاب النجار

(٥)

الأزهر والحياة الفكرية
فى العصر الفاطمى
للاستاذ محمد عبد الله عنان



عرضت لنا من قبل فرصة للتعريف بنشأة الأزهر الجامعية ، وكيف أنه أنشىء فى البداية ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية ، ثم نشأت صفته الجامعية فى ظروف عرضية ، ولم تلبث أن استقرت بعد ذلك وتأثلت ؛ وذكرنا ما كان للوزير ابن كلس من كبير أثر فى اسباغ هذه الصفة العلمية الجليلة على الأزهر ، وكيف أنه يعتبر منشىء الجامعة الأزهرية فى معنى من المعانى

والآن نذكر طرفا من الآثار الفكرية التى ترتبت على قيام هذه الجامعة الاسلامية الكبرى فى عصرها الأول ، أعنى فى العصر الفاطمى ، ونذكر أيضاً بعض أعلام التفكير فى هذا العصر ممن تولوا التدريس فى هذا المعهد الجليل أو تخرجوا فيه أو اتصلوا به وبحلقاته اتصالاً كان له أثر فى تكوينهم الفكرى والعلمى

لم تبلغ العلوم والآداب فى ظل الدولة الفاطمية من التقدم والازدهار ما كان خليقا أن تبلغه فى ظل هذه الدولة القوية الباذخة ؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت لظروفها الدينية والسياسية ترمى الى الانشاء فى كل شىء ، ولم ترد أن تقوم على تراث الماضى أو أن تستأنف السير به ؛ ولم يمد لها فى عهد الانشاء الفتى ، فلم يأت منتصف القرن الخامس حتى سرت اليها عوامل الانحلال والوهن

وقد كان هذا شأن الحركة الفكرية ، فانها لم تلبث طويلاً فى قوتها وازدهارها . وكان الأزهر ، وهو يومئذ الى جانب دار الحكمة والمسجد الجامع ، من صروح الحركة الفكرية ، يتبع مصاير هذه الحركة من قوة وضعف ، فلم يبلغ فى هذا العصر ، — عصر الانشاء والنمو — ما بلغه فى العصور التالية من التقدم والأخذ بزمام الحركة الفكرية ؛ ومن ثم فانا لا نستطيع أن نحصى فى هذه المرحلة من تاريخ الجامع الأزهر كثيراً من الأعلام الذين تخرجوا فى حلقاته أو درسوا فيها . والواقع أنه من الصعب أن نعين بالتحقيق من تخرج فى الأزهر من أعلام التفكير والأدب فى هذا العصر ، وإن كنا نستطيع أن نعين بعض الأساتذة الذين تولوا التدريس فى حلقاته ؛ ذلك أن الأزهر لم يكن ينفرد يومئذ بتنظيم الدراسة العالية ، بل كان إلى جانبه دار الحكمة تنافسه وتتفوق عليه أحياناً ، والمسجد الجامع يحتفظ دائماً بحلقاته القديمة ؛ ومن المرجح أن معظم العلماء والأدباء الذين ظهروا فى هذا العصر كانوا ينتفعون بالدرس فى المعاهد الثلاثة ، ومن المرجح أيضاً أن الأزهر كان له فى تخريج أولئك العلماء والأدباء أوفر نصيب ، لأن دار الحكمة لم تتمتع دائماً بكثير من الثبات والاستقرار ، وقد أغلقت فيما بعد ؛ ولم يكن المسجد الجامع معهداً منتظماً للدرس ، وكان الأزهر أكثر المعاهد الثلاثة انتظاماً واستقرارا

كان فى مقدمة الأساتذة الذين تولوا التدريس والاقراء بالأزهر منذ إنشائه بنو النعمان قضاة مصر ؛ فكان القاضى أبو الحسن على بن النعمان أول من درس بالأزهر ، فعقد أول حلقاته فى صفر سنة ٣٦٥ هـ وقرأ فيها مختصر أبيه فى فقه آل البيت ، وكان فوق تضلعه فى فقه آل البيت أديباً شاعراً ، وتوفى سنة ٣٧٤ هـ ؛ ودرس بالأزهر أيضاً أخوه القاضى محمد بن النعمان المتوفى سنة ٣٨٩ هـ ، ثم ولده الحسين بن النعمان قاضى الحاكم بأمر الله[1] ؛ ومن المرجح أن فقيه مصر ومؤرخها الكبير الحسن بن زولاق (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ) كان بين الذين تولوا الدرس بالأزهر يومئذ ، فقد كان صديق المعز لدين الله ومؤرخ سيرته ، ثم صديق ولده العزيز ، ومن المعقول أن يقع الاختيار عليه للتدريس بالمعهد الفاطمى الجديد

ويجب ألا ننسى أن الوزير ابن كلس نفسه كان فى مقدمة العلماء الذين تولوا التدريس فى الأزهر . وقد رأينا فى بحثنا السابق كيف كان هذا الوزير العلامة أيام العزيز بالله يعقد حلقاته الدراسية

(١) ابن خلكان — ج ٣ ص ٢١٩ — ٢٢٣ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٨ — وذيل القضاة (ملحق كتاب الكندى) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١

حياناً بالأزهر وأحياناً بداره ، ويقرأ فيها محاضراته فى الفقه الشيعى ولا سيما رسالته الشهيرة المعروفة « بالرسالة الوزيرية » وقد كانت من أقدم كتب الدراسة التى درست بالأزهر

ونستطيع أن نذكر من أعلام التفكير والأدب فى هذا العصر عدة ، وهم بلا ريب ممن كان للأزهر فى تكوينهم العلمى أثر كبير ؛ منهم المسبحى الكاتب والمؤرخ الأشهر ، وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ ؛ وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية ؛ تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه ؛ وأخذ بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ، وشغف بتدوين التاريخ ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء وما بها من العجائب والأبنية ، وذكر نيلها وخواصها ومجتمعاتها حتى فاتحة القرن الخامس الهجرى . ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى يلقى بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته ؛ وكتب المسبحى كتباً أخرى فى التاريخ والأدب والفلك ولكنا لم نتلق شيئاً منها[1]

ومنهم ، القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ ؛ وهو أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى ؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع ، وتوفى بها سنة ٤٥٤ هـ . كان من أقطاب الحديث والفقه الشافعى ؛ تولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، وأوفده المستنصر سفيراً إلى تيودورا امبراطورة قسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ليحاول عقد الصلح بينها وبين مصر ، وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما فى الحديث وكتاب « مناقب الامام الشافعى » ، و « أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء » ، و « عيون المعارف » وهما مختصران فى التاريخ ، وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره[1]

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى ، وهو أبو الحسن على بن ابراهيم ابن سعيد كان من أئمة اللغة فى عصره ، واشتغل أعواماً طويلة بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتباً كثيرة فى النحو والأدب منها كتاب «إعراب القرآن» وكانت وفاته سنة ٤٣٠ هـ

ومنهم أبو العباس أحمد بن على بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين ، واشتهر حيناً بتدريس علم القراءات وتوفى سنة ٤٤٥ هـ

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر ابن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى اللغة والنحو ، وألف فيهما عدة تصانيف ضخمة ، واشتغل حيناً بديوان الانشاء فى عهد المستنصر بالله ، وتوفى سنة ٤٦٩ هـ

ومنهم أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى ، تلميذ القضاعى ، كان أيضاً من أئمة اللغة والنحو ، وتوفى سنة ٥٢٠ هـ

ومنهم الفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسى ، كان من أقطاب الفقه الحنفى والتفسير ، وكان أيضاً عارفاً بالرياضة والطب وعلوم اللغة والتاريخ ، وله عدة مصنفات فى التفسير والفقه ، واشتغل زمناً طويلاً بالتدريس بالأزهر ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ

* * *

هذا وأما أعلام الوافدين على القاهرة وأزهرها فى ذلك العصر فنستطيع أن نذكر منهم عدة أيضاً . فنهم العلامة الأندلسى أمية ابن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وفد على مصر فى أوائل القرن السادس أيام الأفضل شاهنشاه ، وأقام حيناً بالقاهرة يتصل بمعاهدها وعلمائها وأدبائها ؛ وكان ماهراً فى الرياضة والفلك والموسيقى والعلوم الطبيعية ، وكان أيضاً أديباً شاعراً بديع النثر والنظم ؛ ألف كثيراً من الكتب فى مختلف العلوم ، ووضع رسالة عن علماء مصر وأدبائها فى هذا العصر[2] ، وتوفى سنة ٥٢٨ هـ

(١) راجع فى ترجمة المسبحى وذكر مؤلفاته ابن خلكان — ج ١ ص ٦٥٣ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

(١) راجع فى ترجمة القضاعى (ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ — والسبكى طبقات الشافعية — ج ٣ ص ٦٣ — وأخبار مصر لابن ميسر فى حوادث سنة ٤٤٧ — وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨

(٢) انتهت إلينا قطعة من رسالة ابن أبى الصلت هذه ، وهى ضمن كتاب مخطوط لابن زولاق (كتاب أخبار سيبويه المصرى) محفوظ بدار الكتب المصرية

علامة القرى الشهير أبو القاسم الرعيني الشاطبي ، ولد بشاطبة من أعمال الأندلس فى سنة ٥٣٨ هـ ، وبرز علوم القرآن ، واشتهر بالأخص بالتضلع فى علم القراءات ، وقدم إلى مصر عقب سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية (سنة ٥٧٢ هـ) يسبقه صيته ، وتصدر للاقراء والدرس بالقاهرة بدرس القرآن وعلوم اللغة ، فهرع إليه الطلاب من كل صوب ، وكان أمام القراءات فى عصره . ووضع فى علم القراءات قصيدته الشهيرة المسماة « حرز الأمانى ووجه التهانى » ، وأنشأ عصر مدرسة حقة للقراءات ؛ وتوفى سنة ٥٩٠ هـ

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر أيام الدولة الفاطميـــة ، واتصلوا بمعاهدها وأدبائها ، أبو حامد أحمد بن محمد الانطا كى ، المعروف بأبى الرقعمق الشاعر المتفنن المـاجن ، وفد على مصر فى أوائل الدولة ومدح المعز لدين الله وولده العزيز والوزير ابن كلس وتوفى سنة ٣٩٩ هـ ؛ وأبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى المعروف بصريع الدلا ، قدم الى مصر أيام الحاكم بأمر الله ومدحه ، وتوفى سنة ٤١٢ هـ وهو صاحب المقصورة الهزليـة الشهيرة التى يعارض فيها مقصورة ابن دريد ؛ ومنهـم الشاعر الأشهر عمارة اليمنى ؛ وهو أبو محمد عمارة بن أبى الحسن ، قدم إلى مصر سنة ٥٥٠ هـ فى خلافة الفائز بن الظافر ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً فائق النثر والنظم ، شهد سقوط الدولة الفاطمية ورثاها ، واتهم بالتآمر مع آخرين على السلطان صلاح الدين ، وأعـدم سنة ٥٦٩ هـ ، ومن آثاره كتاب أخبار اليمن ، وكتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية

ومن الرحل الذين وفدوا على مصر فى ذلك العصر ، الرحالة الفارسى ناصرى خسرو ، قدم اليها سنة٤٣٩ هـ فى خـلافة المستنصر بالله ، وشهد أزهرها ، وأشار اليه خلال وصفه لمدينة القاهرة[1]

***

كان للأزهر بلا ريب أثره فى توجيه الحركة الفكرية المصرية فى هذا العصر ، فقد كان منذ بدأت مهمته الجامعية موضع الرعاية الرسمية . كان يشترك فى عقد حلقاته الدراسية أقطاب العلماء من رجال الدولة ، كبنى النعمان قضاة مصر ، والوزير ابن كلس ، وداعى الدعاة ؛ وكانت هذه العناية تسبغ على حلقاته ودروسه أهمية خاصة ؛ بيدأن هذا الأثر كان محدوداً ، خصوصا منـذ قيام دار الحـكمة ، جامعة الدولة الرسمية ، وتبوئها مقام الزعامة فى توجيه الحركة الفكرية ؛ وقد كان أثر الأزهر أقوى وأشد ظهوراً فى نشر العـلوم الدينية ، وتخريج علماء الدين ، لأنه كما قلنا كان موئل الثقافة الدينية ، بينما كانت دار الحـكمة موئل الثقافة المدنية ؛ وعلى أى حال فان مؤرخ الآداب العربية لا يسعه الا أن ينوه بما كان للأزهر من أثر فى سير الحركة العلمية والأدبية أيام الدولة الفاطمية ، وان كان هذا الأثر لم يبلغ يومئذ ما بلغه فيما بعـد من الأهمية والخطورة

ونلاحظ من جهة أخرى أن أثر الأزهر فى توجيـه الحياة العامة فى تلك المرحـلة الأولى من حياته لم يكن عظيما . ذلك أن الدولة الفاطمية كانت تحرص على سلطانها السياسى أشد الحرص وتمعن فى التمسك بعصبيتها ، ولا تفسح كبير مجال لنفوذ العلماء ورجال الدين ، ولم تكن عنايتها بنشر دعوتها الدينية الا توطيداً لدعوتها السياسية ، ولم يكن للدعاة من العلماء ورجال الدين من النفوذ المستقل الا ما يتجه نحو هذه الغاية ويخضع لسياسة الدولة العامة . كذلك لم يكن للفقهاء والمشترعين المستقلين كبير أثر فى سير التشريع فى ذلك العصر ، لأن الدولة الفاطمية كانت تهتدى فى صوغ شرائعها عبادئها المذهبية الخاصة ، ومن ثم فانا لانستطيع أن نلمس أثراً يذكر لرجال العلم والدين فى توجيه الحياة والشؤون العامة فى العصر الفاطمى

محمد عبد الله عنان

(١) راجع الترجمة الفرنسية لرحلة ناصرى خسرو

الفتوح الاسلامية
وأثرها فى تقدم المدنية
للدكتور حسن ابراهيم حسن

إذا حاولنا أن نذكر فى هذه الكلمة ما كان للحكومات الاسلامية من أثر فى تقدم المدنية ، لم يكن ذلك إلا تكراراً لأمر قد فرغ منه منصفو المؤرخين شرقيين وغربيين

اتسعت رقعة الاسلام حتى زادت فى السعة على الأمبراطورية الرومانية . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أول من وضع أساس السياسة الخارجية للعرب ، فأرسل الكتب والبعوث إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى توحيد الله والايمان برسالته ، وغزا بلاد الروم وحارب الغساسنة على حدود الشام لما سخروا من دعوته واعتدوا على رسله وقتلوا أصحابه . وقد جهز قبل وفاته حملة لغزو أطراف الشام . غير أن وفاته قد حالت دون إنفاذها . ولما ولى أبو بكر الخلافة شرع فى إتمام هذا الفتح ؛ وجاء بعده عمر فعمل على توسيع رقعة الدولة الاسلامية . وإذا ماتتبعنا ماقام به الرسول من الغزوات والسرايا ، وما قام به الخلفاء من بعده من الفتوح ، وجدنا أنه كان لهذه الغزوات والفتوح أثر كبير فى نهضة بلاد العرب من النواحى الاجتماعية والسياسية والأدبية وغيرها ، كما كان لها الفضل الأكبر فى نشر الاسلام فى أرجاء الجزيرة العربية ، ووضع الأسس والمبادىء العامة فى تنظيم المعاملات بين أفراد الجماعة الاسلامية . ذلك أن الاسلام قد حرص على أواصر القرابة من أن تعبث بها الغيرة ، كما سوى بين المرأة والرجل فى جميع الحقوق تقريباً ، وأحل الوحدة الدينية محل الوحدة القومية ، وحث على التمسك بالفضائل ، وعنى بأسرى الحروب أيما عناية ، وحاطهم بسياج من عدله ورحمته . ولم يذكر لنا التاريخ أن إماما من أئمة المسلمين أمر بقتل الأسرى ، اللهم إلا من كان يخشى خطره على المسلمين . ولا غرو فان الاسلام قد سوى بين الناس على اختلاف أجناسهم ؛ فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والحاكم والمحكوم ، وبين الرجال والنساء . انظر الى المسلمين وهم فى مسجد يؤدون فريضة الصلاة ، أو فى مكة يحجون البيت الحرام ، أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام ، أتجد فيهم من فاضل ومفضول ؟ وقد ساعد الرسول على توحيد كلمة العرب تلك الديمقراطية التى جاء بها الاسلام ، والتى تلاشت أمامها هذه الفوارق الجنسية التى طالما مزقت شمل العرب ، وليس أدل على تلك الديمقراطية من قوله تعالى : (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « ليس لعربى على عجمى فضل الا بالتقوى »

ولقد وضع الاسلام من الأصول والنواميس ما هو كفيل بالقضاء على الاسترقاق ، لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت إذ ذاك — على ما نعلم — من شدة التمسك بهذا النظام . وبدهى أنه لا يستطيع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يزيل أمراً ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء ، على أن هذا الاستيلاء لم يغفل تمهيد الطريق لألغاء الاسترقاق ، فما فتئ الرسول يرغب الناس فى العتق . وقد أبقى عليه الصلاة والسلام الرق لسببين :

أولهما : حفظ التوازن بين الدولة الاسلامية وغيرها من الدول كالفرس والروم ، حتى يستفيد العرب من أسرى الأمم ، كما استفادت هذه الأمم من أسرى العرب

وثانيهما : لحماية الضعفاء من نساء أكلت الحرب رجالهم . ولو تركن وشأنهن لكن عالة على المجتمع ومصدرا للشرور

على أن الاسلام ، وان لم يجد بداً من اباحة الرق ، فانه لم يترك الارقاء هملا ، فقد نظم شؤونهم ، وأخذ بأيديهم فى طريق الحرية . وقد وصف أحد الفرنجة معاملة الاسلام للرقيق بقوله : « لقد وضع للرقيق فى الاسلام قواعد كثيرة تدل على ما كان ينطوى عليه محمد وأتباعه نحوهم من الشعور الانسانى النبيل ، ففيها تجد من محامد الاسلام ما يناقض كل المناقضة الأساليب التى كانت تتخذها الى عهد قريب شعوب تدعى أنها تمشى فى طليعة الحضارة . نعم ! ان الاسلام لم يلغ الرق الذى كان شائعاً فى العالم ، ولكنه عمل كثيرا على تحسين حال الرقيق ، وأبقى الأسر ، ولكنه أمر بالرفق بالأسير . ومما يدل على صحة هذا القول أنه لما جيء بالأسرى بعد غزوة بدر الكبرى فرقهم

الر... ...حابه وقال لهم استوصوا بهم خيرا »

...ندما بسط الاسلام ظلاله خارج الجزيرة وجدنا أهل هذه ...د المفتوحة يرحبون به بل ويحثون على اعتناقه لما فيه من الحرية والمساواة ؛ فكان العرب أثناء حكمهم بلاد فارس والشام ومصر وغيرها من البلاد يقومون بحماية أهلها مقابل مبلغ معين ، يدفع عن كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية ، وهى ضريبة شخصية يدفعها أهل الذمة مقابل اعفائهم من خدمة الجيش ؛ وكانوا يعفون من تلك الجزية إذا اعتنقوا الاسلام ؛ وكانت الأرض ملكا للفاتحين ، غير أن العرب كانوا يتركونها للأهالى يزرعونها على أن يؤدوا جزءا من غلتها ضريبة عقارية تسمى خراجا

ولما استولى العرب على بلاد فارس والشام ومصر اتخذوا لأنفسهم طرازا للعمارة خاصاً بهم ، يتناسب وطبيعتهم وحالة معيشتهم ؛ وقد فاق هذا الطراز طراز الفن البيزنطى والفارسى من حيث الرقى وجمال التنسيق والاتقان . والعرب — كما لا يخفى — مولعون بالتقليد ، كما أنهم معروفون بالابتكار المبنى على هذا التقليد ؛ وهم فى ذلك أشبه بالأمة الانجليزية . كذلك عنى العرب بتخطيط المدن وشق المجارى لتوصيل الماء الصالح للشرب اليها . فشرعوا على أثر انتصارهم فى موقعة القادسية (١٥ هـ) فى تخطيط مدينتى البصرة والكوفة ، كما أسسوا على أثر فتحهم مصر مدينة الفسطاط

وكان لاختلاط العرب بالأمم التى تغلبوا عليها أثر كبير فى تقدم المدنية . فقد بلغت النهضة العلمية أوجها فى صدر الدولة العباسية بفضل تشجيع المنصور والرشيد والمأمون . فكانوا يبعثون البعوث للتنقيب عن الكتب القديمة فى الكنائس والأديرة ، وأرسل المأمون بعثات علمية إلى الهند والقسطنطينية لنقل الكتب النفيسة ، ونشطت حركة الترجمة فى ذلك العصر نشاطاً عظيما . فنقلت الكتب الفارسية والهندية والأغريقية إلى العربية ، من بينها فلسفة أرسطو وهندسة أقليدس وجغرافية بطليموس ، وغير ذلك من الكتب فى الطب والفلك ، وكان من أشهر المترجمين حنين بن اسحق ، ويعقوب بن اسحق الكندى . وقد نهج الفاطميون والأيوبيون فى مصر ، وأمراء بلاد الأندلس فى الغرب نهج العباسيين . كذلك اهتم العرب اهتماماً كبيراً بدور الكتب العامة حتى بلغ عدد المجلدات فى مكتبة القاهرة فى عهد الفاطميين خمسمائة ألف مجلد ، وفى مكتبة قرطبة أكثر من أربعمائة ألف مجلد

ولم تقتصر علوم العرب على ما نقلوه عن غيرهم . فقد فاقوا أساتذتهم من الفرس والأغريق ، ولا غرو فقد شجع اتساع رقعة الدولة الاسلامية وانتشار التجارة فيها على رقى علم الجغرافية . ولا عجب فالعرب بدو رحل بطبيعتهم . ومن أشهر الرحالة من العرب المسعودى وابن جبير وابن بطوطة الذين طافوا الأقطار ووصفوا الجهات المختلفة وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدات ومهدوا بذلك سبيل الكشف الجغرافى . كذلك اهتم العرب بعلم التاريخ فوضعوا فيه المؤلفات القيمة ، كما نبغوا فى الشعر والأدب . ولا غرو فقد أثرت فيهم بلاغة القرآن ، وساعدت مظاهر الحضارة المادية وجمال المناظر الطبيعية ، وبخاصة فى بلاد الأندلس على رقى الخيال ورقة الشعر ، كما برع العرب فى فن الغناء والعزف على الآلات الموسيقية ، وممن نبغ منهم فى الموسيقى والغناء اسحق الموصلى ببغداد ، وتلميذه زرياب بقرطبة ، حيث أسس مدرسة للموسيقى تخرج فيها كثير من مشاهير الموسيقيين

كانت الدول الاسلامية فى المشرق ومصر وبلاد الأندلس مراكز الفنون والصناعات ، ومنار العلوم والآداب ، فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى بحار الجهل . وقد اتصل الأوربيون بالعرب واقتبسوا من علومهم واستفادوا من حضارتهم عن طريق مصر والشام أثناء الحروب الصليبية التى قامت فى القرن الحادى عشر الميلادى

فقد نزح الى بلاد الأندلس طلاب العلم من أنحاء أوربا ، فالتحقوا بمدارسها وجامعاتها ، وانتفعوا بدور الكتب الكثيرة بها . فلما عادوا الى بلادهم نشروا فيها علوم العرب . وبلغ من اهتمام الغربيين بالعلوم العربية أن أنشأوا فى باريس فى القرن الثانى عشر الميلادى مدرسة لتعليم اللغات الشرقية ، وقد ظهر من الأوربيين علماء تشبعوا بعلوم العرب وطرق أبحاثهم . نخص بالذكر منهم العالم الانجليزى رودجر بيكون (Roger Bacon) الذى دعا الناس الى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والاعتماد على التجارب للوصول الى الحقائق العلمية ، فبدأ الأوربيون يبحثون العلوم بحثاً علمياً كان له أثر عظيم فى قيام النهضة العلمية فى أوربا ورقى الحضارة العربية . وقد نقل الأوربيون العلوم الطبية عن

ابن زهر وابن البيطار ، وعرفوا بصفة خاصة طرق معالجة الجدرى والحصبة . وطالما كان يستدعى ملوك أوربا وأمراؤها الأطباء من العرب لمعالجتهم . وأسس الفرنسيون مدرسة للطب فى مدينة مونبلييه (Montpellier) قام بالتدريس فيها أساتذة من بلاد الأندلس؛ كذلك استفاد الأوربيون من نبوغ العرب فى الكيمياء . ولا تزال بعض المركبات الكيميائية ، كالكحول (Alcohol) والكافور (Camphor) والقلويات (Alkali) والأشربة (Syrops) تدل على أصلها العربى

وقد أخذ الأوربيون عن المسلمين كثيراً من أنواع النبات ، كالأرز ، وقصب السكر ، والخرشوف ، والمشمش ، والبرتقال والزعفران ، وأنواع الورد والياسمين ؛ كما أخذوا عنهم الطواحين الهوائية لطحن الغلال ، ورفع الماء ، وأقاموا أول طاحونة منها فى مقاطعة نرمندية سنة ١١٠٥ م ، كما أقاموا غيرها فى هولنده . ولا تزال سهول بلنسية فى اسبانيا تروى إلى الآن بطرق الرى الفنية التى ابتكرها العرب . وقد نقل الأوربيون عن العرب كثيراً من الصناعات كصناعة السكر والحرير والورق كما عرفوا عنهم البوصلة التى كان لاستعمالها فضل كبير فى توسيع نطاق الملاحة وتشجيع الكشف الجغرافى . وقد نبغ العرب فى الفنون الحربية وصناعة السفن حتى أصبحوا أساتذة أوربا فى ذلك المضمار . فكانت أساطيل الدول الاسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط نماذج تحتذيها البلاد المسيحية فى صنع أساطيلها . ولا يزال كثير من الاصطلاحات العربية البحرية شائعاً على ألسنة البحارة فى جنوه حتى اليوم . من ذلك كلمة Cable المحرفة عن لفظ حبل ، وكلمة (Darsonal) الايطالية المحرفة عن لفظ دار الصناعة

ولم تقتصر استفادة الأوربيين من العرب على العلوم والصناعات ، فقد تأثر طلاب العلم من الأوربيين بالأدب فى اسبانيا ، وبخاصة الشعر والموسيقى ، فنقلوا إلى بلادهم أشعار العرب وأناشيدهم وأغانيهم مما كان له أثر كبير فى الآداب الأوربية . ولا عجب فقد كان العرب حلقة اتصال بين المدنية القديمة والمدنية الأوربية الحديثة

حسن ابراهيم حسن
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية
وكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية

من مناظر الهجرة

أم سلمة*

بقلم ناجى الطنطاوى

— ١ —

(فى البادية ، قبل الفجر ، أم سلمة ممتطية بعيراً وابنها فى حضنها وأبو سلمة آخذ بخطام البعير يسوقه ، فى طريقهم إلى المدينة مهاجرين)

أم سلمة

« أبا سلم » حث المطى فاننى أخاف من القوم المكيدة والغدرا
إذا أدركونا اليوم كان نصيبنا الرّ دى وغدت هذى الرمال لنا قبرا
وإنىَ لا أخشى على نفسىَ الردى
ولا أرهب الموت الزؤام ولا الأسرا
ولكن طفلى سوف يصبح إن أمت
يتيماً ، ويحسى طعم عيشته مرا

(*) هى هند بنت سهيل القرشية المخزومية أم المؤمنين ، كانت زوج ابن عمها أبى سلمة بن عبد الأسد ، فلما مات عنها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة سنة أربع . وكانت ممن أسلم قديماً هى وزوجها وهاجرا إلى الحبشة فولدت له سلمة ، ثم قدما مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، وفيها ولدت له عمر ودرة وزينب وقيل إنها أول امرأة خرجت مهاجرة إلى الحبشة وأول ظعينة دخلت المدينة

وحين بعث إليها النبى صلى الله عليه وسلم يخطبها بعد سنتين من الهجرة حين مات زوجها وانقضت عدتها ، اعتذرت بكبر السن والأولاد وكونها غيوراً ، فذكر النبى صلى الله عليه وسلم أنه كبير أيضاً وذو أولاد ، ثم قال : وأما الغيرة فأدعو الله عز وجل أن يذهبها عنك ، فكان أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يتحاكمن إليها لعلمهن ببراءتها من الغيرة . وكانت موصوفة بالجمال البارع والعقل البالغ والرأى الصائب ، وهى صاحبة المشورة المباركة يوم الحديبية . توفيت على الأكثر فى آخر سنة ٦١ وهى آخر أمهات المؤمنين موتاً

أما زوجها أبو سلمة ، فهو عبد الله بن عبد الأسد المخزومى من السابقين الأولين إلى الاسلام ، أسلم بعد عشرة أنفس ، وكان أخا النبى صلى الله عليه وسلم من الرضاعة وابن عمته ، وروى ابن أبى عاصم من حديث ابن عباس : أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد ، وأول من يعطى كتابه بشماله أخوه سفيان بن عبد الأسد

شهد بدراً . وتوفى فى سنة أربع من الهجرة بعد منصرفه من أحد ، انتقض به جرح كان أصابه بأحد فمات منه

إذا صاح «أمى» لم يجد من يجيبه   فتذرى أحر الدمع مقلته الشكرى
لتسرع فانى قد شعرت بوحشة   وذعر

أبو سلمة — دعى يا أم سلمة ذا الذعرا
ألم تعلمى أن المقدر كائن   إذا عاندته النفس أعقبها خسرا
سننجو معاً إن يكتب الله نجوة   ويلحقنا ضر إذا كتب الضرا
ألا فى سبيل الله كل مصيبة   إذا نزلت فينا ادّرعنا لها الصبرا
ثق أن مانلق من البؤس والضنى   سيجعل رب العرش فيه لنا أجرا
دعانا إلى الدين القويم محمد   فقلنا له لبيك رمت بنا خيرا
أطعنا وآمنا بك العمر كله   فرنا فانا قد بذلنا لك العمرا
وقفنا على نصر النبى نفوسنا   وأرواحنا لانبتغى الحمد والشكرا
سلام على عهد بمكة سالف   لهونا به لم نعرف الحزن والضيرا
مهاجر من أرض غذانا نميرها   لو انا استطعنا مانوينا لها هجرا
فهل يكتب الله المؤمل عودة   لنا أم ستبقى فى خيالتنا ذكرى

أم سلمة : أرى الطفل قد أغفى

أبو سلمة : لينعم بنومه   ولا توقظيه ربما نقطع القفرا
أما ذاق طعم النوم بالأمس ؟
لا
اذن   دعيه ينم ماشاء ولنرقب الفجرا

(يتطلعان إلى السماء لرؤية الفجر ، وبعد لحظة يشمعان جلبة وصوت حوافر خيل ، وتعلو أصوات من حولهما قائلة :)

قفا
استسلما
اياكما أن تقدما
سيقتل حالاً من عصى الأمر أو فرا

أبو سلمة — وقفنا فمن أنتم ؟
مطاعين من بنى الـ   مغيرة قد سقنا لكم عسكراً مجراً
«أبا سلم» دع حفظ نفسك اننا   غلبنا عليها ما استطعنا لها قهرا(١)
وضم الينا أم سلمة مرغماً   والا فانا سوف نستصرخ السمرا

(يقف أبو سلمة حائراً ، واثقاً أنه إذا أراد المقاومة ، قتل هو وزوجته وابنه جميعاً بينما يتقدم القوم فينتزعون خطام البعير من يده ويأخذون أم سلمة)

(١) نص العبارة . « هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه على م نتركك تسير بها فى البلاد ؟ »

أم سلمة —
الى أين ؟ يا رباه ! ماذا يراد بى ؟
أيتركنا زوجى بأيدى العدا أسرى
أأفصل عنه وهو دونى مائل   يرانى ولايبدى حراكاً ولا أمرا

(يسحبونها ويسيرون بها)

دعونى يا رهط اللصوص فليس لى
من العزم ما أرجو به لكم دحرا
شجاعتكم جبن اذا هى أعلنت   على امرأة مثلى مولهة حرى
أبادأتكم بالشر أول مرة ؟
أأضمرت طول العمر يومالكم شرا
سألتكم بالله الا عطفتم   علىّ لعل الله يجزيكم خيرا

(يسخرون منها ويضحكون)

أقالت لعل اللات ؟
انى سمعتها   تقول لعل الله
أبلغ بذا كفرا
لقد صبأت
لا بد من قتلها اذن
أوافق
لا ، فالسجن قبل بها أحرى
ستسجن حينا ثم تردى قتيلة

أم سلمة — حنانيكم يا قوم . . !
لا تطلبى غفرا

(يمرون فى طريقهم على بنى عبد الأسد رهط أبى سلمة ، فلا يكاد هؤلاء يعرفون الخبر حتى يهجموا عليهم قائلين :)

على رسلكم يا عصبة الشر
مالكم ؟
ألم تأخذوا بالأمس صاحبنا قسرا ؟
كذبتم لقد أمسى طليقاً
ولم ينل بسوء
إذن خلوا لنا طفله حرا
وما شأنكم بالطفل ؟
ما شأننا به ؟ وهل ينتمى إلا إلى أمه الكبرى (١) ؟

(يهجمون عليهم ، ويتجاذبون سلمة حتى يأخذوه بعد أن تخلع يده ويذهبون به)

(١) كناية عن القبيلة

سلمة (تصيح) —

اليَّ يا ربي وهب لي مخرجا
من البؤس وارفع عني السوء والضرا

(يغمى عليها)

— ٢ —

(بعد عام كامل ، أم سلمة جالسة وحدها بالأبطح (١) في حي بني المغيرة تبكي وتقول)

سلمة —

سقى الله عهداً غاله الدهر لم يكن
سوى حلم عذب شهي بنا مرا
ربنا به كأس المسرة والصفا ورفرف طير الحب من فوقنا دهرا
فلم نك ندري فيه ما لوعة النوى
وما حرقة الحزن التي تقصم الظهرا
أحن الى أهلي حنين موله وقد ينقضي يوم فأحسبه عشرا
ألا هل أرى زوجي وطفلي قبلما أموت وألقى في الثرى جسداً قرا
لقد نفد الدمع الذي كان سلوتي فمن لي بدمع يذهب الشجن المرا
أقول لقلبي والأسى يتبع الأسى
هداديك(٢) قد أفنيت شطراً فدع شطرا
« أبا سلم » اذكرني فاني مقيمة
على العهد لا أنساك صبحا ولا عصرا
أعندك أني منذ عام سجينة أقاسي من الآلام ما يصدع الصخرا
وأني لا أدري إلام يطول بي عذابي ، أيوما بعد عام أم شهرا
الى الله أشكو ما ألاقي من الأسى
ومنه أرجي العون والغوث والنصرا

(يدخل عليها رجل من بني عمها ، وهو أحد بني المغيرة ، كان قد عرف حالها ، وكلم قومه في أمرها ، فرضوا باطلاق سراحها ، ويكون قد سمع شكواها)

— أقلي من الشكوى ، ولا تكثري البكا
— ومن أنت ؟
— واستبق الجلادة والأزرا
— ومن أنت ؟
— لا تخشي فديتك زائرا أتاك على وهن به يحمل البشرى

(١) بين مكة ومنى ، وهو مسيل وادي مكة
(٢) تمهل

— وأية بشرى ؟
— أبشري بالخلاص من اسارك
— دع عنك التهزؤ والسخرا
— لقد قلت حقا ، ما التهزؤ شيمتي ولا أعرف اللين المعيب ولا الهذرا
— أأصبحت أستطيع الخروج الى . . .

(يدخل نفر من القوم ، ويصيحون بها قائلين)

— أخرجي ، فانا عفونا عنك
— شكراً لكم شكرا !

(تخرج من الأسر وهي تقول في نفسها)

— أيارب حمدا لا انتهاء لحده ويارب شكرا لا أطيق له حصرا

(تذهب في طريقها سائرة وحدها إلى المدينة) .

— ٣ —

(تمر في طريقها على بني عبد الأسد ، فيراها القوم فيسألونها عن خبرها فتخبرهم بما وقع لها من الخلاص من الأسر ، وانها ذاهبة إلى زوجها فيواسونها ويردون عليها سلمة ، فتأخذه وتذهب في طريقها مسرورة تضمه وتقبله وتقول له :)

— حبيبي أحقا عدت لي اليوم بعد ما
فقدتك عاما ما عرفت به البشرا
أسائل عنك الريح عند هبوبها
وأستنطق الأفلاك والسحب والبدرا
وكم كنت أخشى أن تمد يد الردى
اليك شبا كما تقنص الليث والنسرا
فسل مقلتي هل داعب النوم جفنها
وسل قلبي الولهان هل نسي الذكرا
أحقا تراك العين يا من سلبتها لذيذ الكرى أم ذاك وهم بها قرا
لحا الله من أقصاك عني ، انه
— ولم يدر — أقصى عني الأمل النضرا
لقد خلعوا يمناك شلت يمينهم فياليتها اليمنى بجسمي واليسرى
وياليت ما قاسيت من ألم سرى الي وحلت الأسى عنك والبهرا(١)
قضى الله أن نشقى فكان الذي قضى
فهل كتب الله السعادة واليسرا ؟

(١) الاهانة والنكبة

(تتابع سيرها دون أن ترى أحداً فى طريقها ، ثم تصل إلى التنعيم[1] ، فتلمح عن بعد رجلا قادماً نحوها ، لا تكاد تقرب منه حتى تنظر إليه فتعرفه وإذا هو عثمان بن طلحة [2] أخو بنى عبد الدار)

عثمان — الى أين ؟

— قصدى أرض يثرب

— منذ كم تسيرين ؟

— لى يومان أضرب فى الصحرا

— تسيرين فى الصحراء وحدك ؟

— مامعى سوى الله وابنى ذا ، وأنعم به ذخرا

— فالك يا أختاه والله مترك ولابد لى من أن أبلغك الوكرا[3]

(يعود معها إلى المدينة ، فتذكر له ما جرى لها ، ويتابعان السير حتى يصلا إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقباء (قرب المدينة) فيدخلانها ، ويعلمان من أهلها أن أبا سلمة فيها ، فيذهبان إليه)

— ٤ —

(أمام داره ، تطرق أم سلمة الباب)

أم سلمة — أأدخل ؟

— من ذا يطرق الباب ؟

عثمان — زائر

— على الرحب يا من جاءنا يبتغى زورا

— تفضل إذا شئت

(يدخل عثمان ووراءه أم سلمة متلثمة ، وولدها معه لا يظهر إلا وجهه)

عثمان — السلام عليكم

عليكم سلام الله منهملاً ثرًّا

فقدناك دهراً يا ابن طلح فما الذى عناك ؟

— نضالى العيش والجوع والفقر

— عذرت ، وقاك الله كل مصيبة

وأذهب عنك السوء والضيق والعسر

(يلتفت إلى أم سلمة ويقول له :)

— ومن هذه ؟

— أختى

(ينظر إلى الطفل طويلا ، ولا يدرى أهو ابنه أم لا)

— ألست ترى ابنها ؟

— بلى

— إن لى ابنا مثله كان بى مغرى

— وما زال ؟

— لا أدرى فانى فقدته وأماله من خيرة الناس

— هل فرا

— يفران ؟ كلا ، بل أحاط بنا بنو المغيرة واستاقوها معهم قهرا

— متى كان هذا ؟

— منذ عام تفتتت به كبدى ، والدمع سال به نهرا

أبيت فلا يعتاد مقلتى الكرى وأصبح لا أستطيع نطقا ولا سيرا

أم سلمة — (بصوت متكلف)

— ولم لم تدافع عنهما حين أقبلوا

— أيستطيع غرقى البحر أن يدفعوا البحرا

أم سلمة — أتعرفنى يا عم ؟

— (بدهشة) انك أخته

— (ترفع اللثام) أتعرفنى ؟

— ماذا ؟ أأنت التى أقرى[1] ؟

(يقوم إليها ويعانقها طويلا ويضم ابنه ويقبله)

أبو سلمة — لك الحمد يا من ليس يحمد غيره

جمعت شتيت الشمل فى الأنفس الحيرى

بلوت فكان الصبر أكبر همنا فشكرا على عفو غمرتنا به غمرا

(دمشق) ناجى الطنطاوى

---

(١) موضع بمكة فى الحل وهو بين مكة وسرف على فرسخين من مكة ، سمى بذلك لأن جبلا عن يمينه يقال له نعيم ، وآخر عن شماله يقال له ناعم ، والوادى نعمان

(٢) هو عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدرى من بنى عبد الدار ، حاجب البيت ، أمه أم سعيد بن الأوس . أسلم مع خالد بن الوليد فى هدنة الحديبية ، وهاجر معه ، وشهد الفتح مع النبى صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه مفتاح الكعبة ، وفى الصحيحين من حديث ابن عمر قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم الكعبة ، ودخل معه بلال وعثمان بن طلحة وأسامة ابن زيد ، توفى بمكة نحو سنة ٤٢

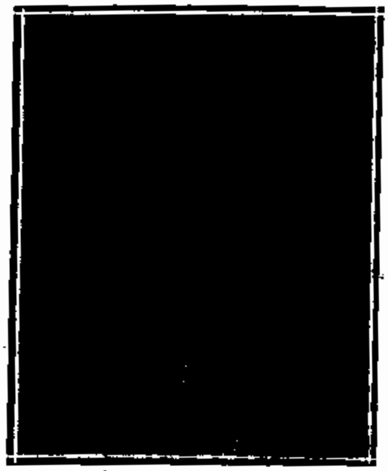
(٣) نص العبارة : (هل معك أحد ؟ فقلت لا والله إلا الله وابنى هذا ، فقال والله مالك من مترك)

(١) أبحث وأفتش . (حاشية) : قالت أم سلمة : والله ما أعلم أهل بيت فى الاسلام أصابها ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة

الاسلام والمدنية والعلم

للاستاذ محمد أحمد الغمراوى

— ١ —



هذا العدد الممتاز ينظر فى أثر الاسلام فى المدنية ، وقد يسبق الى النفس من هذا أن المدنية غاية عليا ونظام كامل نشأ من عدة عوامل أحدها الدين ، وأننا اذ أردنا أن نحتفل فى (الرسالة) بالحادث الأكبر ، حادث الهجرة ، الذى ثبت الله به الدين الكامل ، أحببنا أن نثنى على الاسلام بالاشادة بنصيبه فى تشييد صرح المدنية التى هى أعم وأشمل ، وقد يقال أكمل ، من الاسلام ؛ ولو كان هذا هو المراد ، أو كان هذا ينتج من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو ، لكان احتفالنا احتفالا معكوسا ، ولكانت اشادتنا بما نريد أن نشيد به ذما له وانتقاصا . لكن ليس الغرض من الاحتفال بالهجرة على هذا النحو هو الاشادة بالمدنية ثم بالاسلام بالتبع ، انما الغرض هو شبه دراسة اجتماعية مرماها إن أمكن تحديد الصلة بين هذه المدنية القائمة وبين الاسلام ، أو بالأحرى تحديد ما هنالك من توافق وتفاوت بين المدنية الواقعة كما نراها اليوم والمدنية الغائية كما جاء بها الاسلام

وفى الحق أن هذه المدنية بعيدة جدا عن أن تكون مثلا أعلى للمدنيات قد جاد بتحقيقه الزمان ، فان المدنية الكاملة يجب أن يكون بينها وبين الفطرة من الاتفاق ما يجعلها فى الواقع جزءا من الفطرة التى فطر الله عليها الكون ، وآية ذلك أن يكون فيها ما فى سائر النظم الكونية من الاتساق والانسجام والتوافق والتماسك والاتزان والهدوء ، وهذا لا يتحقق لأية مدنية من المدنيات الا اذا قامت على الحق فى جميع نواحيها ، وكانت نظمها النافذة منطبقة على قوانين الفطرة التى فطر الله عليها الناس أفرادا وجماعات

وشيوع الخلل والاضطراب فى النواحى الاجتماعية من هذه المدنية هو دليل شيوع الباطل فى هذه النواحى ، ودليل بُعد هذه النواحى عن الفطرة . لكن اذا كان الباطل قد شاع فى أكثر نواحى هذه المدنية فان هنالك ناحية واحدة قد عزت على الباطل أن يكون له فيها مقام ، ودانت للحق فهو فيها الحاكم المطاع . تلك هى الناحية العلمية التى أثمرت للمدنية هذه القوى المادية التى فتن بها الناس فظنوا هذه المدنية أفضل المدنيات حين قدرت على ما لم تقدر عليه المدنيات قبلها من طيران فى الهواء وغوص فى الماء ، وتسخير للبخار والكهرباء ؛ وغفلوا عن أن تفاضل المدنيات ليس أساسه القوة ، ولكن إحسان استعمال القوة فى سبيل الحق : سبيل الله ، وإلا انقلبت تلك القوى على المدنية المغترة فزلزلتها وصيرتها الى ما يصير اليه الباطل من الزوال

هذه الناحية العلمية هى فخر هذه المدنية الحديثة ، بها ستذكر فى المدنيات اذا ذكرت المدنيات بأنبل ما فيها وأفضله وأصدقه ؛ بعد أن تصبح كما أصبحت المدنيات قبلها أحاديث . ثم هى الناحية الواحدة التى اتحدت فيها هذه المدنية بالفطرة ، واذ كان الاسلام دين الفطرة فهى الناحية الواحدة التى تم فيها الاتصال بين المدنية الحديثة وبين الاسلام

هذه دعوى قد تحتاج عند بعض الناس الى تفصيل وتحديد : أو — ان شئت — الى دليل وبرهان مادام الناس ليسوا كلهم قد درسوا العلم ، وما دام من درسوا العلم ليسوا كلهم يعرفون شدة الصلة بينه وبين الاسلام

أما إن الاسلام يؤيد العلم عامة ويحض عليه ويكبر منه فأمر يعرفه كل من له إلمام ولو ببعض الآيات والأحاديث الواردة فى العلم . فالذى يقرأ من الحديث الصحيح مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقوله : « اطلبوا العلم ولو بالصين » وقوله : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » ، والذى يعرف ما فعله الرسول صلوات الله عليه بعد بدر من جعله فداء بعض فقراء الأسرى تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة ، يعرف من غير شك أن الاسلام هو دين العلم والتعلم . فاذا تلا من كتاب الله مع ذلك مثل قوله تعالى : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (شهد الله

أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ، والآيات الكثيرة التي جعل الله سبحانه العلم فيها حكما بين النبي ومجادليه مثل قوله تعالى على لسان نبيه : (إيتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) — إذا تدبر الانسان هذه الآيات الكريمة وأمثالها بعد تلك الأحاديث أدرك أن العلم على اطلاقه لم يكبر في دين من الأديان كما أكبر في الاسلام ، وأن ديناً لم يلزم أهله بالعلم والتعلم كما ألزم الاسلام المسلمين

هذا التأييد التام للعلم على إطلاقه يشمل طبعاً التأييد التام للعلم بمعناه الخاص : معناه الطبيعي المستعمل فيه اللفظ اليوم ؛ لكن ليس هناك من حاجة الى مثل هذه الحجة على قوتها في اثبات أن العلم بمعناه الحديث مطلوب مأمور به في الاسلام ، فان الآيات القرآنية الكثيرة الواردة في الحض على تطلب آيات الله في الكون وتعرف أسرار الخلق هي في الواقع توجيه للعقل الى مجالات العلم الذي يسميه الناس بالعلم الطبيعي ، بل هي أوامر من الله بطلبه ، لأن آيات الله في الكون التي ندبت تلك الآياتُ القرآنية الكريمة إلى طلبها ليست بأكثر ولا أقل من أسرار الفطرة التي هي مطمح العلم ومرماه . فأنت إذا قرأت مثل قوله تعالى : (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يُغشي الليلَ النهارَ ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرعٌ ونخيل صنوانٌ وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجومُ مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلقَ) (قل انظروا ماذا في السموات والأرض) — إذا قرأت هذا وأمثاله في القرآن لم تشك في أن العلم الحديث قرآني في موضوعه ، إذ هذه العلوم الطبيعية إنما تبحث عن أسرار هذه الظواهر الكونية التي نبه اليها وأمر بالبحث فيها القرآن

فاذا أنت استقريت الآيات القرآنية الكونية لترى هل ورد في بعضها مادة (علم) اللغوية ، وجدت أن هناك أكثر من آية وردت فيها هذه المادة إن لم يكن في صيغة المصدر ففي صيغة مشتقاته ، مثل قوله تعالى من سورة الأنعام (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، إن في ذلك لآيات لقوم يعلمون) وقوله سبحانه من سورة الروم : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين) وإذن فهذا العلم الطبيعي ليس فقط قرآنيا بموضوعه بل هو قرآني باسمه ، واذا كان الناس قد اصطلحوا اليوم على تلقيبه بالحديث فقد آن لهم أن يتذكروا أن فاطر الفطرة سبحانه قد أمر به الانسان لما أنزل القرآن هدى للناس كافة منذ نيف وأربعة عشر قرنا من الزمان .

وفي الحق أن الانسان ليأخذه العجب من كثرة ما لقيت هذه الناحية من التوكيد في القرآن ، ثم من تراخي المسلمين برغم ذلك في طلب هذا العلم ، ولو للانتفاع به في تفسير ذلك الجزء من القرآن . إن الآيات الواردة لتلفت الانسان إلى أسرار الفطرة وتحثه على تفقهها ، لا تكاد تقل إن قلت عن خُمس آيات القرآن ، ولم تلق ناحية من نواحي المدنية مثل هذا التوكيد في الاسلام إلا ناحية الأخذ بالعدل والاحسان في المعاملة ؛ فكأن المدنية في الاسلام شطران : شطر يقوم على العلم وشطر يقوم على العدل ، ومن وراء ذلك كله مخافة الله ومحبته ، لا غنى لأهل المدنية عن هذين إن أرادوا لها البقاء . وعلى كل حال فان حث الانسان في نحو خمس القرآن على دراسة الفطرة أريد به على الأخص حثه على عبادة الله عن طريق تلك الدراسة وعن طريق شكره سبحانه على ما ستثمر تلك الدراسة من ثمرات . وهذا لا يقلل شيئاً من شأن العلم في الاسلام بل يزيده ، ثم هو أبلغ في الدلالة على أن العلم في الاسلام جزء من الدين .

على أن أمر التوافق بين العلم والاسلام قد جاوز الاجمال الى التفاصيل : جاوز قرآنية الموضوع والاسم الى قرآنية الروح والطريقة . فروح العلم وطريقته منطبقة تماما على ما جاء به القرآن

فأما روح العلم التي هي في صميمها التجرد للحق والصدق فيه والاستمساك به والتعاون عليه ، فهي من روح الاسلام من غير شك ، إذ الاسلام كله ليس إلا أمرا بالحق وتجردا له وجهادا فيه ، وما لقيه الحق من الاكبار في العلم لا يزيد شيئا عما لقيه الحق من الاكبار في القرآن

وإذا كان هناك فرق بين الاثنين فهو لا يتعلق بذاتيهما ولكن بامتداد سلطانيهما ؛ فروح العلم مقصورة طبعا على الميادين التجريبية

التي قصر العلم عليها نفسه ؛ لكن روح الاسلام تشمل بسلطانها كل ميادين حياة الانسان العلمي منها والاجتماعي ، ما يمكن اخضاعه للتجارب العلمية منها وما لا يمكن

وأما طريقة العلم في طلب الحق فاليها يرجع فضل العلم في هذا العصر على مثله في سابق العصور . لقد كان من بين علماء تلك العصور من يحبون الحق ، ويعملون له ، ويحرصون عليه ، كما يحبه ويعمل له ويحرص عليه علماء اليوم ، لكنهم لم يوفقوا الى نظام علمي شامل يضمن الوصول الى الحق ويضمن على الأخص عدم قبول باطل على أنه حق . فهذا النظام الذي يحسن التمييز بين الحق والباطل ، ويضمن من نفسه أن ينفي الباطل ويثبت الحق ، هو الفارق المميز بين العلم الحاضر والعلم الماضي ، وهو المفخرة الحقيقية للعلم الحديث

هذا النظام لم يضعه شخص ولم تضعه هيئة ، ولكن نشأ بالتدريج بنشأة العلم الحديث حين أخذ العلماء يجعلون وجهتهم ابتغاء الحقيقة لا ابتغاء المنفعة ، وحين أرادوا في تلمسهم سنن الفطرة أن يتجنبوا مناشيء الخطأ في العلم القديم ، ويصححوا الوجهة في العصر الذي ظهر تطور العلم فيه

وللمقارنة بين الأصول التي قام عليها هذا النظام والأصول التي تناظرها فيما جاء به الدين يحسن تقسيم أصول النظام العلمي إلى قسمين : قسم يتعلق بنفس الفطرة التي ستكون موضوع العلم ، وقسم يتعلق بطريقة النظر والبحث عن أسرار تلك الفطرة

فأما ما تعلق بنفس الفطرة فقد وجد العلماء أنفسهم مضطرين إلى القول بأصول ثلاثة : أصل استقلال الفطرة ، وأصل اطراد الفطرة ، وأصل انسجام الفطرة أو استحالة الخلاف بين جزئياتها . فأصل استقلال الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الانسان ، فلا يستطيع ساحر ولا كاهن أن يغير من مجراها أو يعدل من قوانينها ، ولا تتغير هي تأثراً بما يجري لأي إنسان ؛ وأصل اطراد الفطرة يعلن استقلال الفطرة عن الزمان ، فما يثبت من سننها في وقت فلابد أن يكون موجوداً من قبل ، وسيظل موجوداً في المستقبل ، لا يلحقه تبديل ولا تغيير ؛ وأصل انسجام الفطرة يعلن استحالة التناقض بين الحقائق ، فلا يمكن أن ينقض حق حقاً أينما كان وكيفما ظهر ، في الأرض أو في السماء ، وما يناقض حقاً إذن فهو باطل يجب أن ينبذ ولا ينظر اليه

فأما الأصل الأول فكان ضرورياً لصيانة العلم وتحرير العقل من دجل الدجالين ، وإعداده لطلب الحق وتلقيه ، وهو أصل ليس هناك اليوم من يجادل فيه . وأما الأصلان الآخران فهما كما ترى ضروريان لوجود العلم واطراد نموه ، لا يمكن بدونهما نظر ولا بحث ولا استقراء ، ولا استدلال . لكن من العجيب أن العلم عاجز عن إثباتهما . إذ أقصى ما يستطيع أن يقوله هو أنه اعتمد عليهما قروناً معدودة فبررت النتائج الباهرة التي وصل اليها ذلك الاعتماد ، فهو لذلك سيستمر معتمداً عليهما إذ ليس هنالك ما يدعو إلى الشك فيهما فيما يتعلق بالمستقبل أو الماضي . لكن الفلسفة لا تقنع من العلم بهذا الجواب ، وتواجهه بما فيه من ضعف ، وتزعم له أن نجاح الاعتماد على ذينك الأصلين قروناً لا يثبت صحتهما إلا في تلك القرون ، وأما فيما قبل ذلك وما بعد ذلك فلا يستطيع العلم أن يجزم بصحتهما ، وإذن فلا يحق له أن يطمئن كل الاطمئنان اليهما . لكن العلم يمضي على اطمئنانه لا يبالي بما توجهه الفلسفة إلى أصليه هذين من نقد وتشكيك ، لأنه من ناحية لا يرى فائدة عملية في الاصغاء إلى هذا النقد ، ولأنه من ناحية أخرى يرى وجوده ذاته منوطاً بصحة هذين الأصلين ، لو شك فيهما لحكم على نفسه بالفناء .

ومن البديهي أن الحكم بين العلم والفلسفة في هذه القضية لا يستطيعه إلا الذي بيده أمر الماضي والمستقبل ، فاطر الفطرة وخالق الخلق سبحانه ، وقد حكم سبحانه للعلم منذ أنزل القرآن

هذان الأصلان وما يتعلق بهما يقررهما القرآن في غير تردد ولا ابهام ؛ ومبدأ هذين الأصلين أصل آخر لم يقرره العلم إلا ضمناً ، ولو قرره لما سلمته له الفلسفة ، لأنه أصعب اثباتاً حتى من ذينك الأصلين ؛ ذلك هو أن هذا الكون قائم كله على الحق . فانه لا بد من تقرير ذلك ولو لحظة حتى يمكن بعد هذا أن يقال إن كان الكون سيستمر على ذلك أو لا يستمر ؛ وأنى للعلم أو الفلسفة تقرير ذلك بغير الافتراض والظن الذي لا يستند إلى برهان . لكن الله فاطر الكون قرر للانسان الحق فيما لا يستطيع أن يثبته الانسان ، قرر في غير ما آية أن الكون قائم على الحق (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين . ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون) . (خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى ، ألا

الغفار) . وقرر سبحانه أنه لا تبديل لسننه فى الخلق ولا تحويل (فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله) ، (فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) ، (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) . وهذا المبدأ ، مبدأ ثبوت الفطرة من غير تبديل ، الذى أعلنه الله سبحانه للناس فى القرآن ، مبدأ عام يشمل جميع ميادين الفطرة ، ما تطاول العلم الى بحثه فى ميدان المادة ، وما لم يتطاول إلى بحثه فى ميدان الاجتماع ، كما هو مقتضى سياق تلك الآيات فى القرآن

أما أصل انسجام الفطرة فقد قرره الله سبحانه حين قال جل وعلا : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير) . وارتفاع التفاوت يستلزم حتما ارتفاع التناقض الذى هو أكبر التفاوت ؛ وقد تقرر نفس الأصل فى صورته الأخرى : صورة انتفاء الباطل بالحق فى قوله تعالى : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) . فالاسلام يؤيد العلم تأييدا تاماً حين تخون العلم قدرته ، وتضعف حجته . ويستطيع العلم فى يقين المسلم أن يمضى فى سبيله مطمئناً على وجوده ، غير مبال باعتراض الفلسفة ، اعتمادا على ما أعلنه رب الفطرة للناس فى القرآن

أما أصل استقلال الفطرة عن الانسان فقد أعلنه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس فتحدث الناس أنها كسفت لموت ابراهيم ، فخطبهم صلى الله عليه وسلم فيما روى البخارى خطبة قال فيها : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا » ؛ ثم زاد القرآن الكريم ذلك الأصل تقريرا وتوضيحاً فى قوله تعالى : (أم يقولون به جنة ، بل جاءهم بالحق ، وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . فأنت فيما يتعلق بأصول الفطرة ترى تمام الاتحاد بين ما قام عليه العلم وما قرره الاسلام

(يتبع) محمد أحمد الغمراوى

العقيدة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور



غذاء القلب وطمأنينة الروح ، ملجأ الضعيف وسلاح القوى . هى حقيقة امتزجت بحلاوة الخيال ، أو خيال لبس أحياناً ثوب الحقيقة . وما هذا الخيال وتلك الحقيقة إلا صرح كثيراً ما شدناه بأنفسنا لأنفسنا كى نكمل ما فى عالم الواقع من نقص ، ونحقق بعض ما نصبو إليه من ميول وآمال . فان ما فينا من قلب خافق وعواطف متأججة ، ينزع الى أمانى ورغبات لا حصر لها . ولذتنا فى تصور هذه الأمانى وسعادتنا فى السير وراءها . فان لم نجد السبيل الى تحقيقها حيث نرى ونسمع رسمنا لها مملكة سامية فوق مملكة الحس والمشاهدات ، وآمنا بها إيماناً لا يقل عن إيماننا بالمرئيات والملموسات . على أن ما فينا من عقل يحلل ويبرهن ويعلل يدفعنا الى الاعتقاد والاستمساك بآراء نتعصب لها وندين بها . فالعقيدة حاجة إنسانية وأثر من آثار قوى النفس على اختلافها . وهى فوق هذا ضرورة اجتماعية وركن هام من أركان التعاون والارتباط . ولا يمكن أن نتصور جمعية بشرية لا يخضع أفرادها لمبدأ واحد وعقيدة مشتركة . واتحاد الدين والعقيدة من أول الخصائص التى يتميز بها الشعب والأمة . وليست العقيدة المتحدة مجرد رمز وشارة للأمة فحسب ، بل هى مصدر تأثير كبير وقوة لا نهائية . هى مبعث حرارة تدفئ القلوب فتدفعها الى الأمام وتملؤها بالأمل والرجاء . ومستودع كهربائية عظمى يرسل فى الأفراد ما يرسل من موجات سالبة وموجبة فيتجاذبون ويأتلفون ، ويلتقون عند غاية واحدة وغرض أسمى . وإنا لنسير فى الحياة غالباً بدافع من عقائد مختلفة بين دينية ووطنية وعلمية

وفلسفية . والعقيدة كالأمل الحلو إن لم تبلغك الغاية فقد آنستك ونعمت بهـا زمناً . على أنها فى ساعة الفشل خير عزاء ، وعند اشتداد الخطب أقوى ركن تطمئن إليه إن وهنت الأركان كلها . وإذن فالعقيـدة للفرد عون ونصير ، وللجمعية باعث ومثير وهاد ومرشد

ومن حسن حظ الانسانية أن المرء ميال الى الاعتقاد بفطرته ، ومدفوع إليه بغريزته ؛ فالتسليم أصلى والشك عرضى ، ولا أدل على هذا من أن حياة الانسان الأول كانت سلسلة من العقائد يرتبط بعضها ببعض ، وقد توارثها الخلف عن السلف وأذعنوا لها دون بحث وتعليل . والطفل وهو صورة مصغرة للانسانية فى أول نشأتها يسلم بكل شىء يلقى إليه ، ويعتقد فى السحرة والمشعوذين والجن والشياطين . ولا تبدأ حيرة الشك لديه إلا حين يصطدم عالم الفكر بعالم الواقع ، ويتعارض أمامه أمران كان يؤمن من قبل بثبوتهما . فترتاب نفسه وتشعر بشىء من الخيبة لم تكن تتوقعه . ويظهر أن الشك كان فى أول أمره ظاهرة عاطفية قبل أن يكون مناقشة عقلية وحساباً منطقياً . وليس الشك شراً كله ، بل قدر منه مدعاة البحث ومفتاح الحقيقة ، وقديما قالوا : الشك مبدأ الحكمة ومدرسة الحقيقة . وقد استطاع سقراط بين الاغريق بشىء من الشك التهكمى أن يستخرج المعارف من نفوس محدثيه ومناقشيه . ثم جاء ديكارت فى التاريخ الحديث فاتخذ من الشك طريقة فلسفية ومبدأ علمياً . للشك حكمته ومنفعته ، فهو ينبه الفلسفة إلى أخطائها ويقف العقل عند حده ويرشده إلى نقصه . غير أن قيمة الشك فى طريقة استعماله ووضعه فى موضعه . فالشك فى كل شىء قضاء على المعرفة من أساسها وهدم للحقائق على اختلافها . وقبول المعلومات من غير بحث وتمحيص انقياد أعمى واستسلام مرذول وضعف فى التفكير . وغنى عن البيان أن الشك ضرب من الحرية واستقلال الرأى . ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الشكاك القدامى والمحدثين لفتوا نظر الانسانية إلى أخطائها الشائعة وكشفوا الغطاء عن كثير من أباطيلها المسلمة . وكل ما يؤخذ عليهم أنهم أرسلوا للشك العنان ، وجالوا به فى كل ميدان ، فقضوا على ما كان فيهم من عبقرية ، وأصبح شكهم داء بدل أن يكون دواء ، وهدموا بالشمال ما بنوه باليمين . وليس فى الشك المقبول امتهان للحقيقة أو اعتداء عليها ، بل هو اعتداد بها وتقدير لها وجد فى طلبها . حقاً إن الشك حيرة وحمى قد تخشى على النفس مغبتها ؛ بيد أنه قل أن يقدر اليقين قدره من لم يغرق فى بحار الشك قليلاً . والضال إذا وجد الطريق كان له بهذا فرحة تملأ العين والقلب

اليقين كلة عذبة الجرس حلوة الرنين سامية المعنى رفيعة المدلول ؛ تطرب الأذن لسماعها ، وتتوق النفس دائماً إلى أن تحظى بحقيقتها . ينشده العالم فى بحثه ، ويرمى إليه الفيلسوف فى درسه ، كلاهما يبغى أن يصل إلى الحقيقة الثابتة التى يذعن لهـا الجميع فى مختلف الظروف والأمكنة . وإذا كان الشك اضطراباً وحيرة فاليقين هدوء وطمأنينة . هدوء لأنه راحة بعـد عناء ، ووصول بعد مجهود ، وطمأنينة لأنه حصن حصين ، وركن أمين ؛ وكيف لا وهو قوة تستمد سلطانها من نور الحقيقة ، وحال يشعر المرء فيهـا بأنه لا يسمع إلا صوت الحق ولا يصغى إلا لندائه . ولو تأملنا لوجدنا أنا فى مرحلة اليقين أقوياء ضعفاء : أقوياء لأنا نحس بأنا نفذنا إلى قلب الأشياء ووصلنا إلى قمة العـالم وتجردنا من قيود المادة والزمن واتصلنا بكل ما هو باق أزلى ، وضعفاء لأن جلال الحقيقة التى نعتنقها أسكت كل صوت فينا ، فألغى هواجسنا وخواطرنا ، وقضى على ميولنا وأهوائنا ، وأضعف شخصيتنا أو محاها بحيث نصبح ولغة العالم والانسـانية جمعاء ديدننا وشعارنا

هذا هو اليقين فى ظواهره وأثره وشدته وبأسه . فهو إذن العقيدة فى أكمل صورها والايمـان فى أسمى أشكاله . وكثيراً ما حاول بعض الباحثين فصل اليقين من العقيدة ، والمباعدة بين العلم والدين : ووضع حاجز بين العقل والعاطفة ؛ إلا أن اليقين لا يتحقق إلا بعـد عقيدة سابقة ، والعقيدة إن سمت وكملت أضحت يقيناً . والعلم برهن غير مرة على أن له نطاقاً لا يتعداه وحدوداً لا يستطيع أن يتجاوزها ؛ فليدع الدين يتكلم فيما أعد له ويتصرف فى دائرته . والانسان عقل وقلب وتفكير وعاطفة ؛ ومن العبث أن يهمل أحد هـذين الجانبين أو يلغى ، فان ذلك خروج على الطبيعة وعكس لنظام الأشـياء . وليس من عار أن يكون فى الأديان قدر كبير يرضى العواطف الانسانية ، بل العالم كله أن تخلو من ذلك .

ابراهيم بيومى مدكور

سمو الإنسانية
فى قلب الرسول الأعظم

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)
« قرآن كريم »

للاستاذ خليل هنداوى

« لا يحسبن قارىء المقال أننا أردنا أن نعطل حدود الشرائع بدرسنا للعاطفة الانسانية السامية فى قلب الرسول ، وإنما هو بحث جرى على القلم جواباً لمن يزعم أن تعاليم الاسلام تعاليم صارمة قاهرة لا تفيض — كالشريعة المسيحية — رحمة ومحبة وحناناً »
« خ ، هـ »

لا تزال علة الآثمين الخارجين على حدود الشرائع علة مستحكمة ، لا يبت فيها فريق حتى يهب إلى نقضها فريق . وكلا الفريقين له الحجة الساطعة . فمن الشرائع ما يرى فى الأثيم العدو للانسانية ، والمريض الذى يخشى انتقال جراثيمه إلى غيره ، لأن الأمراض النفسية حكم أكثرها كحكم الأمراض السارية تعصف بالأجساد عصفاً . وهذا المريض — فى حكمها — لا يرجى شفاؤه ، وإن فكرة الاجهاز عليه هى خير فكرة تتق بها منه !

وقد تفننت الشرائع الحديثة فى تعيين هؤلاء الآثمين والمجرمين وفى عزلهم عن طبقات الناس . ومن الشرائع ما تنظر إلى هؤلاء بعطف ورحمة . لا تنظر إلى الأثم — كالكل فى الأثم — وإنما تنظر إلى الظروف التى صاحبته ، والعوامل التى ساعدت على خلقه . وهى بعد هذا كله لا ترى فى الآثم إلا إنساناً ، جبل على طينة الانسان ، يخطىء ويصيب ، ويفعل الشر ويصنع الخير . هذه الشرائع التى غلبت العاطفة الانسانية على كل عاطفة ، واستمسكت بالمبدأ الانسانى الذى يعلو على مصطلحات الخير والشر . وهذه فكرة تطير بجناحين من السمو والعلو . ولكن علماء القانون لا يستقدون بهذه الفكرة المجنحة لأنها تظهر بغير حدود ، وتنتشر على أبعاد دونها أبعاد الفضاء . وهم يريدون أن يحددوا لكل موقف شأنه ، فاذا سرق السارق فما عسى يكون جزاؤه ؟ وإذا زنى الزانى فما عسى يعامل به ؟

مثل هذه الفكرة الانسانية قد تجلت فى موقف السيد المسيح حين قدموا له زانية ليرى فيها حكم الشريعة — وما كان حكم الشريعة إلا الرجم — وما كان للمسيح أن يعطل هذا الحكم ، وهو لم يجىء لنقض نواميس الأنبياء ؛ ولكنه تسامى فى هذه المرة ما شاء له التسامى ، فأمر بأن يحفروا لها حفيرة ووقف قائلاً :

— ليرمها كل من لم ترتكب نفسه خطيئة بحجر !

فوقف الجمع ولم يرموا ، وغادروا المرأة وشأنها . ولكن هذه الفكرة تظل جميلة ما ظلت منطلقة حرة من غير قيود ، فاذا شئنا حصرها وإخضاعها للعمل ضاع رونقها وفشت الشرور بحجة أن كل نفس فيها من طينة الشر شىء . ولذلك لم يقدر المسيح نفسه على القول بالعفو عن كل زانية وزان وسارقة وسارق ، ولم يقدر غيره على القول بذلك . ولكن المسيح أراد بضرب هذا المثل أن يحفظ للآثمين هذه الانسانية التى تربطهم بغير الآثمين ، ويقرر بعد ذلك أن هؤلاء الذين يحكمون على الآثمين هم ملوثون مثلهم ، حتى تكون العاطفة الانسانية عندهم هى العاطفة الغالبة على كل عاطفة

نظرت الشريعة الاسلامية إلى هؤلاء الآثمين كما نظر غيرها ، وفرضت القصاص وفى القصاص حياة ، وقام الشارع بأحكام ما تنزل ، ورأى أن دفع القتل بالقتل أنفى للقتل . وهذه الشريعة هى شريعة من جاء قبله ، وهى الشريعة التى يحض عليها العقل ويحث اليها الانصاف

ولكن الرسول — برغم لوثة هؤلاء الآثمين — قد ارتفع معهم فى كثير من المواقف بعاطفة الانسانية فوق حدود الشريعة ، ونظر إلى هؤلاء المرضى نظرة ملؤها الرأفة والاشفاق ، وعطف على كل نفس ضالة — لأن الهدى والضلال على بعدهما متقاربان متلاصقان — وأن إهمال درس هذه العاطفة الانسانية عند الرسول مما يترك ناحية العواطف الأخرى قاسية صارمة . وأن على أرباب الفقه أن يرتبوا العقود والحدود كما رتبوها أبواباً أبواباً ، وأن على آخرين أن يحللوا هذه العاطفة التى تجعل من الرسول قلباً تقياً وعاطفة إنسانية متسامحة

ما عسى تبلغ اليه هذه العاطفة الانسانية فى صدر الرسول ؟ أذكر عبارة تلوتها فيما كتب « رينان » عن المسيح « إن

المسيح هو أول من سلك فى تفهم الله مسلكا جديدا ، إذ جعل علاقة الله مع الناس كعلاقة الأب مع أبنائه ، علاقة كلها رأفة ومحبة وحنان » وبهذه الرحمة الشاملة تفهم الرسول معنى الألوهية فقال : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل فى الأرض جزءاً واحداً . فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه ! »

وإنى لأجد الرسول فى الصلاة ، ومن ورائه أعرابى يدعو فى صلاته : « اللهم ارحمنى وارحم محمداً ولا ترحم معنا أحداً » . فقال له الرسول : « لقد حجرت واسعاً » وكأنه أراد أن يقول له : « قل اللهم ارحمنى وارحم جميع الكائنات ، لأن رحمة الله أوسع من جميع آثامهم وذنوبهم »

وإنى لأراه وهو يفكر فى هذه الرحمة التى يرجو أن تشمله ، وهى الرحمة التى ملكت عليه مشاعره . أراه « وقد وجد امرأة من السبي تحلب ثديها تسق ، إذا وجدت صبياً فى السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته ، فالتفت إلى أصحابه وقال :

— أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟

فقالوا : لا . وهى تقدر على ألا تطرحه ؟

فقال : — وقد طفت على قلبه هذه الرحمة الشاملة :

— الله أرحم بعباده من هذه بولدها »

ولقد تمثل هذه الرحمة فى كل جزء فيه ، حتى ليحسب أن الكائنات كلها قد اندمجت وأحاطت بها رحمة الله ... « فلو يعلم الكافر بكل الذى عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة » وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً ضيقاً يمنحها أناساً ويحرمها على أناس لأن الرحمة الشاملة إذا دخلت فى قلب غيرت فيه كل الأساليب الموروثة فى تفهم الوجود ، وجعلته ينظر إلى الوجود كشىء كلى ممتزج فقير إلى هذا البلسم ! وجردته من كل الأهواء ليتحد مع الكائنات اتحاداً تاماً بكل شىء فيه ، لا يهدأ قلبه ما دام يتعذب هنالك إنسان ! وهو لا يفسر الرحمة تفسيراً رمزيا ، وإنما يرمى بمختلف الأمثلة إلى تمثيل هذه الرحمة تمثيلاً واضحاً تكاد تتبينه العين وتتقراه اليد باللمس ! وقد أثر هذا الفهم فى نفسه تأثيراً واضحاً ؛ فهو تنهمل عيناه إشفاقاً على قومه ، وهو يتحمل بلاءهم بقلب صابر ولسان شاكر ويقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » وهو يستمهل الله فيهم عند ما نودى : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك » . فقال : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً »

وقد ملك عليه شعور الرحمة حتى كاد يغلب على كل عاطفة فيه . « يرى الرجل الاسرائيلى الذى قتل تسعة وتسعين رجلاً ثم خرج يسأل ، فأتى راهباً فسأله فقال له : « هل من توبة ؟ » فقال : « لا » فقتله ، فجعل يسأل ، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا ، فأدركه الموت ، فناء بصدره نحوها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فاوحى الله إلى هذه أن تقربى ، وأوحى الى هذه أن تباعدى . وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجده إلى هذه أقرب بشبر فغفر له . » وهل غفرت لهذا القاتل إثمه إلا عاطفة الرسول الانسانية التى قدرت فيه قلبه النادم ونيته الساعية وراء التوبة ؟ وقلب الرسول مفعم رحمة وشفقة على هؤلاء — مع قوله فى معاقبتهم — ولا يستطيع الفكر أن يوفق بين الاثم الكبير البالغ تمحوه حسنة صغيرة ! فمن ذلك « امرأة مومس مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش فنزعت خفها فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك ! » ذلك أن قلب الرسول يحاول أن ينقذ هذه الكائنة الشقية ، ويلقى فى النفس معنى الاحسان إلى الحيوان « وإن لنى كل كبد رطبة أجرا »

وقد تسمو نفس الرسول فى النظر إلى هؤلاء الآثمين ، فهو لا يفر منهم ولا يزور عنهم لأنه يطمع فى صلاحهم

« قال رجل : لأتصدقن بصدقة ؛ فخرج بصدقته فوضعها فى يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : « تصدق على سارق » ! فقال : « اللهم لك الحمد ! » لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : « تُصدق الليلة على زانية ! » . فقال : « اللهم لك الحمد ! » على زانية ! لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : « تصدق على غنى ! » فقال « اللهم لك الحمد ! » على سارق وعلى زانية وعلى غنى ! ولقد يظن المرء لأول وهلة أن هذه الصدقات باطلة لأنها لم تقع فى مواضعها ، ولكن الرسول حلها من الناحية الانسانية ، فأتى فقيل له : « أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن

تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله »

فلم يمنع الرسول الرفق بهؤلاء الآثمين ولم يجعل التصدق عليهم حراما . وإذا كان السيد المسيح أطلق الزانية لأنه لم يجد من يأخذ على نفسه معاقبتها فالرسول أطلقها وأطلق السارق وأطلق الصدقة عليهما ليستعفا . . . وبهذا أشفق على المريض وحارب جراثيم مرضه ! وهو خلال ذلك ينتظر أن يغمرهم نور التوبة ويصرفهم عما فيه وازعُ الضمير

وقد يعجب المرء من هذه العاطفة التي لو أخذنا بها لعطلت الحدود . إذ كيف نتصدق على سارق أوجب الشرع قطع يده ، أو على زانية أوجب رجمها ؟ ذلك أن الرسول يدرك أن الغاية من الشريعة الهدى والرحمة ، وأن القصاص سبيل يسلكه الشارع إذا عز الوصول إلى الهدى إلا به

فهو بهذا دل على إنسانية سامية تفهم الوجود رحمة ومحبة ، وإن روحه لتصل بالمذنب اتصالها بالبرىء ، وأنه يحب الناس مهما فعلوا ، وأنه يجد فى نفسه ميلا إلى الرفق بالآثمين ، وهذا الميل جعله يسلك السبل المتعددة ليدفع عنهم آثامهم ويطهرهم من أرجاسهم . ونرى بعد هذا كله — هذه الكتلة من الرحمة والمحبة تقف أمام الرحمة الشاملة تدعو ربها :

« اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب
اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الابيض من الدنس
اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد »

أليست هذه الانسانية بأسرها تتمثل فى شخص الرسول تطلب إلى الله أن يشملها برحمته ؛ ويغسل خطاياها برأفته حيث تغسل الأوزار وتضيع حدود العقاب فى عالم تعمره الرحمة وتسكنه المحبة ، لا نهايات له ولا حدود ؟

(دير الزور) **خليل هنداوى**

ذكريات يجتليها محرم

لشاعر السودان الاستاذ عبد الله عبد الرحمن

هو الشوق فى أحشائنا يتضرم　　الى ذكريات يجتليها محر
الى ذكريات هن بعث ويقظة　　وهن لآلام الجراحات مر
بنى الشرق ، والاسلام فى كل موطن ،
يحييكمو منى على النأى مســـ
تعالوا نجدد من عهود تصرمت
وما الشأن فى عهد الكرام التصر
تعالوا نجمع من نفوس تفرقت　　شعاعاً ولا نمضى كما نتو
ونطرح الواشين تنفث بيننا　　سموماً — وفى الواشين أربد أرق
ونفزعْ الى التنزيل نبنى نفوسنا
فليس لما يبنى الكتاب مهـــد

* * *

وفى الهجرة الزهراء قربى قريبة　　تمت بأسباب الحنيف إليكم
فان نحيها نحى الزمان تقدمت　　أوائلنا أهليـــه وهو لهم فم
وإن نحيها نحى النفوس كبيرة
وإن جعلت فى أرضها اليوم تهضم
وإن نحيها نحى المروءة والندى　　وبأساً من الفولاذ أمضى وأصرم
ألا ليت شعرى ما دهى العرب إننى　　أرى الجو فى آفاقها يتسمم
أكل بنـــاء غيرهم متساند　　وكل قبيل غيرهم متقــــدم
أجل كل قوم فرطوا فى لغاتهم　　غدوا وصروف الدهر فيهم تحكم

* * *

أرى الغرب يعنى باللغات رجاله　　ونمشى الى أعلامها نتعــلم
هم يكبرون من رجال توفروا　　عليها إلى أن أكبر الناس منهمُ
وفى كل يوم يخرجون مؤلفاً　　نفيساً وبحثاً ينشر الفضل عنهمُ
ولا يهجرون للجديد قديمهم　　وذلك خلق عن رقى يترجم
وما ذاك إلا أن حباً يهزهم　　الى وطن هاموا به وترنموا

* * *

أرى أم الشرق استفاقت من الهوى
وعاودها سلطانها المتقــــدم

فدت وهمت للحياة طموحة ... وحطمت الأغلال فيما تحطم
رعى الله فى أرض العراقين نهضة ... أبت لهم أن يستذلوا ويهضموا
بنوا دولة أما حماها فمانع ... لحوزتها والمستقل بها همُ
على العلم والخلق المتين توطدت ... دعائمها والعلم بالخلق يدعم
وقامت فلسطين ترد حقوقها ... وما فى طلاب الحر للحق مأثم
وحرك من سورية العسف فانبرت ... تغالبه والشر بالشر يصدم
فان لم تنل ما قد أرادت نواله ... فمن كثب منها النجاح المحتم
وهاجت بنا الذكرى لخضراء تونس ... فأبصرت ثكلى نال منها التأيم
وفى مصر أخذ بالذى هو واقع ... وروح وفاق للحقيقة تألم
وغيرة لاوانٍ ولا متخشع ... ونشء الى سود النوائب يبسم

* * *

هوت أنجم بالأمس كن ثواقبا ... إلى ضوئها يعشو الجهول فيعلم
حسين بن والى قد أقض مماته ... مضاجع فى السودان فهى تألّمُ
هو المرء أدى للعروبة واجباً ... وعاش لوجه الله يتقى وينعم
وأودى المطيعى حجة الله فى الورى ... فغاب به كنز من العلم قيم
تقضى يملأ الدنيا علوماً وحكمة ... فويلى على ركن الهدى يتهدم
وأودى رشيد ذو المنار مدافعاً ... جريئاً على رد الضلالة يقدم
ومات الأديب الكاظمى وانه ... لرزء من الابداع فى الشعر يثلم
وبغداد من بعد الزهاوى أصبحت ... خلاء وكانت من قوافيه تزحم
مضوا وقرنا بالترحم ذكرهم ... وليس بمجدينا عليهم ترحم

* * *

بنى وطنى ان قمت للضاد داعياً ... فانىَ أدعو للتى هى أقوم
لقد وثق الله الروابط بينكم ... فلا تنقضوا بالله ما الله مبرم
أرى الضاد فى السودان أضحت غريبة ... وأبناؤها أضحت لها تتجهم
تولت وما دمعٌ عليها بفائض ... وما أحد منهم لها يتألم
وساءت مقاماً فهى ثكلى حزينة ... وعيّت جواباً فهى لا تتكلم
وذلك يفضى لانقراض وذلة ... ويفضى إلى أن فى سوى العرب ندغم
عزيز علينا أن تلين قناتها ... وأبناؤها فى نخوة العمر تهرم
عزيز علينا أن نراها هزيلة ... وجاراتها فينا تزيد وتعظم
كفانا هوانا أن ريباً يحوطنا ... وانا إذا رمنا الحديث نجمجم
وانا برغم العلم فى كل بلدة ... يحيط بنا هذا الظلام المخيم
تبدلت الأحوال حتى لقائل ... يقول على قدر التدلى التقدم
ونبئت فى السودان قوماً تآمروا ... على اللغة الفصحى فساءوا وأجرموا
وبالأدب القومى قالوا سفاهة ... وما لحنوا حقاً ولكن توهموا
الا نحن عرب قبل أن لعبت بنا ... صروف الليالى والجهول الغشمشم
أما والليالى العشر والفجر طالعاً ... وما الفجر فى الاسلام إلا محرم
إذا لم تحموا داءها وهو فاتك ... تهونوا وفى غير العروبة تدغموا
فعضوا عليها بالنواجذ إنها ... سلاحكم ان تخلفوه هزمتمُ
سلام عليكم إن عدمتم بيانها ... سلام على الفصحى سلام عليكم
عليك رسول الله نلقى رجاءنا ... فقد جعلت منا الحوادث تهدم
ونستنزل الارشاد من روحك التى ... على كل من يلقى السلام تحوّم
أصلى عليه ثم أذكركم بما ... يقربكم منه فصلوا وسلموا
(لحب ابن عبد الله أولى فانه ... به يبدأ الذكر الجليل ويختم)

(الخرطوم) عبد الله عبد الرحمن

نظر محمد إلى الأديان

للاستاذ مصطفى عبد الرازق

أستاذ الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب

كان ما تسرب إلى بلاد العرب من اليهودية والنصرانية قبل الإسلام قد نضحت عليه الوثنية الضاربة هناك يومئذ أطنابها ، ولم يكن المجوس والصابئة أهل توحيد خالص وإن ألحقوا بأهل الكتاب

قال الشافعي : بعثه والناس صنفان :

أحدهما أهل كتاب بدلوا من أحكامه وكفروا بالله فافتعلوا كذباً صاغوه بألسنتهم فخلطوه بحق الله الذى أنزل إليهم ، فذكر تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم من كفرهم فقال :

« وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[1]

ثم قال عز ذكره :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »[2]

وقال تبارك وتعالى :

« وقالتْ اليهودُ عزيرٌ ابنُ اللهِ ، وقالتْ النصارَى المسيحُ ابنُ اللهِ ، ذلكَ قولهمْ بأفواهِهمْ يضاهئونَ قولَ الذينَ كفرُوا منْ قبلُ قاتلهمْ اللهُ أنّى يؤفكونَ ؛ اتخذُوا أحبارهمْ ورهبانهمْ أرباباً منْ دونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مريمَ وما أمرُوا إلاّ ليعبدُوا إلهًا واحداً لا إلهَ إلاّ هوَ سبحانهُ عمّا يشركونَ »[3] . وقال تبارك وتعالى :

« ألمْ ترَ إلى الذينَ أوتُوا نصيباً منَ الكتابِ يؤمنونَ بالجبتِ والطاغوتِ ويقولونَ للذينَ كفرُوا : هؤلاءِ أهدَى منَ الذينَ آمنُوا سبيلاً ، أولئكَ الذينَ لعنهمْ اللهُ ومنْ يلعنِ اللهُ فلن تجدَ له نصيراً »[1]

وصنف كفروا بالله فابتدعوا ما لم يأذن به الله ونصبوا بأيديهم حجارة وخشباً وصوراً استحسنوها ، ونبزوا أسماء افتعلوها ودعوها آلهة عبدوها ، فإذا استحسنوا غير ما عبدوا منها ألقوه ونصبوا بأيديهم غيره فعبدوه ، فأولئك « العرب »

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم فى هـذا وفى عبادة ما استحسنوا من حوت ودابة ونجم ونار وغيره ، فذكر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم جواباً من جواب بعض من عبد غيره من هذا الصنف فحكى جل ثناؤه عنهم قولهم : « إنّا وجدنَا آباءنا على أمةٍ وإنّا على آثارهمْ مقتدونَ[2] » وحكى تبارك وتعالى عنهم أنهم قالوا : « لا تذرُنَّ آلهتكمْ ولاَ تذرنَّ ودًّا ولا سواعاً ، ولا يغوثَ ويعوقَ ونسراً وقد أضلُّوا كثيرًا[3] » (كتاب الرسالة ص ٢ — ٣)

وبين من كلام الشافعى أن الأديان التى كانت تظل بلاد العرب وما والاها عند ظهور الاسلام كانت ما بين دين وثنى يقوم على الشرك من أساسه ، وما بين أديان تقوم على الوحى الذى لا يأتى بغير التوحيد ، لكنها انحرفت عن سبيل الوحى فأصابها شوب من الشرك

وكان محمد صلوات الله وسلامه عليه يدعو الناس كافة إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له ، لا يميز فى هـذه الدعوة بين مشركين وأهل كتاب

وإذا كان القرآن ينادى :

« قل يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلَى كلمةٍ سواء بيننا وبينكمْ ألاّ نعبدَ إلاّ اللهَ ولا نشركَ به شيئاً ولا يتخذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً

(١) سورة ٣ آل عمران مدنية آية ٧٨
(٢) سورة ٢ البقرة مدنية آية ٧٩
(٣) سورة ٩ التوبة مدنية آية ٣٠ — ٣١

(١) سورة ٤ النساء مدنية آية ٥١ — ٥٢
(٢) سورة ٤٣ الزخرف مكية آية ٢٣
(٣) سورة ٧١ نوح مكية آية ٢٣

دونِ الله ، فإن تولّوا فقولوا أشهدُوا بأنّا مسلمونَ (١) »

فإن القرآن يقول أيضاً :

« إنّ الذينَ آمنوا والذينَ هادُوا والنصارَى والصابئينَ مَنْ آمنَ بالله واليوم الآخرِ وعملَ صالحاً فلهمْ أجرُهمْ عندَ ربِّهم ولا خوفٌ عليهم ولا همْ يحزنونَ (٢) »

لا تختلف دعوة محمد حين توجه إلى أهل الشرك الصراح من وثنيّي العرب ، أو إلى أهل الكتاب بلا نزاع من اليهود والنصارى ، أو إلى من يشتبه أمرهم ويختلط الرأي فيهم من الصابئة والمجوس

دعوة محمد إلى كل أولئك هي الدعوة إلى الدين الحق الواحد الذي لا يتغير بتغير الأنبياء والذي هو هدى أبداً

ولما كان دين الحق واحداً أوحاه الله إلى جميع أنبيائه وبينه في كل كتبه المنزلة فقد كان من الطبيعي أن يعتبر محمد أتباع الوحي ممن لهم كتاب أو شبهة كتاب أدنى إلى دعوته وإن حرفوا في دينهم ، وأرجى أن يثوبوا إلى ما في أصول مللهم من اخلاص العقيدة لله وحده

من أجل هذا اختلف حكم الاسلام في بعض المعاملات بين المشركين وأهل الكتاب ، فالمشركون لا تؤكل ذبائحهم ولا يتزوج المسلم منهم ، وإذا غالبهم المسلمون في الجهاد لم يأخذوا منهم جزية ولم يكن لهم سبيل إلا أن يخرجوا من شركهم إلى حظيرة التوحيد

أما أهل الكتاب فتؤكل ذبائحهم ويتزوج المسلمون منهم ، وإذا هزموا في الحرب واستولى المسلمون على ديارهم فللمسلمين أن يأخذوا منهم الجزية ليحموهم مما يحمون منه أنفسهم وأموالهم ثم يتركوهم في دينهم أحرارا

ولا خلاف بين المسلمين في أن اليهود والنصارى أهل كتاب ، وأن وثنيّي العرب في الجاهلية مشركون

واختلفت الروايات والأقاويل في حكم الصابئة والمجوس هل يلحقون بأهل الكتاب أم يلحقون بالمشركين

ولا شك أن ما عرف من أديان البشر بعد ذلك مما لم يكن معروفاً للعرب ، فيه للرأي والاجتهاد مجال من جهة إلحاقه بالشرك أو بأديان أهل الكتاب

وجملة القول أن محمداً يرى التوحيد دين الله الحق ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها ، فالمشركون عبدة الأوثان منحرفون عن فطرة الله ، ضالون عن صراطه المستقيم ، ومن عداهم قريبون من الإسلام الذي جمع الرسول صلوات الله وسلامه عليه جوهره في قوله لمن سأله عنه : « قل آمنت بالله ثم استقم »

مصطفى عبد الرازق

(١) سورة ٣ آل عمران مدنية آية ٦٤
(٢) سورة ٢ البقرة مدنية آية ٦٢

زوجةٌ وفت !..

للاستاذ محمد سعيد العريان



همّ الفتى (أبو العاص ابن الربيع ... ؛ ابن عبد شمس) ينصرف من مجلس خالته (خديجة بنت خويلد) رائحاً إلى داره، وإن فى نفسه لحديثاً ما ان يحاول بيانه ولا طاقة له بأن يكتمه .. ونظرت خديجةُ فى وجه الفتى الذى اتخذته ولداً، وقد ثكلت الولد، فأنكرته وما تنكَّرتْ حديث عينيه؛ ثم عادت تنظر إلى ابنتها (زينب) فتطيل النظر، فما لبثت أن ألهمت الرأى مما نظرت فى وجه الفتى والفتاة ....

وسعت خديجة الى زوجها تستعينه وتشير عليه: «يا محمد! أرأيت الى ابن أختى (هالة) — أبى العاص بن الربيع — إنه لذو جاه ومال وأمانة، وهو منا ومنك حيث علمت، نعم الفتى القرشىّ ... أفترى أن تتخذه ختَناً وولداً فتزوجه زينب ... ؟»

وافتر ثغر النبىّ الكريم عن ابتسامة الرضى، فما كان ليخالف خديجة فى رأى تراه، ولها فى نفسه ما لها من الحب والاعزاز، وهى فى نفسها مَن هى فى أصالة الرأى وحسن التقدير ...

وزفت زينب بنت محمد، الى أبى العاص بن الربيع ..

ومضت خديجة الى الزوجين المتحابين تبارك لهما وتدعو، أطيب ما تكون نفساً وأهنأ فكراً ... ومدت يمناها الى طوقها لتخلع قلادتها لتجعلها فى عنق زينب، هديةَ عروس ..

ونعم الزوجان بالسعادة حيناً فى دنيا من الحب والوفاء والايثار ... !

***

وأشرقت الأرض بنور ربها، وانبثق الفجر من غار حراء، يسعى محمدٌ فى نوره داعياً الى دين الله والى نبذ الشرك وعبادة الأوثان؛ فصدّق من صدّق واتبعه على هدى وبصيرة، ولجّ من لج فى الطغيان والعناد، وآمنت زينب فيمن آمن، ولكن أبا العاص لم يَهُن عليه أن يخلع دينه ... وضرب الزمن ضربته بين القلبين المتحابين فباعد بينهما الى حين

أسفت زينب، ونال منها اصرار أبى العاص على الكفر أى منال، وأسف أبو العاص، ونال منه اسلامُ زوجته مثلَ ما نال منها كفره؛ وشعر كلا الزوجين أن قوة أكبر من الحب تحاول أن تفصم عروته وتحلّ وثاقه: أما أحدهما فأعلن التمرد والعصيان، وقال لصاحبته: «لن ينال مما بيننا يا زينب أن تكونى على دينك وأثبت على دينى، فلن أسلمك للفراق .... !»؛ وأما هى فقالت: «قليلا يا صاحبى، لست حِلاً لك وأنت على ذاك الدين، فأسلمنى لربى أو أسلم معى .. لن تكون زينب لك بعد اليوم إلا أن تؤمن بما آمنت!»

واصطرعت فى نفس الزوج المحب قوتان تتجاذبانه: حفاظه على ذلك الدين الذى أورثه آباؤه، وذلك الحب الطاغى المستبد الذى يحاول أن ينتزع امرأة مسلمة من دينها الذى آمنت به ..

وأطرق الزوجان ساعة، ثم التقى النظران ... وفرق الدين بينهما جسدين، وظل قلباهما مؤمنين بالحب؛ وعاشا يظلهما سقف واحد ولا يلتقيان إلا نظرات ... وتصرمت سنون ..

***

ودعت قريش الى النفير العام: «يا أهل مكة، الى بدر، الى بدر؛ إن محمدا وأصحابه قد وقفوا لتجارتكم على الطريق بين الشام ومكة، فرُدوا عليهم كيدهم ... !»

وخرج أبو العاص فيمن خرج من المشركين إلى لقاء محمد وأصحابه فى بدر، ليُجازوهم بما اعتدوا؛ وظلّت زينب فى دارها تنتظر ... إن هنالك قوتين تصطرعان، وموجتين تتدافعان،

تدرى لأبيها تتمنى الغلبة ، بلى ؛ إنها لتدرى ، فهنالك أبوها محمد ، لو لم تحببه وتتمنّ له النصر لأنه أبوها ، لأحبته وتمنت لأنه رسول الله ، لأنه قائد جيش الاسلام ، لأن إلى جانبه فى الصف إخوتها فى الله . . . ولكن . . . ولكن زوجها . . . وجلست تدعو الله : اللهم اجعل الدائرة على المشركين ، ولكن نج أبا العاص . . . !

وعاد الركب المهزومون ينبئونها : « يا زينب ، لقد دارت علينا الدائرة ، ونال منا المسلمون كلّ منال ، يا زينب ، ولكن أبا العاص فى الأسرى ، لا ندرى ماذا سيفعل بهم أصحاب محمد . . . ! »

فما توانت الزوجة الوفية هنيهة ؛ لقد كان لديها من مال زوجها ما تفتديه به ، لديها المال والنعم ، ولكنها نظرت أمراً . . . ورفعت يدها إلى صدرها فخلعت قلادتها ، ثم شيعت بها الرسول يفتدى بعقد خديجة ابن أخت خديجة وختَنَ محمد . . . وجعلت هدية عرسها من أمها مهر الحرية للزوج الذى فقدته مرتين . . .

وذهب رسول زينب يسعى عن أمرها حتى وقف على محمد : « يا محمد ، هذا مال من مال أبى العاص ، وهذه قلادة خديجة بنت خويلد ، بعثتى بهما زينب فى فداء أبى العاص . . . ! »

ونظر رسول الله إلى القلادة نظرةً جمعت له الزمان كله فى لحظة فكر ، واحتشدت صور الماضى أمام عينيه من خلل حبات العقد التالى ، ورفّت فى ذهنه صورٌ حبيبة اليه ، فكأنما نشرت خديجة من موت ، وكأنما انطوت البيداءُ بزينب ، فاجتمعتا اليه تسألان العفو عن هذا الأسير . . . ونظر محمد فى أصحابه فقال : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها فافعلوا . . . ! »

وعاد أبو العاص إلى مكة ، وفى نفسه صورة أكثر إشراقاً لهذه الزوجة البرة الكريمة ، ولكنه عاد لا ليشكر لها ما منّت عليه ، بل ليقول : « عودى إلى أبيك يا زينب ! » وفاء بما أخذ عليه رسول الله من عهد بأن يطلقها تسير إليه . . . وخنقته العبرة فما استطاع أن يتمالك ولا أن يشيعها إلى طرف البادية ؛ ومن أين له أن يجد فى نفسه القدرة على توديع من يحب ، وإنه ليعلم أنه الوداع الأخير ما دام سلطان هذا الدين قائماً بين القلبين . . . :

ومضى يقول لأخيه كنانة ابن الربيع : « يا أخى ، إنك لتعلم موضعها من نفسى ، فما أحب أن لى بها امرأة من قريش ؛ وإنك لتعلم أن لا طاقة لى بأن أفارقها ، فاصحبها عنى إلى طرف البادية ، حيث ينتظرها رسولا محمد (يبطن يأجج) ، وارفق بها فى السفر ، وارعها رعاية الحرمات ولو نثرت دونها كنانتك ، لا يدنو منها رجل حتى تبلغ . . . ! »

وافترق الزوجان فلا سبيل إلى لقاء ؛ وأقام أبو العاص بمكة لا يعيش فى أيامه ، وأقامت زينب عند رسول الله بالمدينة معتلّة البدن واهنة القلب ، لولا الايمان والتقى يشدان من عزمها ويربطان على قلبها لأعجلها الموت ولم تظفر بلقاء . . .

* * *

ومضت سنوات وسنوات ؛ وخرج أبو العاص فى تجارة الى الشام ، يحمل من أموال قريش وبضاعتها فوق ما يحمل من ماله وبضاعته ، وبلغ حيث أراد ، فباع واشترى وتعوض ، ثم قفل راجعاً بمال كثير وربح جم ؛ وفيما هو على الطريق إذ لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابوا ما معه وأعجزهم هارباً ؛ وآب المسلمون إلى المدينة فرحين بما أفاء الله عليهم ، ووقف أبو العاص على رأس شاهقة يتلفّت صفر اليدين ، فما وجد إلا الصحراء تبرق بالحصى ، ومد النظر إلى بعيد ، فما عرف له طريقاً يسلك ، وخُيّل اليه أن وراء كل ثنيةٍ فارساً معلماً يتربص به لقد فقد ماله ومال الناس ، ولا سبيل إلى أن يرد الأمانات إلى أصحابها ، وإنه لموشك أن يفقد حياته بعد ما فقد ماله وأماناته ؛ واجتمع عليه الهم فما درى أين النجاة لنفسه ولعرضه مما عرض له . إن النحس ليلاحقه فى كل مسير . . . وعادت اليه الذكرى ، ورجع الزمانُ القهقرى أمام عينيه ، كما يجتمع التاريخ بزمانه ودنياه فى لحظة ومكانٍ لعينَى محتضر ؛ وتذكر من قريب تلك الحبيبة التى أحيته مرتين : حين وهبت له الشعور بالحياة فى الحب ، ثم حين وهبت له الحياة نفسها وافتدته عند أبيها بقلادة خديجة . . . وخُيل إليه أنه يراها ، وأنه يحدثها فتستمع اليه ، فهمس : « أتهبين لى الحياة ثالثةً يا زينب . . . ! »

وأقبل أبو العاص إلى المدينــة تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ؛ فاستجارها وطلب إليها أن تعينه على رد ماله ، فأجارته . . .

وأصبح الناس يسعون إلى المسجد ، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبر الناس معــه ؛ وإذا صوت يهتف من وراء جدار : « أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع . . . فهو فى حمايتى وأمنى ! » وكانت زينب هى التى تهتف . . .

وفرغ النبى من صلاته فأقبل على الناس فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ . . . أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم . انه يجير على المسلمين أدناهم . . . ! » ثم دخل على ابنته فحدثها وحدثته . وأكبر محمد أن يرى فى ابنته هــذا الوفاء لزوجها الذى فارقته لأمر الله ، وامتنعت عليــه لأمر الله ، وقطعت ما بينه وبينها من شهوات النفس لأمر الله ؛ ثم ما برحت مع كل أولئك تمنحه البر والوفاء والمعونة ؛ برّ المسلمة ، ووفاء الصــديقة ، ومعونة الانســان . . . ونال من نفس النبى ما سمع وما علم ، فأضمر فى نفسه رجاء الى الله . . .

ثم بعث الى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص ، فقال : « ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ؛ فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك ؛ وان أبيتم ، فهو فىء الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به . . . » قالوا : « بل نرده عليه . . . » . وقال نفر منهم : « يا أبا العاص ، هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال ؟ فانها أموال المشركين . . . » فقال الرجل : « بئس ما أبدأ به اسلامى أن أخون أمانتى . . . ! » واستعلت كبرياؤه وأمانتــه وهو بين ذلة المستجير وأسر الفقر ، وأطلت نفسه المؤمنــة بفطرتها من وراء ظلمات الشرك الذى يجهر به ، مستكبراً أن يبيع دينه بالمــال . . . !

وردوا اليه ماله ، كرامة لرسول الله وا كباراً لزينب ، وعاد الرجل الى مكة بماله ومال الناس ، ونفســه تفيض بمعان شتى ؛ وبين عينيه صورة لا تفارقه ، وفى قلبــه وجيب لا يهدأ ، وعلى طرف لسانه كلام . . . فلمــا بلغ أدى الى كل ذى مال ماله ، ثم قال : « يا معشر قريش ، هل بقى لأحد منكم عندى مال ؟ »

قالوا : « لا ، فجزاك الله خيراً ، فقد وجدناك وفياً كريماً . » قال : « فأنا أشهد أن لا آلــه الا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله والله ما منعنى من الاسلام عنده الا تخوف أن يظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها أسلمت . . . »

* * *

وخرج أبو العاص بن الربيع الى المدينة يهديه نوران فى قلبه وأمام عينيه ، وسار فى مثل موكب العروس تتدافعــه المنى على رمال صحراء ، الى حيث يجد نور اليقين وأنس الحبيب ، فى حديث محمد وفى وجه زينب ، وتلاقى الزوجان المتحابان مرة ثانية ، بعد فراق طويل مر من دونه سنوات وسنوات وسنوات ، ولـكن الزوجة الوفية كانت قد أدت واجبها وفرغت من دنياها حين هدت الرجل الذى أحبته ووفت له بمقدار ما أحبها ووفى ؛ فما مضى زمان بعد هذا اللقاء استكمل فيه الرجلُ أسباب دينه ، حتى كانت هى قد استوفت أنفاسها على الأرض ؛ وماتت زينب ولـكنها خلفت ذكرى أطيب الذكرى ، وضربت المثل أبلغ المثل ، فى وفاء الزوجة ، واخلاص المحبة ، وصدق الايمان

محمد سعيد العريان

فى أبواب المدينة

ثنيّـــة الوداع*

للاستاذ على الطنطاوى



مضت ساعة كاملة، ونحن نعالج السيارة لنخرجها من الرمل، نرفعها طوراً بالآلة الرافعة وطوراً بأيدينا، ونزيح الرمال من طريقها، ثم نمدّ لها ألواح الخشب لتمشى عليها، ونجرّها بالحبال، وندفعها بالأيدى حتى إذا سال منا العرق، ونال منا التعب مشت على الألواح، حتى إذا وصلت إلى نهايتها، عادت فغاصت فى الرمل الى الأبواب ... ...

فأيسنا وبلغ منا الجهد، وهدّنا الجوع والتعب والحرّ والعطش، فألقينا بأنفسنا على الرمل صامتين مطرقين، حيارى قانطين

وتلفتّ فلم أر إلاّ الرمال المحرقة، تمتد الى حيث لا يدرك البصر، متشابهة المناظر، متماثلة المشاهد ...

فى مَهمهٍ تشابهت أرجاؤه، كأن لون أرضه سماؤه، فرحت أفكر فى هذه السبعة عشر يوماً، وماقاسينا فيها من الجزع والتعب والجوع والعطش، وأتصور النفد الرهيب الذى ينفد فيه ماؤنا وزادنا، ويلفحنا فيه سموم الحجاز وشمسه المحرقة، فأرتجف من الرعب وجعلت أحدّ النظر فى هذا الأفق الرحيب، لعلى أرى قرية أو خياماً، فلا أرى إلاّ لمع السراب، ولا أبصر إلاّ هذه الجبال التى طلعت علينا أمس فاستبشرنا بها وابتهجنا وظننّاها قريبة منا، فسرنا مائة وعشرين كيلاً وهى قيد أبصارنا، تلوح لنا من بعيد كأنها بحر معلّق حيال الأفق ضائع بين السماء والأرض ... لم تضح ولم تقترب

فشققت هذا السكون وصحت بالدليل (محمد المَطَوى)

— يا محمد! إيش تكون هذه الجبال؟

— فقال: هذه يا خوى جبال المدينة، وحنّا (ونحن) إن شا الله الظهر فيها

— قلت: ما تقول؟

ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتق، وأحسست كأن قد صبّ فى أعصابى عزم أمة، وقوة جيش، وظننت أنى لو أردت السحاب لنلته، ولو غالبت الأسد لغلبتها، ولو قبضت على الصخر لفتّته، وجعلت أقفز وأصرخ، لا أعى ما أنا فاعل، فقد استخفنى الفرح، وسرّنى من هذه الكلمة أكثر ما يسرّنى أن يقال لى: أنت أمير المؤمنين

وصحت بأصحابى فقاموا كالأسود

* * *

عالجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل، وملنا بها عن هذه الكثبان حتى ألقيناها عن ايماننا، وانتهينا الى أرض شديدة درجت عليها السيارات، فاستندت الى النافذة، وأطلقت نفسى تطير فى سماء الأمانى، فلم أدع صورة للمدينة إلاّ تصورتها، وأقمتها أمام عينىّ، وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال، فلا أطمئن إليها، ولا أجدها إلاّ دون مافى نفسى ... ولم يكن يربطنى بالأرض إلا صوت الدليل، وهو يهتف بالسائق:

— سر عيناً، مل شمالاً، لج بين هذين التلّين، دع هذه القارة على اليمين، احترس من هذا الشعب، تنكب هذه الرملة.. ثم يعود السكون

سرنا أربعين كيلاً أخرى، ولا تزال هذه الجبال تلوح فى الأفق كأنها خيال حلم بعيد، يشعّ منها نور غريب، يومض من وراء القفر، كما يومض الأمل المشرق فى ظلمة اليأس، وكنا قد شارفنا سكة الحديد فتخطيناها مستعبرين، ودخلنا فى أودية ما لها آخر غابت عنا فيها الجبال التى كنا نراها، فنتأنس بمرآها وقاسينا فيها الشدائد من التواء الأرض وكثرة الأحجار وتشابه المسالك، ولم يكن فينا من ينبس، الاّ أن يعرض لنا جبل أو شعب فأسأل الدليل عن اسمه لأكتبه فى دفترى الذى سُرِّ منى فى آخر الرحلة ... ثم أرجع الى صمتى الطويل

(*) انظر مقالينا (فى طريق المدينة) الرسالة ٩٧ والرسالة ١٢٨

فلما زال النهار، صاح بي الدليل:

— هيه. انت يالّ كاتب. اكتب: هذا أحد!

— فصحت: اذن قد وصلنا

— فقال: ما قلت لك الظهر، هذا أحد، بقي نصف ساعة.

لم يكن يدري الدليل الاعرابي أيّ ذكريات انبعثت في نفسي حين قال: هذا أحد! وأيّ عالم تجلى لعينيّ، فرأيت المعركة قائمة والمسلمين ظافرين، قد منحهم الله أكتاف العدوّ، ورأيت الرّماة إذ يزلون عن أماكنهم، يبتدرون الغنائم، وخالداً حين يرتد بخيله على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول وغرتهم الدنيا، ورأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ثابتاً مثل أحد، وحوله صحابته الغرّ الميامين، يذبون عن الدين، ويحمون حمى النبوة، ثم أبصرت هنداً قائمة على جثة البطل السميذع، سيد الشهداء، وكان قد أكل في بدر كبدها، فأرادت أن تأكل كبده، فشقت عنها فاستخرجتها فلاكتها، فلما وجدت بفيها صلادة الصوان لفظتها

وأبصرت النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً عليه يبكي، فلما رأى ما مثل به شهق، ولم يكن منظر أوجع لقلبه منه، ثم قال:

رحمك الله يا عم، فلقد كنت وصولاً للرحم، فعولاً للخيرات، فوالله لئن أظفرني الله بالقوم لأمثلن بسبعين منهم، فما برح حتى هبط عليه الوحي، فقام يتلو قول الله جل وعزّ:

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » فانصرف وقد عفا

ورنّ في أذني صوت أبي سفيان: أعل هبل، فتلفت، فما رأيت هبل، ولا شيعة هبل، وإذا هو قد درج مع من درج، لم يبق إلاّ الله الأعلى الأجل، ثم سمعت صوت أبي سفيان يرنّ في أذني مرة ثانية، يخرج من هناك من أرض الشام، التي فتحها لهم سيد العالم، قوياً شديداً، ينادي في المعركة الحمراء، بصوت سمعه كل من في اليرموك:

يا نصر الله اقترب، الثبات الثبات، يا معشر المسلمين. فثبتوا وجاءهم النصر وملكوا سورية من أقصاها إلى أقصاها فهي لهم ولأبنائهم الى يوم القيامة، ورأيت مئات من مثل هذه الصور، فأحسست كأنما انتقلت الى العهد الأول، أشهد هبوط الوحي، وأرى جلال النبوة وعزة الاسلام . . .

ونظرت، فاذا أحد لا يزال بعيداً، يعترض هذا الوادي الذي نسير فيه مشرقاً بهياً، تومض عروقه المختلفة الألوان من الأخضر البهيّ، إلى الأحمر المشرق، الى الأزرق اللامع، فتمتزج هذه الألوان وتختلط، فيكون لها في العين أبهى منظر، وفي القلب أسمى شعور، فازداد بي الشوق، فأقبلت أحتث السائق وأستعجله، أود لو تطوى له الأرض طياً أو يطير بنا الى المدينة طيراناً، فلا أرى السيارة تريم مكانها، وأجد أحداً لا يزال بعيداً، فأعود فأستحث السائق . . . ومالي لا أسرع إلى أحد وأحبه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحد جبل يحبنا ونحبه. ومالي لا أزداد شوقاً الى المدينة، وليس بيني وبينها إلاّ ربع ساعة؟

وأعظم ما يكون الشوق يوماً   إذا دنت الخيام من الخيام

***

ولما خرجنا من الوادي، وانتهينا الى الفضاء الرحب، رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين، ورأينا سلعاً وهو جبل أسود عال، يقوم حيال أحد فيحجب المدينة وراءه، فلا يبدو منها إلاّ جانب الحرة، وطرف النخيل، فذكرت قول محمد بن عبد الملك وقد ورد بغداد فحنّ إلى المدينة:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بسلع ولم تغلق عليّ دروب
وهل أحد بادٍ لنا وكأنه   حصان امام المقربات جنيب
يخب السراب الضحل بيني وبينه   فيبدو لعيني تارة ويغيب
فان شفائي نظرة ان نظرتها   الى أحُدٍ والحرتان قريب
واني لأرعى النجم حتى كأنني   على كل نجم في السماء رقيب
وأشتاق للبرق اليماني إن بدا   وأزداد شوقاً أن تهب جنوب

***

وكان علينا أرطال من الغبار والأوساخ، فاستحيينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ندخل مدينته ونسلم عليه، ونحن على مثل هذه الحال؛ وكانت البساتين والحيطان قريبة منا، فسرنا اليها، نخب في الرمل، فلما دنونا من أحدها، سمعت غناء موقعاً على ناي، كأشجى وأطرب ما سمعت من الغناء فتعجبت، ثم ذكرت أن أهل المدينة مذ كانوا أطرب الناس وأبصرهم بالغناء، وهممت بالدخول، ثم أحجمت وقلت:

لعل المغني امرأة، فلقد كان الذي سمعت صوتاً طرباً رقيقاً لا يكون إلاّ لامرأة أو غلام، ثم حانت مني التفاتة، من فرجة

الباب ، فاذا المغنى عبد أسود كالليل ، واذا الذى حسبته ناياً ناعورة يديرها جمل ، لها مثل صوت النواعير فى حماه لكن صوتها أرق وأحلى ، واذا هذا السور الذى تلطمه الصحراء برمالها كما تضرب الأواذيّ صخرة الشاطئ ، قد عرش على جانبه الآخر الياسمين ، وأزهر عليه الفلّ ، وظللته الأشجار وحنا عليه النخل ، ورأينا الماء يهبط على الساقية ، كأنه ذوب اللجين ، ثم يجرى فيها صافياً عذباً متكسراً ، فجننا برؤية الماء الجارى ، ولم نكن قد رأيناه منذ سبعة عشر يوماً ، الا مرة واحدة فى العلا ، واقتحمنا الباب ، وأقبلنا على الماء نغمس فيه أيدينا ، وأرجلنا ، ونضرب به وجوهنا ، ثم لا نشبع منه ولا ننصرف عنه ، حتى أرحنا رائحة الحياة ، فاستلقينا على الأرض ننظر الى الصحراء الهائلة ، التى أفلتنا منها وضرب بيننا وبينها بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب

* * *

اغتسلنا ولبسنا ثياباً بيضاء نظيفة ، وتطيبنا ، ثم ركبنا فى السيارات الى المدينة ، فلم نقطع سلماً حتى بدت لنا المدينة كصفحة الكف ، يحف بها النخيل ، وتكتنفها الحرار ، وتقوم فى وسطها القبة الخضراء ، تشق بنورها عنان السماء ، وتكشفت لنا دنيا كلها خير وحقيقة وجمال ، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال

من هنا خرج جند الله الثلثمائة الى بدر ، فدكوا صرح الاستبداد والجهالة ، ورفعوا منار الحرية والعلم ، أقاموه على جماجم الشهداء ، وسقوه هاتيك الدماء ، فأضاء نوره الجزيرة كلها ، ثم قطع الرمل ، فأضاء الشام والعراق ، ثم قطع البحر فأضاء الهند واسبانية ، فاهتدى به الناس الى طريق الكمال الانسانىّ

من هنا خرج الأبطال الذين هدموا وبنوا وعلموا : هدموا الدول المتفسخة الجاهلة التى وقفت فى طريق الحضارة ، فلا هى تتقدم بها ولا هى تدعها تمشى فى طريقها . وبنوا الدولة التى ألفت بين فلسفة يونان وحضارة فارس وحكمة الهند ، وجعلتها جميعاً سفراً واحداً فاتحته القرآن ، وروحه الاسلام ، ثم جلسوا على منابر التدريس فى جامعات بغداد ومصر وقرطبة ليعلموا العالم ، فكان من تلاميذهم ملوك أوروبا وباباواتها ...

من هنا خرج أبو بكر وعمر ، وعبد الملك والمنصور والرشيد وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين وسليمان القانونى

من هنا خرج أبو حنيفة ومالك وسفيان والنووى والغزالى والفارابى وابن سينا وابن رشد

من هنا خرج خالد وسعد وقتيبة وطارق وسيف الدولة والغافقى

من هنا خرج حسان والفرزدق وجرير وأبو تمام والمتنبى والمعرى

من هنا خرج الجاحظ وأبو حيان وابن حزم

من هنا خرج الف ألف عظيم وعظيم

تقدست أيتها المدينة ... أم المدن ، وظئر العظماء ؟

* * *

وكنا قد بلغنا هذا المضيق الصخرى ، بين هضبتى سلع ، فنظرت فى خريطة للمدينة كانت معى ، وقلت للدليل : أما هذا ذباب ؟ قال : بلى والله فابدريك أنت ؟

قلت : أما هذا مسجد الراية ؟ قال : بلى . قلت : هذه هى ثنية الوداع ، وخفق قلبى خفقاناً شديدا ، وخالطنى شعور بالهيبة من دخول المدينة ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما فى نفسى من الفرح والسرور ، وجعلت أتأمل المدينة ، وقد دنونا منها ، حتى لقد كدنا نصير بين البيوت ، وأحدّق فى القبة الخضراء التى يثوى تحتها أفضل من مشى على الأرض وقد شخص بصرى وكدت لا أرى ما كان حولى لفرط ما أحس من جيشان العواطف فى نفسى ... حتى غامت المشاهد فى عينىّ ، وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء ، وأحسست كأنى قد خرجت من نفسى ، وانفصلت من حاضرى وذهبت أعيش فى عالم طلق لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان ، فسمعت أصواتاً آتية من بعيد ... من بعيد ، وسمعتها تزداد وتقوى ، حتى تبينت فيها قرع الطبل ، ووعيت أصوات الولائد ، يضربن بالدفوف وينشدن :

طلع البدر علينا من « ثنيات الوداع »
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ورأيت المدينة قد سالت بأهلها ، فملأ الناس الحرّة وسدّوا الطرق ، وغطى النساء الأسطحة ، ولم يبق فى المدينة أحد إلا خرج لاستقبال سيد العالم ، وهو قادم ليس معه صلى الله عليه وسلم إلا الصديق الأعظم ، لا يلمع على جبينه التاج المرصع ، ولا يحمل فى يده صولجان الملك ، ولا تسير وراءه العساكر والجنود ، ولكن يضيء على جبينه نور النبوة ، ويحمل فى يده هدى القرآن ، وتسير وراءه الأجيال ، ويتبعه المستقبل ، وتحف به الملائكة ، ويؤيده الله !

ثم سار وسارت وراءه هـذه الجموع إلى القرية التى لبثت قروناً ضائعة بين رمال الصحراء ، لا يدرى بها التاريخ ، ولم تسمع بها القسطنطينيـة ، ولم تعلم بوجودها روما ، فجاء هذا الرجل ليهزها وينفخ فيها روح الحياة ويجعلها أم الدنيا وعاصمة الأرض

إلى المشر اليمانين الذين جعلوا بأسهم بينهم ، فلم تمتد عيونهم إلى أبعد من هذه الحرار ، ولم يطمعوا من المجد بأكثر من أن يسحق بعضهم بعضاً ، لينشئهم بالقرآن خلقاً آخر ، ويسلمهم مفاتيح الأرض ، ويضع فى أيديهم القلم الذين يكتبون به أعظم تاريخ للبطولة والعلم والعدالة ، فأطاعوا ولبوا ، ثم مشوا إلى القادسية واليرموك ، ثم أصبحوا سادة العالم ، ورأيت الأنصار يستبقون إلى إنزاله صلى الله عليه وسلم والتشرف به ويصيحون به :

هلم يا رسول الله إلى القوة والمنعة ، فيقول : خلوا سبيلها فانها مأمورة ، ويدعها تمشى وقد أرخى لها زمامها ما يحركها وهى تنظر يميناً وشمالاً ، حتى أتت دار بنى مالك النجار فبركت عند باب المسجد ، ثم ثارت وبركت فى مبركها الأول

فنزل عنها صلى الله عليه وسلم وقال : ههنا المنزل إن شاء الله ، وكان المسجد مربداً لغلامين يتيمين فى المدينة ، فاشتراه صلى الله عليه وسلم وانطلق يحمل الأحجار بيده الكريمة ليضع أسس أكبر جامعة بثت الهدى فى الأرض !

* * *

ونظرت فاذا السيارات أمام باب السلام ، فاشرأبت الأعناق وبرقت الأبصار ، ودمعت العيون ، وخفقت القلوب ، وتعالى الهتاف ، وكانت حال لا سبيل الى وصفها قط

فنزلنا ودخلنا المسجد نسلم على رسول الله صـلى الله عليه وسلم ... ...

على الطنطاوى

علم الحيل عند العرب

للأستاذ قدري حافظ طوقان

لقد أصبح علم الطبيعة من العلوم التي لها اتصال وثيق بالحياة، وشأن عظيم في تقدم المدنية الحديثة القائمة على الاختراع والاكتشاف، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن علم الطبيعة هو الأس الذي شيد عليه صرح الحضارة الحالية. وهو لم يتقدم تقدماً محسوساً إلا حينما أشرف القرن التاسع عشر الميلاد على ختامه. وفي هذا القرن — القرن العشرين — دبت اليه عوامل التحوّل واعتنى به علماء عصرنا عناية فائقة، فأنشأوا المختبرات وأنفقوا عليها المبالغ الطائلة، وبلغوا في إتقانها درجة كبيرة استطاعوا بواسطتها أن يحلوا بعض المشاكل العلمية، وأن يجيبوا على مسائل كثيرة غامضة؛ وظهرت من ذلك عجائب الكون بصورة أوضح وأتم، واستخدم الانسان ما اكتشفه من نواميس الطبيعة والحياة فيما يعود عليه بالتقدم والرقي، فلولا بعض هذه النواميس ولولا فهمه إياها فهماً مكنه من الاستفادة منها لما كانت السابحات في السماء والعائمات على الماء، ولما كان في الامكان الغوص إلى أعماق البحار وجعل المولدات والمحركات الكهربائية في متناول الانسان، ولما استطاع أن يطوّق القارات بالأسلاك الكهربائية، وأن يملأ الجو بعجيج الأمواج اللاسلكية، وقد حملت على أجنحتها الأنباء والأخبار والحوادث... ولما نمت الصناعة هذا النمو الغريب. وازدهرت هذا الازدهار العجيب. وعلى كل حال يمكن القول إنه بفضل البحث العلمي وبفضل ما اكتشفه الانسان من القوانين الطبيعية وعلاقاتها مع بعضها سيطر الانسان على عناصر الطبيعة هذه السيطرة القوية، سيطرة جعلته يعمل من المستنبطات قوى يستخدمها في قضاء مآربه المتنوعة المتعددة، ويخضعها لتقوم بأعمال المدنية الحديثة المختلفة المعقدة، سيطرة أحدثت انقلاباً بعيد الأثر خطير الشأن في الحياة والحضارة... إن علم الطبيعة وهذا شأنه وتأثيره وهذه خطورته لجدير بنا أن نهتم به وأن نتعرف عليه ونقف على تطوره وتاريخه وأثر الأمم في تقدمه، ويهمنا بصورة خاصة أن نعرف مآثر أسلافنا وما أحدثوا فيه من النظريات والآراء. وسنتناول في هذا المقال المجهود العربي في علم الحيل — أي علم الميكانيكا — محاولين تبيان فضلهم عليه وما قدموه من جليل الخدمات في هذا الميدان

... إن علم الطبيعة من العلوم التي اعتنى بها الأقدمون فقد كان معروفاً عند علماء اليونان، واليهم يرجع الفضل في اكتشاف كثير من مبادئه الأولية ولهم مؤلفات عديدة ترجم العرب أكثرها. ولم يكتف العرب بنقلها بل توسعوا فيها وأضافوا اليها إضافات هامة تعتبر أساساً لبعض المباحث الطبيعية. وهم الذين وضعوا أساس البحث العلمي الحديث وقد قويت عندهم الملاحظة وحب الاستطلاع، ورغبوا في التجربة والاختبار فأنشأوا (المعمل) ليحققوا نظرياتهم وليتأكدوا من صحتها. ومن الفروع التي أصابها شيء من اعتناء العرب واهتمامهم بحوث الميكانيكا أو علم الحيل، ومع أنهم لم يبدعوا فيه إبداعهم في البصريات الا أنهم استنبطوا فيه بعضاً من المبادئ والقوانين الأساسية التي كانت من العوامل التي ساعدت على تقدمه ووصوله إلى درجته الحالية. لقد ترجم العرب كتب اليونان في الميكانيكا ككتاب الفيريكس لأرسطوطاليس، وكتاب الحيل الروحانية، وكتاب رفع الأثقال لايرن، وكتاب الآلات المصوتة على بعد ستين ميلاً لمورطس، وكتب هيرون الصغير في الآلات الحربية، وقطيزنيوس وهيرون الأسكندري في الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وغيرها. اطلع العرب على هذه المؤلفات ودرسوها ووقفوا على محتوياتها ثم أخذوها وأدخلوا تغييرات بسيطة على بعضها وتوسعوا في البعض الآخر، واستطاعوا بعد ذلك أن يزيدوا عليها زيادات تعتبر أساساً لبحوث علم الطبيعة المتنوعة. وليس في الامكان أن نجول كثيراً في هذا المجال حول مآثر العرب في الميكانيكا، ولكن سنأتي على ذكر شيء من مجهوداتهم فيه وما قدموه من الخدمات لهذا الفرع من المعرفة، وما كان لهذه المجهودات ولتلك الخدمات من أثر بيّن في تقدمه ورقيه.

لقد كتب العرب في الحيل، وأشهر من كتب في هذا البحث محمد وأحمد وحسن أبناء موسى بن شاكر «ولهم في الحيل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد..»(1)

وهي — أي الحيل — شريفة الأغراض، عظيمة الفائدة،

(1) ابن خلكان في كتاب وفيات الأعيان — ج ٢ ص ٧٩

مشهورة عند الناس [١] ويحتوى هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكي عشرون منها ذات قيمة عملية [٢] . وكان علماء العرب يقسمون علم الحيل الى قسمين : الأول منهما يبحث فى جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته . والثانى فى آلات الحركات وصنعة الأوانى العجيبة . وألف العرب فى علم مراكز الأثقال ، وهو « علم يتعرف منه ثقل الجسم المحمول ، والمراد بمركز الثقل حد فى الجسم يتعادل بالنسبة الى الحامل » [٣] ، ومن الذين ألفوا فيه أبو سهل الكوهى ، وابن الهيثم ، وبنو موسى

وكذلك للعرب فضل فى علم السوائل ، فلأبى الريحانى البيرونى فى كتابه الآثار الباقية شروح وتطبيقات لبعض الظواهر التى تتعلق بضغط السوائل وتوازنها ، ووضعوا فى هذا كله مؤلفات قيمة . وقد استنبطوا طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من حساب الوزن النوعى وكان لهم فيه ميل خاص ، وقد يكون ذلك آتياً من رغبتهم الشديدة فى معرفة الوزن النوعى للأحجار الكريمة وبعض المعادن ، وهم أول من عمل فيه الجداول الدقيقة فقد حسبوا كثافة الرصاص مثلا فوجدوها ١١,٣٣ بينما هى ١١,٣٥ والفرق بين المقدارين ضئيل

وفى كتاب عيون المسائل من أعيان المسائل لعبد القادر الطبرى جداول فيها الأثقال النوعية للذهب والزئبق والرصاص والفضـــة والنحاس ، والصفر ، والحديد ، ولبن البقر ، والجبن والزيت ، والياقوت ، والياقوت الأحمر ، والزمرد واللازورد والعقيق ، والماء والبلخش والزجاج ؛ واستطاعوا أن يحسبوا أثقال هذه المواد النوعية بدقة أثارت اعجاب العلماء . وعمل البيرونى تجربة لحساب الوزن النوعى ، واستعمل لذلك وعاء مصبه متجه الى أسفل ، ومن وزن الجسم بالهواء وبالماء تمكن من معرفة المقدار المزاح ، ومن هذا الأخير ووزن الجسم بالهواء حسب الوزن النوعى . وقد وجد الوزن النوعى لثمانية عشر عنصراً ومركباً من الأحجار الكريمة والمعادن ، ويعترف سارطون بدقة تجارب البيرونى فى ذلك

واخترع الخازن آلة لمعرفة الوزن النوعى لأى سائل ، واستعمل بعض علماء العرب قانون أرخميدس فى معرفة مقدار الذهب والفضة فى سبيكة ممزوجة منهما من غير حلها . وعلى كل حال فالذين كتبوا فى الوزن النوعى كثيرون ، منهم سند بن على والرازى وابن سينا والخيام والخازن وغيرهم ، وكانت كتاباتهم مبنية على التجربة والاختبار ، واستعمل البعض موازين خاصة يستعينون بها فى ايجاد الكثافة ، فقد استعمل الرازى ميزاناً سماه الميزان الطبيعى [١] وله فى ذلك كتاب محنة الذهب والفضة والميزان الطبيعى . وللخازن كتاب ميزان الحكمة كتبه سنة ١١٣٧ م وفيه وصف دقيق مفصل للموازين التى كان يستعملها العرب فى تجاربهم ، وفيه أيضا وصف لميزان غريب التركيب لوزن الأجسام بالهواء والماء [٢] ، ونجد فيه جداول الأوزان النوعية لكثير من المعادن والسوائل [٣] والأجسام الصلبة التى تذوب فى الماء [٤] وهذه الجداول دقيقة جداً ومستخرجة بطرق متنوعة . ويقول سارطون إن ابن سينا والخيام أوجدا طرقا عديدة لايجاد الوزن النوعى . وكتاب ميزان الحكمة المذكور من الكتب الرئيسية المعتبرة جدا فى علم الطبيعة إذ هو أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا ، وقد يكون الكتاب الوحيد الذى ظهر من نوعه فى القرون الوسطى . واعترف بلتن فى خطاب ألقاه فى أكاديمية العلوم الأمريكية بأهمية هذا الكتاب . ومن هذا الكتاب يستدل على أنه كان لدى الخازن آلات مخصوصة لحساب الأوزان النوعيـة ولقياس حرارة السوائل [٥] . وفى الكتاب نفسه بحث فى الجاذبية [٦] وبأن هناك علاقة بين سرعة الجسم الساقط والبعد الذى يقطعه والزمن الذى يستغرقه ، وبأن قوى التثاقل تتجه دائماً الى مركز الأرض [٧]

ولم ينفرد الخازن ببحوثه فى الجاذبية ، فقد بحث غيره من قبله ومن بعده من علماء العرب فيها وفى الأجسام الساقطة ، ووضعوا قوانين لذلك ، وقد كنا وفينا هذا الموضوع بعض حقه فى مقال لنا فى (الرسالة عدد ٧٢ عنوانه « الممهدون للاكتشاف

(١) القفطى — كتاب إخبار العلماء بأنباء الحكماء — ص ٢٠٨
(٢) كتاب تراث الاسلام — ص ٣٢١
(٣) الانصارى — ارشاد القاصد إلى أسنى المقاصد — ص ١١٠

(١) ابن أبى أصيبعة — طبقات الأطباء ج ١ ص ٣١٧
(٢) كاجورى — تاريخ الفيزياء — ص ٢٣
(٣) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ٢٦
(٤) مجلة المقتطف — مج ١ ص ١٦٤
(٥) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ٢١٦
(٦) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ١٢٨
(٧) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — مج ٢ ص ٢١٦

والاختراع » ، ولا نرى الآن ضرورة لاعادة ما كتبناه فى هذا الموضوع . ويحتوى الكتاب المذكور على بحث فى الضغط الجوى وبذلك يكون العرب قد سبقوا اتورشيللى فى هذا البحث . ويحتوى أيضاً على المبدأ القائل إن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل الى أعلى على أى جسم مغمور فيه ، ومن هذا استنتج أن وزن الجسم فى الهواء ينقص عن وزنه الحقيقى [1] وكل هذه المبادئ والحقائق هى كما لا يخفى الأسس التى عليها بنى (فيما بعد) بعض الاختراعات كالبارومتر ومفرغات الهواء

وللعرب بحوث فى الروافع وقد أجادوا فى ذلك كثيراً ؛ وكان لديهم عدد غير قليل من آلات الرفع وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية تمكنهم من جر الأثقال بقوى يسيرة ، فمن هذه الآلات التى استعملوها المخيطة والمخل والبيرم وآلة الكثيرة الرفع والأسفين واللولب والأسقاطولى وغيرها ، وقد يطول المطال إذا أردنا أن نبين ماهية كل منها ، ويمكن لمن يريد الوقوف على ذلك أن يرجع إلى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ففيه بعض التفصيل . ومن الطريف أن العرب عند بحثهم فى خواص النسبة أشاروا إلى أن عمل القبان هو من عجائب النسبة ، فقد جاء أن : — « من عجائب خاصية النسبة ما يظهر فى الابعاد والأثقال من المنافع . من ذلك ما يظهر فى القرسطون أعنى القبان ، وذلك أن أحد رأسى عمود القرسطون طويل بعيد من الملاق والآخر قصير قريب منه ، فاذا علق على رأسه الطويل ثقل قليل ، وعلى رأسه القصير ثقل كثير ، تساويا وتوازنا متى كانت نسبة الثقل القليل إلى الكثير كنسبة بعد رأس القصير إلى بعد رأس الطويل من الملاق ... » [2] والمقصود من الملاق هنا نقطة الارتكاز

واستعمل العرب موازين دقيقة للغاية وثبت أن فرق الخطأ فى الوزن كان أقل من أربعة أجزاء من ألف جزء من الجرام . وكان لديهم موازين أدق من ذلك ، فقد وزن الأستاذ فلندرس بترى ثلاثة نقود عربية قديمة ، فوجد أن الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الجرام ، ويقول الأستاذ المذكور تعليقا على هذه الدقة : « إنه لا يمكن الوصول إلى هذه الدقة فى الوزن إلا باستعمال أدق الموازين الكيميائية الموضوعة فى صناديق من الزجاج (حتى لا تؤثر فيها تموجات الهواء) وبتكرار الوزن مراراً حتى لا يبقى فرق ظاهر فى رجحان أحد الموازين على الآخر ، ولذلك فالوصول الى هذه الدقة لما يفوق التصور ، ولا يعلم أن أحداً وصل إلى دقة فى الوزن مثل هذه الدقة ... » [1] ومن هنا يظهر أن العرب درسوا مسألة الميزان دراسة دقيقة ؛ وقد ألفوا فى ذلك مؤلفات قيمة جداً ، فثابت بن قرة ألف كتابين فى ذلك : أحدهما فى صفة استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك ؛ والثانى فى القرسطون ، ولا تزال من هذا الكتاب الأخير نسخة فى برلين وأخرى فى وكالة الهند بلندن . ومن الذين كتبوا فى الموازين والأوزان نظرياً وعملياً الكوهى والفارابى وابن سينا وقسطا بن لوقا البعلبكى وابن الهيثم والخازن والجلدكى وغيرهم ... وعلى ذكر الجلدكى نقول إن هذا النابغ حلق فى الكيمياء ووصل فيها درجة لم يصلها أحد من معاصريه ، وهو الذى يقول إن العناصر يفعل بعضها ببعض على نسب محدودة ؛ فكأنه اتصل الى المبدأ الجوهرى قبل دلتون [2] . واستعمل العرب لموازينهم أوزاناً متنوعة ، وأحسن كتاب فى هذا البحث الكتاب الذى وضعه عبدالرحمن بن نصر المصرى للمراقب (المحتسب) العام لأحوال الأسواق التجارية فى أيام صلاح الدين الأيوبى . وتوجد كتب أخرى تبحث فى هذا الموضوع ككتاب ابن جامع وغيره

وفوق ذلك فقد كتب العرب فى الأنابيب الشعرية ومبادئها وتعليل ارتفاع الموائع وانخفاضها فيها ، وهذا طبعاً قادهم إلى البحث فى التوتر السطحى (Surface Tension) وأسبابه وبحث فى هذا كله الخازن . . .وقد يجهل كثيرون أن ابن يونس هو الذى اخترع بندول الساعة (الرقاص) واعترف بذلك سيديو وشيديويك وبيكر وتايلر وغيرهم . وكان عندهم (أى العرب) أيضاً فكرة عن قانون الرقاص . يقول سمث : «ومع أن قانون الرقاص هو من وضع غاليلو إلا أن كمال الدين لاحظه وسبقه فى معرفة شيء عنه . وكان الفلكيون يستعملون البندول لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد ... » [3]

وسبق لنا أن كتبنا شيئاً من هذا فى (الرسالة) عدد (٥٧)

. . . هذا مجمل ما عمله العرب فى علم الحيل أو الميكانيكا وهو يدل كما قلنا — فى أول المقال — على أنهم أخذوا ما عرفه اليونان وغيرهم فى هذا الفرع الجليل وتوسعوا فيه ثم زادوا عليه زيادات هامة يعد بعضها أساساً لبعض البحوث والمواضيع والنظريات فى علم الطبيعة

(نابلس — فلسطين) قدرى حافظ طوقان

(١) كاجورى — تاريخ الفيزياء — ص ٢٣
(٢) رسائل اخوان الصفاء — ج ١ ص ١٩٣

(١) مجلة المقتطف — مج ٦٨ ص ٣٠٣
(٢) مجلة المقتطف — مج ٦٧ ص ٣٠٤
(٣) سمث — تاريخ الرياضيات — ج ٢ ص ٦٧٣

ذكرى الهجرة

بقلم عبد الحكيم عابدين

على هامة الدنيا وقد فقتها قدرا   وفى ذمة التاريخ ، أيتها الذكرى
أطلّى على رأس الليالى منارةً   وفى غسق الأحداث شمّى لنا فجرا
وقومى على الإسلام تاجاً يزينه   وسيفاً يردّى من يُريد به الضرا
وأحيى عزاء القلب عما أصابه   لما دهم الإسلام من محن كبرى
أعيدى، ولو طيفاً، من الغابر الذى   تموت عليه النفس والمهجة حسرى
وقصّى على سمعى ولو فى رؤى الدجى   أحاديثَ يُعيى الدهر ترديدُها بهرا
يُجشّم داء أخدعيــه مُعادُها   كأن بأذنيـه إذا تُليت وقرا
أحاديث عن طه وحسبىَ ذكره   بلا لقب إذ ضقت عن قدره ذكرا
وصحب أباةٍ ما رأى المجد مثلهم   ولم يرض إلا بين أنفسهم وكرا
غطاريفَ بُلْج لا يجوز عديدُهم
لدى أرهبوا الدنيا ، أصابعك اليسرى
ومن قُلّد الإيمـــان درعاً ومغفرا
فلا غرو أن أعيا ــ وحيداً ــ به الدهرا

رُويدكِ يا ذكرى . لكم تُضرمين بى
مشاعرَ كاد الدهر يُغرى بها القهرا
وآمالَ نفس أوشكت حادثاته   إلى اليأس أن تُدنى نواهضَها قسرا
طلعتِ على الدنيا فأذكرت آلها   مواقف للإسلام ما برحت غُرّا
وما الهجرة البلجاء إلا صحيفةٌ   تُتوّج من دين الهدى ذلك السِّفرا
سُرًى فى سبيل الله والخطب كالح
وللبيض لمعٌ فى حواشى الدجى افترّا
بأيدٍ تلظّى للدماء تعطشــا   وترقب أن تُسقى دم المصطفى هدرا
فما هاله أن الأسـنة شُرّعٌ   تبارى لكى يرجعن من دمه حُمْرا
سَرى بين صحب تسقط الشّم سجّدا
لإيمانهم . لو أن منــه لنا نزرا !
عقائدُ تدعو المستحيل توهماً   ولا ترتضى إلا لخالقها أسرا
جوارف للأطواد إن رُمْن صدها   قوانع بالأشواك أن تكسوَ السيرا
تساوِمُ بالأرواح كل مهنـد   على عزة الإسلام تعلو بها الشعرى

ليثرب شدو الرحل يسعى يقينهم   سنا بين أيديهم إذا انتقدوا ا
لهم منه عزم الأسد فى لمعة القنا   وحسب الفتى السارى بمثلهما
يُذلل وعثاء الطريق كأنما   يرون صياخيد الفلا بُسُطا خ
إلى حيث شاء الله للحق رفعة   وآثر للاسلام فى صُبحه
فلا يحسبن مرضى القلوب رحيلهم   توقّيَ شرك كان يمطرهم
ولا وهناً عن دعوة الله . إنما   مضاه بأمر الله أن هاجروا
مضوا ليعودوا فاتحين أعزة   كراماً كإقعاء الهزبر إذا است
وكان . فلم يبعد بمكة عهدهم   من العمر حتى عاودوا فتحها
وحطمت الأصــــنامُ دون هوادة
وصال الأذان العذب فى الكعبة الز
ونودى فيها « الله أكبر » بعدما
شكت جهل قوم كبّروا بينها الص

وما فتئ الإســـلام تعلو بنوده
ويأتيه طوعَ السيف من لم يجئ
ودانت له الأرض الجزيرة . لم يدع   بها معهداً إلا استقلّ به نف
ولم تلبث الأعوامُ أن بهرت به   عُلا قيصر واستنصرته على كسر
فدالا ودالت عنهما دولتاهما   وعمّ الهدى فاستخلص البر والبح

فمالى أراه اليوم ــ واحسرتاه ــ هَوَى   وأشمتَ فيه ذلُّ أبنائه الكف
وأُطمع فيه كل أحمق لم يكن   ليحلم يوماً أن يُطيق له ذ
وما باله ــ والخطبُ ــ ذلت شعوبه   وحكّم فيها ضعفها الأهوجَ الغ

متى أشهد الإسلام يَرجع مجدَه   وتُرفع راياتٌ له طُويت قس
ألا ألمعىٌّ من سلالة (أحمدٍ)   يقلّده الفاروق من رُوحه الشّ
فيبعث للإسلام ماضىَ صولة   شأت فى شباب الدهر أنجمه الزُّه

ويامعشر الإسلام ، والحق قوة ،   ألا قومة للحق يحيا بها حُرّ
فما الحق إن لم تمنع البيض حوضه   بأخلق أن يُعطى الحياة ولا أحرى
وأكفلُ منه للسيادة باطلٌ   تقوم عليه السمهرية لا يُفرى

بنى وطنى ، والشرق أجمع موطنى   ومثلى ــ ممن لا يدين بذا ــ يبرا
تعالوا افهموا الإسلام فالناس إخوة
منى آمنوا ، لا الشام ندرى ولا مصرا
وما أم الإســـلام إلا كتيبةٌ   وقائدها القرآنُ عزّت به دهر

ولن تستعيد الأمر إلا بوحدة   تقرب نائيهم وتنسيهم الإصرا
لعمريَ ما أزرى بنا غير جهلنا   حقيقة هذا الدين أو روحه الكبرى
وإكبارنا منه القشور وهجرنا   لبابا وروحا ما أساغا لنا هجرا
لعمريَ ما الاسلام إرسال لحيةٍ   ولا صلواتٍ تُنتضَى للريا سِترا
ولكنما الإسلام مجدٌ . وعزةٌ   تباعُ الدماء الفيحَ والأنفسَ الغرّا
فدونكمُ القرآنَ دستورَ مجدكم   تصولوا على الدنيا بعزته كِبرا
تربوا به واسقوا العقائد روحه   وربوا عليه النشء وابغوا به النصرا
صِلوا بين أرواح الشباب وبينه   ولا يكُ حظ القارئ الطيَّ والنشرا
إذن يعلموا أن الجهاد فريضةٌ   وأن سنام الأمر أن تفديَ الأمرا
وأن أخا الإسلام ليس بمسلم   إذا ملكَ الأعداء من أرضه شبرا

(الجامعة المصرية)   عبد الحكيم عابدين الفيومي

سفائن الصحراء

للدكتور أحمد زكى

هَلَا ، هلا ، هيّا   إطوى الفلا طيّا   وقرّبى الحبيبا   للنازح الصبّ
هلا، هلا ، سيرى   وامضى بتيسيرى   طيرى بنا طيرى   للماء والعشب
« شوقى »

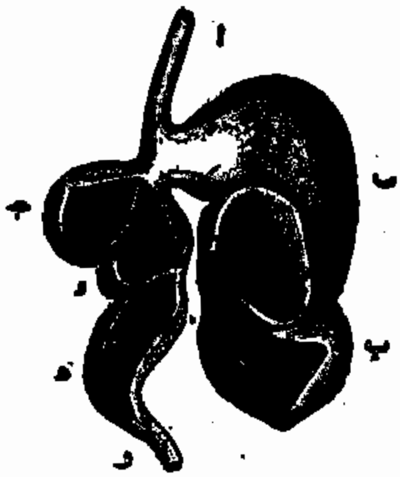


الجمل سفينة الصحراء ، اذا أنت ذكرت الصحراء ذكرته ، واذا ذكرته ذكرت الصحراء ، وما وجوده فى غير الصحراء إلا عبث ودعابة ، يزيد حسك بهما كلما تأملت خلقه ، ودرست خُلقه ، وقرنت ما تجد من ذلك بطبيعة السواد من الأرض الذى يخرج اليه الجمل أحيانا ، أو بطبيعة المدن التى يضلّ اليها بحكم المصادفة الخاطئة والتوجيه الجائر؛

فكما قد ينبو فى نظر الرجل العادى مرأى النعامة فى متحف اللوفر ، ومظهر القبعة فى الأزهر ، كذلك قد تضيق نفس عالم الأحياء بمنظر الخفّ على زلق المدينة ، ورؤية السنام يسير بين الوفير الكثير من طعامها

فى الصحراء معنى الجوع ، ومعنى الحر ، ومعنى المشقة والصبر ، وفيها معنى الجدب والقحط والجفاف . وفى الجمل تركزت كل هذه المعانى

أول ما يصفه الحيوانىّ ، يصفه بأن يضمه لك فى قائمة الحيوانات ، فتجده فى خانة المجترات ، وأميز ما تمتاز به هذه الحيوانات أن أمعدتها تنقسم الى أربعة أقسام ، أو ان شئت تتركب من أربعة أكياس



أقسام المعدة الأربعة فى الحيوانات المجترة

الكيس الأول وهو أكبرها ويسمى الكرش . واليه ينزل الطعام من المرىء (ا) بعد أن يكون قطّعه الحيوان بأسنانه تقطيعاً هيّناً هو دون المضغ بكثير ؛ والكيس الثانى ويسمى بالقلنسوة (حـ) وبغشائه المخاطى تَثَنٍّ من خلايا ذات أضلاع عدة ، والى هذه القلنسوة يخرج الطعام من الكرش تدرّجاً ، وفيها يتكوّر الى كرات ليست بصغيرة الحجم تندفع الى أعلى فى مرىء الحيوان الى فمه فيأخذ فى مضغها حتى تصير عجينة لينة ؛ وحركة اندفاع الطعام هكذا حركة طبيعية لا كحركة القىء . فاذا تم المضغ بلعه الحيوان فذهب الطعام هذه المرة الى الكيس الثالث ويسمى بذى اللفائف (د) ذلك لأن حائطه به ثنيات مستطيلة تشبه أوراق الكتاب وهو مفتوح ، ومن ذى اللفائف يخرج الطعام الى الكيس الرابع واسمه الانفحة (هـ) وفيها يحدث الهضم الحق

على وجهه المألوف فى الحيوانات الأخرى ؛ فى الانفحة تنفرز العصارات الهضمية ، وهى التى تستخدم فى تجبين اللبن على ما هو معروف

فانك تجد فى تركيب معدة المجترات ، ومنها الجمل ، ان صانعها خلقها وفقاً لحاجاتها وملاءمة لطور معيشتها ، فالكرش الكبير الذى يملأ جانباً عظيماً من البطن يقذف اليه الحيوان بالطعام الأخضر الذى يقتطفه من الشجر قذفاً ، اما على عجل لأنه يخشى أن ينزل عليه عدو من أعدائه المفترسة ، أو اختزاناً له كى يعود اليه عند حاجته للطعام . فاذا هو ذهب الى أمنه ، أو جاءته شهية الطعام عمد الى هذا المخزون فأكله من جديد . والأكل أوله المضغ

أما الماء فانك واجد فى معدة الجمل خلايا عديدة كالجيوب ، واقعة فى جدرانه ، بها الماء ، وعليها أغطية من العضل تنسد وتنفتح عند الحاجة

وتنتهى قوائم الجمل : رجلاه ويداه ، بأصبعين ككل المجترات ، كالمعز والأبقار والوعل والغزلان . الا أن هذه الأصابع تنتهى فى هذه بأظلاف تساعدها الآن أو ساعدت آباءها بالأمس على تسلق الصخور والجبال . أما فى الجمل فينتهى الأصبعان بوسادة بها رخاوة وبها طراوة هى خير الأحذية للسير السريع الهين فوق الرمال لاسيما الوعثاء منها . والفيل اذا مشى فى الرمل فقد حياته فيه ، والحصان لا يلبث أن تُنهك قواه . كذلك حال ربيب المدينة اذا هو خرج بحذاء ذى كعب عال (أو الأولى ربيبتها) . والسيارات تغوص فى الرمال ، ثم تدور عجلاتها وتدور فلا تزيد فيها الا غوصاً . إلا اذا هى شابهت الجمال فاحتذت أخفافاً ، وتلك بالونات جديدة صنعت حديثاً قطرها تسع بوصات وضغط هوائها تسعة أهواء فهى عريضة رخوة . وقطر البالونات العادية نصف هذا القطر ، وضغطها ضعف هذا الضغط أو ثلاثة أمثاله

والجمل يحمل غذاءه فوق ظهره ، حملته الطبيعة إياه ، واختزنته تحت جلده حيث لا يصل اليه سواه : هذا سنامه ، وهو كتلة كبيرة من الدهن تجىء بمجىء المطر والعشب وتذهب بذهابهما ، وهى تزيد وتعلى بهما ظهره وتتخذ شكلاً أقرب ما يكون إلى الهرم الرباعى . والجمل معشب مرتو هانىء ، فاذا خرج الى الصحراء على سفر طويل مجهد ، فأعوزته الخضرة والماء ، رجع الى ما على ظهره ، يحرق منه لغذائه ، ويصمد به لغَيلة الجوع حتى يذهب كله ويخلو منه جلده . ولكنه لا يلبث أن يعود من سفره حتى يأخذ فى الادخار من يوم النعيم والوفرة ليومه العبوس الآخر ، فيثقل بالدهن ظهره ، ويشتد عليه جلده . والأعرابى قبل الترحل الطويل يمتحن سنام راحلته كما ينظر ذو السيارة فى خزان بنزينه ؛ والحيوانات الثديية الأخرى تدخر الدهن ، ولكنه يتوزع على كل جسمها . كذلك تدخره الحيوانات التى تنام طول شتائها ، وتصحو فى الربيع لتأخذ مع الأحياء نصيبها من العيش وطيب الحياة ، وتدخر من الدهن لحين تنام مرة أخرى

والجمل له جسم ضخم ليس فيه جمال كثير ، تحمله قوائم طويلة تتراءى كأنها تعجز عن حمله ، ولكنها غاية فى الصلابة . وعظام هذه القوائم فوق متانتها بيضاء ناصعة حتى ليستعيض بها الهنود فى شمال الهند عن سن الفيل فى تلقيم بعض مصنوعاتهم . وطال الجمل لينال الشجر فبعد عن الأرض ، فكان لا بد له من طى قوائمه لينالها . وهو حين يبرك على الأرض يبرك على كتل خمس متصلبة فى جسمه يقال لها الثفنات ، واحدة فى صدره واسمها السعدانة ، واثنتان فى ركبتيه ، واثنتان فى أصول فخذيه . والثفنات تولد مع الجسم ليستتم به خلقه كالأذن والعين

وللجمل رقبة حنواء طويلة تحمل فى أعلاها رأساً صغيراً ، لا يحمل القرون التى هى من خصائص المجترات ، وله عينان نجلاوان ناعستان ، وله أنفان يغلقهما إذا شاء ويفتحهما



رأس جمل

نا شاء ، وفضل هـذا ظاهر فى الريح السافية ؛ وفتحتا أنفه ميدانان بعداً كبيراً عما بداخلهما من غشاء وغدد غاطية ، فهى لا تتحلّب مخاطا كالبقر وسائر المجترات . كذلك تطول شفته العليا وتتدلى على شفته السفلى فتحجبها أو تكاد . وشفته العليا مشقوقة شقين كالأرنب يحركهما أو يحرك أحدهما على هواه وهو يأكل حتى كأنهما يدان

وغذاء الجمل فى مواطنه الأولى أفرع الشجر وأوراقها ؛ وهو يأكل الشوك ولا يبالى ، ويأكله دون أن تدمى شفتاه . وهو يأكل الحب والتمر ، ولكنه لايستغنى عن الأخضر من الطعام . وله صبر على الجوع والظمأ ، فهو يقضى أياماً قد تطول إلى العشرة دون طعام ولا شراب . وقد يقضيها حاملاً المعهود من أثقاله . وقد يحدث كثيراً أن يفرغ المـاء من القافلة فتعقر الجمال طلباً للمـاء الذى فى أكراشها . وللابل إحساس غريب بالمـاء ، تشمه من بعيد ؛ كثيراً ما نجَت القوافل بسببه ، وقد يحدث أن يأبى على الناقة صاحبها فلا يفهم معنى تشبّثها باتجاه خاص فى الصحراء فتقطع الرسن وتركب رأسها ، فاذا بلغت المـاء كرعت منه لأمسها ويومها وغدها



(الجمل فى الحرب)

والأعراب تشرب من الأبل لبنها ، وهو بالغ فى دسمه ، وتأكل لحمها ، وتلبس من وبرها . ولكن الخدمة الكبرى التى أداها الجمل للانسانية من قديم هى وصله لأقطار فصلت بينها قفار كالمحيطات ما كان لغير الجمل أن يجتازها . فأثره فى تجارة الأمم العتيقة كبير . وقد كان وحده وصلة ما بين الشرق والغرب

والجمل إن كان فى جسمه القدرة على الحمل ؛ فنى خلقه الأناة والصبر . يكتسبهما ولادة وبالمران . وهو برغم نفعه من أغبى الحيوانات . أو لعله لغبائه كان نافعاً ذلولاً صبوراً ، وإنك تجد هذا فى الناس . وهو لايألف صاحبه ألفة الحصان والكلب . وهو كالبدو يكره البحر . وأكثر الثدييات إذا ألقاها الرجل فى الماء وجد لديها من طبيعتها فهماً للعوم أو بعض فهم . أما الجمل فاذا غُصب على المسير فى ماء غير ضحل كالنهر فنقدت رجلاه الأرض لم يحاول أن يعوم ، وإنما يدور جسمه ويسلم نفسه للغرق

والجمل على صبره ذو غضبة منكرة ، وهو حقود ذكور . حكوا أن جملاً كان يساق فى إدارة عصارة للزيت فضربه سائقه ضرباً موجعاً . ومضت أشهر بعد ذلك ، فظهر كأن الأساءة انتُسيت . وفى ليلة قمراء جاء الجمل يتلصص الى حيث يرقد السائق فوجد ما يشبهه وهو نائم فانقض عليه بكلكله وأخذ فى الثياب تمزيقاً يحسب الرجل فيها ، فلما فرغ تحدث اليه الرجل من بعيد ، فاغتاظ الجمل اغتياظاً شديداً ، وغضب لخيبته غضبة نكراء ضرب فيها الحائط برأسه ضربة أردته قتيلاً

أحمد زكى

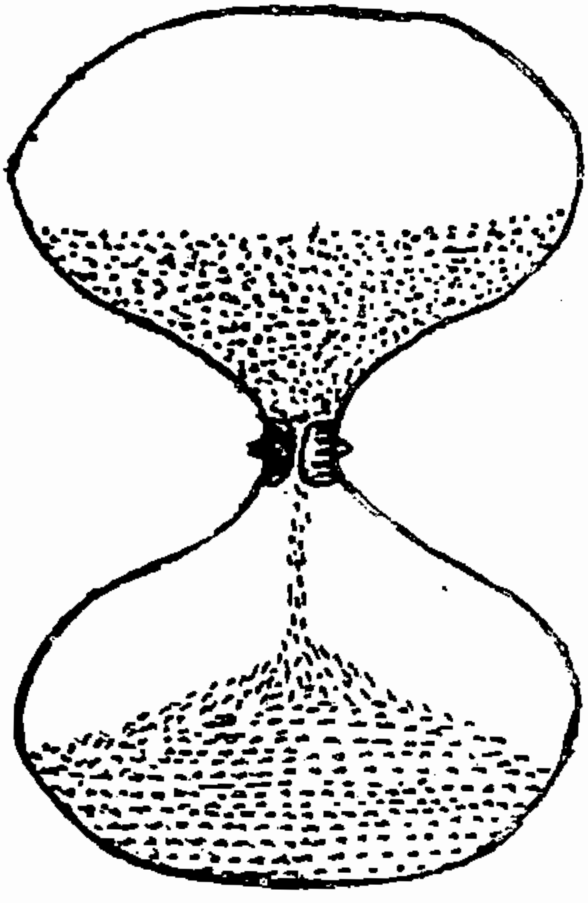
الساعات العربية

بقلم السيد أحمد دهمان

لما شعر الأقدمون بحاجتهم الماسّة الى معرفة الأوقات ، اهتدوا بعد التأمل والتفكير الى اختراع الساعة الرملية ، وهى ساعة بسيطة التركيب ، تتركب من قارورتين قد ألصقت فوهة احداهما بفوهة الأخرى بواسطة الشمع ، وملئت العليا رملاً ، فينزل الرمل بالتدريج الى السفلى من ممر بينهما صنع بنسبة مقدرة ، وتقلب الساعة عند ما تفرغ العليا من الرمل ، وهكذا دواليك

فاذا أرادوا معرفة الوقت نظروا الى مقدار الرمل الباقى فى العليا ، أو الى مقدار ما نزل منه الى السفلى

ولبثت هذه الساعة شائعة الاستعمال عند بعض قرويى دمشق حتى قبيل الحرب العامة . وقد أدركنا أحد الشيوخ المسنّين



(شكل ١) الساعة الرملية

يصنعها ويبيعها فى حانوت له خارج باب دمشق الغربى « فى سوق المسكية »

أما الساعة المائية التى شاعت عند الكلدان والهنود فهى كالساعة الرملية ، بابدال الرمل بالماء ، وكانت أقل دقة منها لأن اختلاف الجو برداً وقيظاً كان ينقص مقدار الماء

وكان ألفرد الكبير عاهل الانكليز يأمر باتخاذ شمع طول الواحدة منه اثنتا عشرة أصبعاً ، مقسمة بعلامات خاصة الى أربعة وعشرين قسما ، عدد ساعات الليل والنهار ، وكانت توقد ليلاً ونهاراً . ويجعل أمامها جسم شفاف وقاية لها من الريح

أما العرب فقد تفننوا فى صنع الساعات مستندين الى فن الهندسة ، واخترعوا لها آلات عجيبة أصبحت فيما بعد أساساً للساعات التى نراها اليوم

وقد بدأ شيوع استعمال الساعات فى البلاد العربية منذ القرن السادس للهجرة وبقى حتى الثامن ، فكان فى مراكش وتلمسان والأندلس ومصر وبغداد ودمشق عدة ساعات تنصب فى الأماكن العامة لمعرفة الأوقات ، وسنأتى على ذكرها مفصلاً

مهندسو الساعات

اشتهر فى تلك العصور كثير من المهندسين العرب الذين تخصصوا فى صنع الساعات ، وكانوا يديرون آلاتها بواسطة الماء ، الى أن جاء ابن الشاطر المهندس الدمشقى فسعى فى ترقيتها وتوصل لجعلها صغيرة الحجم بالنسبة لغيرها من الساعات ، وأصبحت تعلق على الجدران ولا تحتاج آلاتها الى الماء ، فكانت أقرب ما تكون الى الساعات المستعملة اليوم . واليك تراجم أشهر من اشتغل بصنع الساعات :

محمد رستم الساعاتى — أصله من خراسان قدم دمشق وأقام بها ، وكان أوحد أهل زمانه فى علم الفلك وصنع الساعات . قال ابن أبى أصيبعة : وهو الذى صنع الساعات التى عند باب الجامع بدمشق ، صنعها فى زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، وكان له الانعام الكثير والجامكية والجراية لملازمته صنع الساعات الى أن توفى — ولم يذكر سنة وفاته

أبو عبد الله به القيسرانى — هو محمد بن نصر بن صُغَير ، ولد بعكا سنة ٤٨٧ أديب شاعر ، كان بينه وبين ابن منير الشاعر

ابلسى المشهور مكاتبات وأجوبة ومهاجاة ، ومع ذلك فقد
بارعاً فى العلوم الرياضية من حساب وفلك وهندسة ، تولى
ة الساعات بدمشق ، ثم رحل الى حلب ، ثم رجع الى دمشق
فى بها فى ١١ شعبان سنة ٥٤٨

محمد بن عبد الكريم الحارثى — لقبه مؤيد الدين ، وكنيته الفضل ، كان معروفاً بالمهندس ، ولد ونشأ بدمشق ، وكانت اته نادرة من نوادر الدهر تجلى فيها النبوغ الشرقى ، فقد كان أول أمره نحاتاً ينحت الحجارة ، ثم صار نجاراً فبرّز على نجارين فى حسن الصنعة ؛ وأبواب البيمارستان النورى مشق من صنعه ؛ ثم تعلم الهندسة لتزداد براعته فى النجارة ، قد وصف المدرسة التى تعلم فيها الهندسة بقوله : « كنت شتغل فى مسجد خاتون الذى تحت المنيبع[1] غربى دمشق ، كنت لا أصل الى المسجد الا وقد حفظت شيئاً من كتاب قليدس وحللت بعضاً من مسائله الى أن أتممته حفظاً وفهماً » ، ثم قرأ المجسطى وحلّ مسائله أيضاً ، وانصرف الى الهندسة انصرافاً تاماً ، حتى اشتهر بعد ذلك بالمهندس

وقدم دمشق الشرف الطوسى وكان إماماً فى العلوم الرياضية فقرأ عليه ما نقصه من الحساب والهندسة والفلك

وقرأ بعد ذلك علم الطب على أبى المجد محمد بن أبى الحكم ، الى أن برع فيه ، وتعين طبيباً فى البيمارستان النورى ، مهندساً لساعات المسجد الأموى وكان يتقاضى مخصصات منهما

وفى زمنه تخربت ساعات المسجد الأموى فأصلحها أحسن تصليح : من مؤلفاته . رسالة فى معرفة رسم التقويم ، مقالة فى رؤية الهلال ، اختصار كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى ، عشرة أجزاء وقفها فى المسجد الأموى بدمشق وجعلها فى مشهد عروة ، كتاب الحروب السياسية ، كتاب فى الأدوية المفردة مرتبة على حروف الهجاء ، توفى بدمشق سنة ٥٩٩

ابن الشاطر — هو أبو الحسن علاء الدين ، على بن ابراهيم ابن حسان الأنصارى الدمشقى ، نشأ يتيما فتعلم صنعة تطعيم العاج من زوج خالته ، ثم تعلم العلوم الرياضية والفلكية ، فلقب بالمطعم وبالفلكى

رحل الى مصر والاسكندرية ليأخذ العلوم الرياضية عن أربابها وكان صاحب ثروة . ويقول ابن العماد ان داره من أحسن الدور وضعاً وغرابة . ويقول الصلاح الصفدي : « دخلت منزله فى شهر رمضان سنة ٧٤٣ لرؤية الاسطرلاب الذى أبدع وضعه فوجدته قد وضعه فى قائم حائط فى منزله داخل باب الفراديس بدرب الطيار ، ورأيت هذا الأسطرلاب فأنشأ لى طرباً ، وجدد لى فى المعارف رأياً ، وقلت ان من تقدمه من الأفاضل عند جبل علمه الراسخ هباء ... » الى أن قال : « وصورة هذا الاسطرلاب المذكور قنطرة نصف أو ثلث ذراع تقريباً يدور أبداً على الدوام فى اليوم والليلة من غير ماء وعلى حركات الفلك ، لكنه قد رتبها على أوضاع مخصوصة تعلم منها الساعات المستوية والساعات الرملية الزمانية . »

ومما ذكره الصفدى وسماه اسطرلاباً يعلم أن ابن الشاطر أول مخترع لساعات الجدران وأن ما سماه اسطرلاباً ليس بالاسطرلاب المشهور ، لأن اختراع الاسطرلاب المعروف قديم جداً ، وإنما هو اختراع جديد من وضع ابن الشاطر

ومن أعمال ابن الشاطر البسيط الذى وضعه فى منارة العروس احدى منارات المسجد الأموى ؛ وقد زينت دمشق يوم وضعه وبقى فيها الى سنة ١٢٩٣ فاختل وضعه من مرور السنين عليه ومال أحد جوانبه ، ولما أريد اصلاحه انكسر فصنع بدلا منه العلامة المرحوم الشيخ محمد الطنطاوى ، جدّ بنى الطنطاوى بدمشق ، وجعل حسابه على الأفق الحقيقى ، وزاد فيه قوس الباقى للفجر ، فجاء فى غاية الضبط والاتقان ، جزاه الله خير الجزاء . وقد قال الشيخ عبد المجيد الخانى من قصيدة مؤرخاً له :

ما قال أهل الشام فى تاريخه   تم البسيط بنفحة القدوس

ولابن الشاطر المذكور اختراعات عديدة من آلات فلكية وهندسية ، وله آراء ونظريات فى الحساب والجبر والهندسة والفلك ، أضحت مصباحاً مشرقاً لمن جاء بعده . وتولى فى المسجد الأموى وظيفة التوقيت ورياسة المؤذنين ، وله مؤلفات عديدة ذكر أكثرها فى كشف الظنون . توفى سنة ٧٧٧

على بن تغلب الساعاتى : — هو نور الدين على بن تغلب الساعاتى ، تولى تدبير ساعات المدرسة المستنصرية فى بغداد ؛

(١) محلة كانت عامرة قرب التكية الحميدية فى منتصف طريق الربوة

وكان مولده سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٨٦٣

* * *

واليك بعد هـذه التراجم بعض ما وقفت عليه من وصف تلك الساعات

١ — ساعة هارون الرشيد

ذكر فولتير وغيره من المؤرخين الفرنسيين أن أول ساعة عرفت فى أوروبا هى الساعة التى أهداها أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا سنة ٨٠٧ وكانت بدعاً فى ذلك العصر ، حتى أنها أورثت رجال الديوان حيرة وذهولا ؛ كان لها اثنا عشر باباً صغيراً بعدد الساعات ، فكلما مضت ساعة فتح باب وخرجت منه كرات من نحاس صغيرة تقع على جرس فيطن بعدد الساعات ، وتبقى الأبواب مفتوحة ، وحينئذ تخرج صور اثنى عشر فارساً على خيـل تدور على صفحة الساعة . ولم تقف لهذه الساعة على ذكر فيما اطلعنا عليه من الكتب العربية

٢ — ساعة منصور مراكش

ذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى فقال : وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين ، طوله مائة وعشر أذرع ، وعلى بابه ساعات مرتفعة فى الهواء خمسين ذراعا ، كان يرى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم تتحرك لنزولها أجراس تسمع على بعد

٣ — ساعة الملك الكامل

ذكرها القليوبى فى نوادره فقال : ان السلطان الكامل كان عنده شمعدان فيه أبواب ، فكلما مضت ساعة يخرج من باب منها شخص يقف فى خدمته الى مضى ساعة ، وهكذا الى تمام الأبواب اثنتى عشرة ساعة ، فاذا تم الليـل خرج شخص فوق الشمعدان ويقول : أصبح السلطان ؛ فيعلم أن الفجر قدطلع فيتأهب للصلاة . وهذه الساعة مصرية لأن اقامة الملك الكامل كانت فى مصر

٤ — ساعة المدرسة المستنصرية ببغداد

جاء فى مجلة — الزهراء — السنة الثالثة — ص ٢٥٤ ما نصّه « من مخطوطات الخزانة التيمورية بالقاهرة جزء قديم (فى كتب التاريخ رقم ١٣٨٣) من كتاب مجهول الاسم والمؤلف . رتبه مؤلفه على السنين : وما فى هذا الجزء من سنة ٦٢٦ الى ٧٠٠ وقد جاء فى حوادث سنة ٦٣٣ منه وصف للساعة التى وضعها أمير المؤمنين المستنصر فى مدرسة الطب والمستشفى التابعين لمدرسته العظمى المعروفة باسم « المستنصرية » وقد أدخل العلامة أحمد تيمور باشا وصف هذه الساعة فى كتابه (التصوير عند العرب) الذى لم يطبع بعد . فآثرنا التعجيل بنقل ذلك الى قراء الزهراء :

« وفيها — أى فى سنة ٦٣٣ ﻫ — تكامل بنـاء الايوان الذى أنشىء مقابل (المدرسة المستنصرية) وعُمل تحته صـفة يجلس فيها الطبيب ، وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصد المرضى فيداويهم

وبنى فى حائط هذه الصفة دائرة . وصوّرت فيها صورة الفَلك ، وجعلت فيها طاقات لطاف لها أبواب لطيفة : وفى الدائرة بازان[1] من ذهب ، فى طاسين من ذهب ، ووراءهما بندقتان من شَبَهٍ لا يدركهما الناظر

فعندمضى كل ساعة ينفتح فا البازين ، وتقع منهما البندقيتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات ، والباب مذهب فيصير حينئذ مفضضاً . واذا وقعت البندقتان فى الطاسين تذهبان الى موضعهما . ثم تطلع أقمار من ذهب فى سماء لازوردية فى ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية ، وتدور مع دورانها وتغيب مع غيوبتها ، فاذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها ، كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء فى دائرة القمر ، ثم يبتدئ فى الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس ، فتعلم بذلك أوقات الصلوات »

ثم أورد صاحب هذا التاريخ المخطوط أبياتاً لشاعر من شعراء ذلك العصر الذهبى يذكر بها هذه الساعة :

« يا أيها المنصـور يا مالكاً	برأيه صعب الليالى يهون
شـيدت لله ورضـوانه	أشرف بنيـان يروق العيون
ايوان حسن وضعـه مدهش	يحار فى منظره الناظرون
صور فيـه فلك دائر	والشمس تجرى مالها من سكون
دائرة من لازورد حكت[2]	نقطة تبر فيـه سرّ مصون
فتلك فى الشكل وهذى معاً	كمثل هاء ركبت وسط نون »

وجاء فى حوادث سنة ٦٠٣ من هذا المخطوط أن نور الدين

---

(١) تثنية بازى الطائر المعروف

(٢) يظن سعادة الأستاذ تيمور باشا أن صواب هذه اللفظة « حوت »

على بن ثعلب الساعاتى توفى فى تلك السنة ، وكان يتولى تدبير الساعات التى تجاه المستنصرية ، وأن مولده كان سنة ٦٠١ هـ

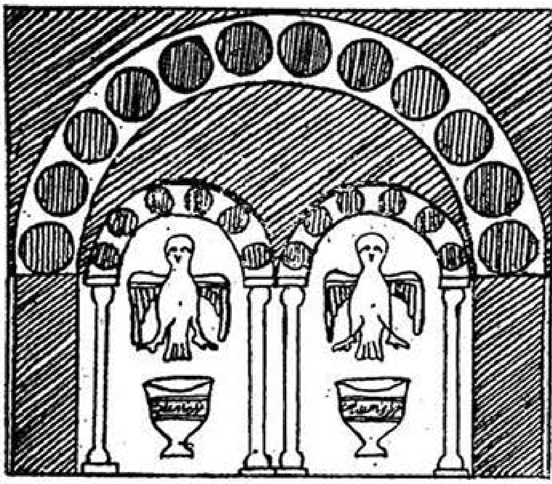
٥ — ساعة المدرسة القيمرية بدمشق

نسبة لمنشئها الأمير سيف الدين على بن يوسف القمرى ، أنشأها فى نصف القرن السابع الهجرى ، ثم نسبت المحلة التى فيها المدرسة للمدرسة ، فقيل حى القمرية ، والقمرى نسبة لقيمر قلعة بين الموصل وخلاط . وكان سيف الدين القيمرى أميرا كبيرا وشجاعاً باسلا ، وهو الذى أسر « لويس التاسع » امبراطور فرنسا سنة ٦٤٨ بين المنصورة ودمياط . وله فى دمشق أعمال خيرية ، فقد بنى فيها مارستاناً عظيما ومسجدا ومدرسة تسمى القيمرية الكبرى ، وتعرف الآن بمدرسة القطاط ، وكان على باب هذه المدرسة ساعة مهمة بلغت مصاريفها كما يقول العلموى أكثر من أربعين ألف درهم . وهذه الساعة وان لم نطلع على وصف لها ، فانا نستفيد من نص العلموى مقدار المصروف عليها

٦ — ساعة باب جامع دمشق الشرقى

يعرف هذا الباب بباب جيرون ، وقد شاهدها ابن جبير الرحالة المشهور فوصفها بقوله : « وعن يمين الخارج من باب جيرون فى جدار البلاط الذى أمامه غرفة ولها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت أبواباً صغاراً على عدد ساعات النهار ، ودبرت تدبيراً هندسياً ، فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمى بازين مصورين من صفر (نحاس) قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما . أحدهما تحت أول باب من تلك الأبواب ، والثانى تحت آخرها ، والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار إلى الغرفة وتبصر البازين يمدان أعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانها بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الأوهام سحراً ، وعند وقوع البندقتين فى الطاستين يسمع لهما دوى وينغلق باب تلك الساعة للحين بلوح من الصفر ، ولا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الأبواب كلها وتنقضى الساعات ثم تعود إلى حالها الأول

ولها بالليل تدبير آخر ، وذلك أن فى القوس المنعطف على تلك الطبقات المذكورة اثنتى عشرة دائرة من النحاس مخرمة وتعترض فى كل دائرة زجاجة من داخل الجدار فى الغرفة مدبر ذلك كله خلف الطبقات المذكورة ، وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة ، فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاعها فلاحت للأبصار دائرة محمرة ، ثم انتقل ذلك إلى الأخرى حتى تنقضى ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها ، وقد وكل بها فى الغرفة متفقد لحالها درب بشأنها وانتقالها بعيد فتح الأبواب وصرف الصنج إلى موضعها »



(شكل ٢) ساعة باب جيرون

وهناك ساعة ثانية على باب جامع دمشق القبلى ويعرف هذا الباب بباب الزيارة ، ويقول النعيمى إن مكانها فى العنبرانية — المشهورة فى عصرنا بالعمرانية ، ويقول ابن كنان إنها من عمل أبى الفضل الحارثى الدمشقى المهندس ، وقد تقدمت ترجمته — وصفة هذه الساعة هى : بيكار (لعله بنكام) عليها عصافير من نحاس ، وحية من نحاس ، وغراب من نحاس .

فاذا تمت الساعة خرجت الحية ، وصفرت العصافير ، وصاح الغراب ، وسقطت حصاة فى الطست

٧ — ساعة ابن الشاطر

تقدم ذكرها فى ترجمته ، ويمكن القول بأن ساعة ابن الشاطر آخر طراز وصلت اليه الساعة العربية ، وقد أخذ الغربيون هذا الطراز عنها فى ساعات الجدران ، وقد اطلعت على ساعة قديمة أوروبية ترجع فى تاريخ صنعها الى ما قبل ثمانين سنة ، اذا مضت ساعة من الوقت يخرج عصفور من باب فى أعلاها ويصيح

دمشق — أحمد دهمان

البريد الأدبي

عبرات جوار لا حرار

سألني السيد (محمد حصار) من فضلاء المغرب الأقصى في العدد (١٤٤) من (الرسالة) عن رأيي في قول الخنساء :

(من كان يوماً باكياً سيدا فليبكه بالعبرات الحرار

فقد وصفت الخنساء دموعها بالحرار مع أنه سبق مني القول في مقالتي (تعريب الأساليب) المنشورة في الجزء الأول من مجلة مجمعنا المصري أن العرب يصفون الدمع والعين بالسخونة ، ولا يصفونهما بالحرارة كما يفعل الأفرنج

وأنا انما أردت أن العرب ليس ذلك الوصف من شأنهم ، أي أنه غير شائع في أساليب بلاغتهم : أن يصفوا الدمع بالحرارة لا أنه لا يقع ذلك منهم أحياناً ، والشاهد الصحيح على وقوعه في كلامهم قول الشاعر

بدمع ذي حرارات على الخدين ذي هيدب

راجع ذلك في اللسان والتاج مادة (حرّ) وهيدب السحاب ما تراه كأنه خيوط عند انصباب مطره

أما ما ذكره المعترض الفاضل من شعر الخنساء فلا يصلح شاهداً لسببين :

(الأول) أن (حرارا) لا تكون جمعاً لحارة حتى يصح أن تقول في (عبرة حارة) عبرات حرار ، ولم ينقل هذا الجمع أحد من أرباب المعاجم ، ولم يذكروه في جملة ما شذ من الجموع ، وانما صرحوا أن (حرار) تكون

جمعاً للحَرّة : وهي الأرض ذات الحجارة السود

وجمعاً للحَرّان : وهو الشديد العطش

وجمعاً للحر : وهو ضد العبد (وهذا الجمع حكاه ابن جنى) يعني يكون شاذاً

(ثانياً) لا يجوز أن يقال : ان أرباب المعاجم قد يهملون ذكر كلمات لغوية فصيحة وردت في أشعار العرب : من ذلك فعل (تبدى) في قول عمرو بن معدى كرب

(وبدت لميس كأنها بدر السماء اذا تبدى)

فليكن جمع (حارة) على (حرار) من هذا القبيل ويكون الشاهد عليه قول الخنساء المذكور وكفى بها حجة

لا يقال ذلك لأنه يجب قبل كل شيء الاستيثاق والتثبت من صحة ألفاظ الشاهد ، وأول طرق هذا الاستيثاق عدم احتمال تحريف كلماته

فكلمة (الحرار) تحتمل احتمالا قريباً جداً أن تكون محرفة عن (الجوار) بفتح الجيم وبعدها واو أي (العبرات الجواري) جمع « جارية » اسم فاعل مؤنث من فعل (جَرى) الدمع اذا سال على الخدين

ووصف الدموع بالجواري صحيح من حيث قواعد العربية ، فصيح من حيث شيوع استعماله في كلام البلغاء

أما كلمة (الحرار) فليست بهذه المثابة : لا من حيث القواعد ولا من حيث شيوع الاستعمال

ونسخة ديوان الخنساء التي بين أيدينا انما هي من طبعة الأب لويس شيخو اليسوعي وهو — رحمه الله — لم يشتهر بالدقة في ضبط نصوص ما ينشره من الآثار الأدبية ، ولا في تحقيق كلماتها اللغوية

فلعل الفاضل (محمد حصار) وقعت اليه مثل هذه المطبوعة أو مخطوطة قديمة أخرى يسرع الى مثلها هذا التحريف

وفي مكتبتي نسخة شرح مخطوط على ديوان الخنساء كتبت سنة ١١٤٥ هـ لمؤلف مجهول ؛ ومالي لا أقول إن هذا الشرح لثعلب كما يمكن استنتاجه من خاتمة المخطوطة ؟ وقد سقط منها بعض أوراق فلم أجد قصيدة (العبرات الحرار) فيها . فلعل القصيدة برمتها غير موجودة في رواية تلك النسخة أو هي في ضمن الأوراق الساقطة

وتوجد نسخة من هذا الشرح نفسه فى دار الكتب المصرية كتبت سنة (٦٢٠ هـ) كما يفهم من الفهرس العام (جزء ٣ نمرة ٢٠٣)

فلعل أحداً من قراء (الرسالة) ممن تهمهم أمثال هذه البحوث وهم كثيرون — يزور دار الكتب المصرية ويراجع لنا بيت الخنساء ويتثبت من قافيته : أهى (الحرار) أو (الجوار)

أو يراجع ما هو أوثق من ذلك كله وهو نسخة ديوان الخنساء بخط اللغوى الكبير المحقق العلامة الشنقيطى التركزى رحمه الله ، وإن له على نسخته هذه تقييدات كالشرح لها . وهذه النسخة أيضاً من نفائس ما حوته دار الكتب المصرية . راجع فهرسها العام (جزء ٣ ص ١٢٨)

(دمشق) عبد القادر المغربى

المكتبة العربية فى الاسكوريال

تشتمل المجموعة العربية بمكتبة الاسكوريال بمدريد على مجموعة نفيسة جدا من الكتب العربية والاسلامية فى مختلف العلوم والفنون ، يبلغ عددها ١٩٥٢ مجلداً ، ومعظمها كتب أندلسية هى التراث الأخير لآداب اسبانيا المسلمة ؛ ولم ينشر الى اليوم من هذه المجموعة سوى بضع عشرات من الكتب قام على إخراجها جماعة من المستشرقين ، ومنها المكتبة الأندلسية التى تضم عدة مجلدات ، وأخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر ، والحلة السيراء لابن الآبار ، وبضعة كتب أخرى ؛ وكان آخر ما نشر من هذه المجموعة النفيسة مجلد من تاريخ الأندلس لابن حيان ، أخرجه الدون انتونيو مدير مكتبة الاسكوريال وهو يتناول قسماً من عصر بنى أمية بالأندلس

وقد لفتنا الأنظار غير مرة الى هذه المجموعة النفيسة ، وتمنينا على دار الكتب المصرية أن تبذل وسعها لتصوير أو نسخ أكبر عدد من هذه المجموعة ، ولكنها لم توفق حتى اليوم الى تحقيق هذه الغاية بصورة مرضية ؛ وكل ما استطاعت أن تحصل عليه حتى اليوم هو صور لخمسة كتب فقط من مجموعة الاسكوريال ، هى كتاب البديع لابن المعتز ، ومختصر طبقات الشعراء له أيضاً ، وطيف الخيال للشريف الرضى ، وكتاب الفلاحة لابن العوام ، ومجموعة فلسفية فى شرح بعض كتب الفارابى ؛ وتسعى دار الكتب منذ حين فى الحصول على صور أو نسخ لعدة كتب أخرى من هذه المجموعة ، ولكن الظاهر أنها تجد فى ذلك السبيل عقبات مالية لا تستطيع تذليلها

وفى ذلك ما يبعث الى أشد الأسف ، ذلك أن مجموعة الاسكوريال هى بلا ريب من أنفس المجموعات العربية المعروفة ، هذا فضلاً عن أن لها فوق نفاستها الفنية صفة خاصة ، فهى فى الواقع بقية التراث الاسلامى فى الأندلس ، وتكاد تحظى فى نظر العالم الاسلامى بنوع من القدسية المؤثرة

ويوجد بين محتويات هذه المجموعة عدة كتب فريدة فى بابها ، فى السياسة والفلسفة والأخلاق والطب ، مثل كتاب آداب الفلاسفة (رقم ٧٦٠ من المجموعة) وكتاب عن سياسة الأمراء وولاة الجنود (رقم ٧١٩) وكتاب فى السفارات النبوية عنوانه المصباح المضيء (رقم ١٧٤٢) ؛ هذا الى عدة كتب من تأليف أكابر العلماء المصريين مثل كتاب الشهاب القضاعى (رقم ٧٥٢) وكتاب القول التام فى فضل الرمى بالسهام ، للسخاوى (رقم ٧٦٥) وكتاب فى تاريخ المعز لدين الله (رقم ١٧٦١) ، وكتب نفيسة أخرى يضيق المقام عن ذكرها

وقد حصلت الجامعة المصرية على صور عدة كتب أخرى من هذه المجموعة النفيسة ، ولكن ما حصلت مصر عليه حتى الآن لا يعتبر شيئاً مذكوراً

ولهذا نعود فنتمنى على دار الكتب المصرية وعلى مكتبة الجامعة ، وعلى ولاة الأمر جميعا أن يشملوا هذه المجموعة الفريدة بكثير من عنايتهم وألا يدخروا فى سبيل الحصول على نفائسها جهداً أو مالا

الكتب

نفسية الرسول العربى

محمد بن عبد الله

السوبرمان الأول العالى

تأليف السيد لبيب الرياشى

بقلم الاستاذ عبد الفتاح السرنجاوى

هذا هو العنوان الذى جعله الأستاذ « لبيب الرياشى » لسلسلة من الرسائل فى فلسفة الاسلام ، أخرج منها الرسالة الأولى التى نقدمها الآن لقراء « الرسالة » ، والأستاذ الرياشى كاتب مسيحى له مكانته بين أدباء سورية الشقيقة ، ثم هو فوق ذلك نخور بعربيته متحرر من قيود التعصب ؛ ولعل هذه الميزات هى التى تجعل من الرياشى وصحبه مدرسة جديدة هى (مدرسة المتجردين المتطهرين) التى تعلى للحق منبرا تدأب على حمايته ورعايته . وانك لتلمس سمو هذه المدرسة ونبلها فى مقالة الرياشى فى كشافة الكتاب الأول ، إذ يقول :

« لنتجرد .... ولنتطهر .... لنتجرد ولنتطهر أيها الانسى من جذام التعصب وأثرة الجنسية »

والرجل بهذا ينسى كل شىء سوى أنه من طلاب اليقين ، وليس من شك فى أن هذه الدراسة البريئة للسيرة النبوية الشريفة هى التى حفزت الرياشى على تحليل نفسية الرسول الكريم ، وجعلته يعترف فوق ذلك بفضائل هذه الدراسة إذ يقول :

« ماندمت على شىء فى حياتى ندماً عصبياً ساحقا مثل ندى على جهلى نفسية الرسول العربى والامام الأعظم العالى محمد ابن عبد الله » . ذلك مايقوله رجل يمثل الأقلية الدينية المندمجة فى ذلك الشرق العربى ، الذى ترفرف فوق ربوعه راية التسامح فى الدين وتسوده روح الأخاء فى القومية العربية العزيزة ، والرياشى يصف محمداً بأنه (السوبرمان الأول العالى) مستعيرا كلمة (السوبرمان) من الفيلسوف (نيتشه) وهذا الأخير أطلقها على الانسان الأكمل الذى يجمع إلى مشاركة البشر فى خصائص الجسم سمو العقل والروح إلى حد يجعله حلقة الاتصال بين الله والناس ، ويمضى الكاتب الفاضل إلى الموازنة بين عظمة محمد وغيره من قادة الانسانية ، فهو يقرر فى مستهل بحثه أن العظماء سرعان ما يفقدون هيبتهم إذا هم خالطوا الناس طويلاً ، أما محمد فلم تكن مخالطته للناس وتبسطه فى معاملتهم إلا عاملاً على رفع مكانته وإعلاء شأنه بينهم . وينتقل المؤلف إلى ما كان من توسط أبى طالب بين قريش ومحمد فى أن يسودوه عليهم ويزوجوه أحسن بناتهم على أن يترك تسفيه دياناتهم والدعوة إلى الله ، ويحلل جرأة محمد فى رده التاريخى الخالد ، ويقارن بينها وبين جرأة ميرابو خطيب الثورة الفرنسية ولوثر زعيم الاصلاح الدينى وأبى بكر وعمر ، والرياشى فى ذلك التحليل موفق أحسن التوفيق ، فهو يوضح أن جرأة بعض الزعماء والمصلحين تستند إلى قوة الجماهير وصولة الجماعات ، بينما ترتكز جرأة البعض الآخر على جلال الامارة وهيبة السلطان ، أما محمد ابن عبد الله فلم يتح له من ذلك شىء ، فجرأته لا تقاس بها جرأة ، وإقدامه لا يعدله فى التاريخ إقدام

وبرغم ذلك التوفيق الجلى لاحظت أن الأستاذ وهو يعالج بعض النواحى يجتهد فى ضرب من التحاليل أرى أنه ليس من التاريخ ولا من فلسفة التاريخ فى شىء ، فهو يتساءل عن السر فى خرس الجماهير مرات وسنوات إزاء الرسالة المحمدية ، وعن السر فى عدم إراقتهم دماء فى هذا السبيل ، ويقرر أن ذلك وقع برغم صياح أبى لهب وضجيجه ، وان ذلك كان لمعجزة ، وأن هذه المعجزة هى أن شخصية النبى أحلت فى نفوس القوم إيماناً جعلهم « يحترمون ويهابون ويؤمنون » . ليس ذلك يا سيدى هو الواقع ،

إنما الواقع الذى لا يقبل الجدل هو أن العرب حين جهر النبى بدعوته آذوه واستغربوا فى إيذائه حتى أخرجوه من عشه مهاجراً إلى المدينة ، وأنهم كانوا فى ذلك معاندين مكابرين لا يحترمون ولا يهابون ولا يؤمنون ، وأن شخصية النبى لم تغن من ذلك الايذاء شيئاً . وليسمح لى الأستاذ الجليل أن أؤكد له أننا لوذهبنا مذهبه من أن الرسول جهر بدعوته فاستجابت له الجماهير لأن تأثيره على محدثيه ومعاشريه تأثير النوم المغنطيسى فى المتوّم كما يقول : لو صح يا سيدى أن ننسب ذلك لمحمد لهيأنا للمعترضين فرصة للطعن فى دعوته فيقولون إن هذه القوة لا شك تبهر العرب بالباطل كما تبهرهم بالحق ، والواقع يا سيدى أن العرب سخرت من محمد ومن دعوة محمد وليس يخفى خبر المستهزئين بالرسالة من قريش أمثال أبى جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى وأبى لهب بن عبد المطلب وعقبة بن أبى معيط والوليد بن المغيرة عم أبى جهل والعاصى بن وائل القرشى والد عمرو بن العاص والنضر بن الحارث العبدرى وغيرهم ممن روى البخارى أخبارهم وحفلت بها بطون التواريخ

* * *

وفى موضع آخر من الرسالة يتناول المؤلف الكلام عن عدل الرسول الكريم فيسوق بعض الحوادث التاريخية التى تشهد بحبه للحق وانتصافه للناس حتى من نفسه . ثم يجاوز هذا الى تحليل صفة العفو والغفران فى نفس محمد ، وهنا يمحو تلك المعجزة التى كان قد أثبتها للنبى ، ويقر بما ناله من الأذى على يد قريش إذ يقول :

« أباحوا دمه ودمهم ، وعلقوا فى ذلك الحصار وتلك الاباحة صحيفة فى جوف الكعبة طمأنة للمقتدرين على الأذية ، وزادوا بأن أجازوا المتدى بثروة » (ص ٩١)

ويجيد الأستاذ فى تحليل ما كان من شأن الرسول الكريم مع قريش بعد فتح مكة من تسامح وغفران عظيمين ، ويوازن بقوة بين هذا التسامح وذلك الغفران وبين ما أتاه برتوس قائد القال بعد دخول روما وما صنعه بونابرت بعد دخول بولونيا ، فيبدع فى تحليل نفسية الرسول ويثبت سموه على غيره من قادة البشر وعظماء الانسانية ، ولعل أجمل ما ساقه فى ذلك الموضع تصويره الرسول غالباً ظافراً يقف من المغلوبين فيضرب للتاريخ أعظم أمثلة التسامح والديموقراطية إذ يردد قول الله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »

ثم يجاوز ذلك إلى مخاطبة الخائفين من المغلوبين بقوله :

« إذهبوا فأنتم الطلقاء »

هذه لمحة سريعة لذلك الكتيب الذى يقول مؤلفه الفاضل إنه الأول من الثلاثين التى يعتزم إخراجها فى فلسفة الاسلام ، ونحن نهنئ الكاتب بجهده الجميل الذى يعد نوعاً جديداً فى أدب السيرة المحمدية الشريفة ، ونرجو للمؤلف التوفيق فى إخراج بقية الأجزاء

السرنجاوى

نظام الطلاق فى الإسلام

تأليف الأستاذ الشيخ محمد شاكر

للاستاذ عبد المتعال الصعيدى

رأت وزارة الحقانية فى هذه الأيام أن تسير فى إصلاح أحكام الأصول الشخصية ؛ فنشرت على رجال القضاء الشرعى وغيرهم كتابا فى ١٣ نوفبر سنة ١٩٣٥ م تدعو من شاء منهم أن يقترح ما يراه من أحكام المذاهب الأخرى سبباً للتخفيف عن الناس ، ورفع الحرج عنهم

فكان الأستاذ الجليل ، والعالم المجتهد ، الشيخ احمد محمد شاكر القاضى الشرعى ، وأبو الأشبال أيضاً ، حفظه الله لهم وحفظهم له ، أول من بادر إلى إجابة هذه الدعوة ، ولا غرو فالولد سر أبيه ، ونشاطه من نشاطه ، وإذا كان فى الأزهر والمعاهد الدينية الآن شيء من النشاط ، فهى مدينة فيه لوالد الأستاذ أبى الأشبال الأستاذ الكبير الشيخ محمد شاكر شيخ معهد الإسكندرية ووكيل الجامع الأزهر ، والعضو الآن فى هيئة كبار العلماء ، فهو منشئ النظام الحاضر بالمعاهد ، وهو باعث هذا النشاط الموجود الآن فيها

وإذا قلت عن الأستاذ أبى الأشبال « العالم المجتهد » فذلك دو ما يستحقه بطريقته فى تأليف هذا الكتاب ، إذ سار فيه على طريق السلف الصالح من الرجوع فى استنباط الأحكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسول صلى الله عليه وسلم ، ولا يعول فى ذلك على أقوال أئمة المذاهب كما يعول عليها غيره ، ولا يتعداها إلى النظر الصائب الخالى عن التعصب فى كتاب أو سنة

وهو مرة يأخذ بأحد أقوال الأئمة الأربعة إذا وجده متفقاً مع كتاب الله وسنة رسوله ، ومرة يأخذ بقول الشيعة أو غيرهم إذا كان متفقاً عنده مع ذلك ، كما ذهب إلى الأخذ بقول الشيعة فى وجوب الاشهاد على الطلاق لقوله تعالى : (فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله) فالظاهر من سياق الآية أن قوله (وأشهدوا) راجع إلى الطلاق وإلى الرجعة معاً ، وهو قول ابن عباس ، فقد روى عنه الطبرى فى التفسير : إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضى عدتها أشهد رجلين كما قال الله (وأشهدوا ذوى عدل منكم) عند الطلاق وعند المراجعة ، وهو قول عطاء أيضا ؛ فقد روى عبد الرازق وعبد بن حُميد قال : النكاح بالشهود والطلاق بالشهود ، والمراجعة بالشهود ، نقله السيوطى فى الدر المنثور

وقد اختار الأستاذ أبو الأشبال بطلان الرجعة إذا قصد بها الرجل المضارة ، لقوله تعالى : (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) وقوله (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) وإذا كان للمرأة أن تطلب الطلاق للمضارة ، فأولى أن يكون لها الحق فى طلب الحكم بابطال الرجعة للمضارة أيضاً

ولكنه كما ترى ترك ذلك لنظر الحاكم ، ولا يخفى أن هذا يجر إلى منازعات لا طائل تحتها ، والأولى من هذا أن تكون الرجعة برضا المرأة ، لأنها إذا لم تكن برضاها فالمضارة حاصلة قطعاً ؛ وإذا كانت تستأمر فى النكاح ، فلتستأمر فى الرجعة أيضاً

ومما ذهب اليه الأستاذ أبو الأشبال أن الطلاق الثلاث الذى اختلف فى أنه يقع ثلاثاً أو طلقة واحدة إنما هو أن يطلق الرجل امرأته مرة ، ثم يطلقها مرة ثانية فى عدتها ، ثم يطلقها مرة ثالثة فيها ، سواء أكان ذلك فى مجلس واحد أم فى مجالس متعددة ، أما الطلاق بلفظ الثلاث فليس هو محل ذلك الخلاف ، وإنما يقع واحدة قطعاً ، لأن قول القائل « أنت طالق » يوجد به حين القول حقيقة معنوية واقعية هى الطلاق ، ووصفه بعد ذلك هذا الفعل بالعدد (مرتين أو ثلاثاً) وصف باطل غير صحيح ، لأن الذى تحقق بقوله (أنت طالق) مرة واحدة لا مرتان ولا ثلاث ، ولا يتحقق ذلك إلا بنطق ثان أو ثالث كسابقهما

وهذا مذهب له خطورته لولا أن العمل الآن على أن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع طلقة واحدة ، فلندع ذلك الماضى إلى رحمة الله ، ولنفكر فى حاضرنا وحده

هذا وكتاب الأستاذ أبى الأشبال جدير باقبال المسلمين عامة ، وطلاب العلوم الدينية خاصة ، لينتفعوا بما فيه من فقه صحيح ، واجتهاد نافع ، واطلاع واسع

عبد المتعال الصعيدى